

التلطف في خطاب الرسول – صلى الله عليه وسلم– في القرآن الكريم

(دراسة تركيبية دلالية)

إعداد

إيمان عبد الرحمن العبد الرحمن الزعبي

إشراف

الأستاذ الدكتور منير تيسير شطناوي

قدمت هذه الدراسة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير

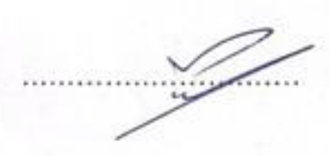
في تخصص اللغويات

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا في الجامعة الهاشمية

الزرقاء – الأردن ٢٠١٦/١١/٣

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة "التلطف في خطاب الرسول - صلى الله عليه وسلم- في القرآن الكريم (دراسة تركيبية دلالية)" بتاريخ ٢٠١٦/١١/٣م

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
الأستاذ الدكتور منير تيسر شطناوي، مشرفا أستاذ في علم الدلالة	....
الأستاذة الدكتورة ثناء نجاتي عياش، عضوا أستاذة في علم البلاغة	....
الأستاذة الدكتورة إيمان محمد الكيلاني، عضوا أستاذة في علم اللسانيات	 ....
الدكتور مصطفى طاهر الحيادرة، عضوا خارجيا أستاذ مشارك في علم اللغة جامعة اليرموك	....

الإهداء

إلى روحين طاهرتين بدأتا معي ولم تنتظرا حتى هذا اليوم، روح أمي، وروح أبي، رحمهما الله وأسكنهما فسيح جناته...

إلى ريحانة قلبي وشعلة دربي... ابنتي الوحيدة "جنى".

إلى كل من آزرني بنصيحة أو تشجيع أو دعاء.

أهدي لكم جميعاً هذه الدراسة.

راجية من الله أن يؤتيني خيرها في الدنيا وأجرها في الآخرة.

شكر وعرفان

من لا يشكر الناس لا يشكر الله

أقدم شكري وعرفاني للأستاذ الدكتور الفاضل "منير شطناوي" الذي لم يضنّ علي بعلمه وتوجيهاته – زاده الله فضلا وعلما – فما وجدت عنده إلا كلّ خلق وتواضع ودين، جـــزاك الله عني وعن سائر قاصديك كلّ خير.

وأتقدم بالشكر من الأساتذة الأفاضل أساتذة الجامعة الهاشمية، الذين منّ الله علينا بالالتقاء بهم والانتهال من علمهم، فقد أغدقوا علينا علمهم ومعرفتهم، فجزاهم الله كل خير.

وأتقدم بشكري الخاص للسيد الفاضل "سمير القضاة" ولأسرته الكريمة، إذ فتحوا لي باب قلوبهم قبل باب مكتبتهم، فكانوا خير عون لي على إتمام رسالتي، جزاهم الله عني كل خير.

وشكري موصول للأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة الذين تجشموا قراءة الرسالة وتفضلوا بمناقشتها.

فهرس الموضوعات

ملخص

"التلطف في خطاب الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم– في القرآن الكريم (دراسة تركيبية دلالية)"

إيمان عبد الرحمن الزعبي

المشرف: الاستاذ الدكتور منير تيسير شطناوي

سعت هذه الدراسة إلى الكشف عن قيم التلطف في خطاب الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم– في القرآن الكريم، إذ حاولت استكناه قيم التلطف والخصوصية في خطابه من خلال رصد الآيات القرآنية التي خوطب بها – عليه الصلاة والسلام – ثم اعتماد التفاسير في شرحها ثم اللجوء إلى المعاجم وكتب البلاغة العربية لاستشفاف قيمة التلطف من التراكيب اللغوية المتباينة في الآيات الكريمة من خلال سياقاتها ومناسبات نزولها.

قامت هذه الدراسة على بطاقة تعريفية بمعاني عنوان الدراسة وأربعة فصول وخاتمة، أما البطاقة التعريفية فهي معنية بشرح المفاهيم الثلاثة التي عنونت الدراسة بها، التلطف، والخطاب، والرسالة.

والفصل الأول بعنوان "التلطف مصطلحًا ومفهومًا وقيمةً"، عالج المصطلح بين المتقدمين والمحدثين، رابطًا بينه وبين علمي الدلالة والنفس. أما الفصل الثاني فهو بعنوان "التلطف في خطاب الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم– بصيغ المخاطب، والصيغ التي عقدت الدراسة عليها تحت هذا العنوان منها ما هو بصيغة الضمير المنفصل "أنت" ومنها ما هو بصيغة كاف المخاطب المرتبطة بالأسماء والأفعال وغيرها، وقد اعتمدت شاهدين على كل نمط للخلوص إلى التلطف الذي هو ثمرة هذه الدراسة. والفصل الثالث بعنوان: التلطف في خطاب الرسول محمد

– صلى الله عليه وسلم – بصيغ الغائب، تناولت بها الآيات التي خوطب بها الرسول الكريم بصيغ الغائب، مع اعتماد شاهدين من الآيات على كل نمط. والفصل الرابع بعنوان: التلطف في خطاب الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – بالإشارة إليه دون ذكر صريح أو بصيغ مغايرة للمخاطب والغائب، بأسمائه وصفاته.

والخاتمة قد خلصت بها إلى جملة من النتائج أهمها: التلطف سمة عامة للخطاب الإلهي للرسول الكريم، التلطف مفهوم قديم تناوله المتقدمون بأسماء مختلفة، التلطف يظهر بأساليب لغوية وبلاغية عديدة منها العدول والانزياح والتقديم والتأخير وغيرها.

فهرس الآيات حسب ترتيبها في المصحف الشريف

رقم الصفحة	الآية	السورة
٦٩	قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥	
١١٣	قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ المائدة: ٥٤	المائدة
١٣١	قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ المائدة: ٦٧	
١٧	قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الأنعام: ١٠٣	الأنعام
٢٢	قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ ﴾ الأنعام: ١٠٨	
١٥٨	قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ الأعراف: ١٨٤	الأعراف
٢	قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ التوبة: ٦١	
١٣٩	قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ التوبة: ٧٣	
١٤٧	قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ التوبة: ٤٣	
١٥٠	قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ التوبة: ٤٧	التوبة
١٦٢	قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة: ٤٠	
١٩٣	قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة: ١٢٨	

السورة	الآية	رقم الصفحة
	ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور: ٦٣	
القصص	قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ القصص: ٣٠	١٣٣
لقمان	قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ لقمان: ١٦	١٨
الأحزاب	قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ الأحزاب: ٣٤	١٨
	قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ الأحزاب: ٥٦	١٥٢
	قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ الأحزاب: ٤٥ - ٤٦	٢٣٠
سبأ	قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ سبأ: ٢٤	٢٢
فاطر	قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ فاطر: ٢٢ ــ ٢٣	٥٤
يس	قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ يس: ٦٩	١٨٤
الصافات	قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ﴾ الصافات: ١	٧١
	قَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ الصافات: ٣٧	٢١٢
	قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴾ الصافات: ٣٦	٢١٢
ص	قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ ص: ٢٠	١٠
	قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ ص: ٢٣	٢٦
الزمر	قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ الزمر: ٣٦	٢٢٣
فصلت	قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ﴾ فصلت: ٢١	٢٣
الشورى	قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الشورى: ١٩	١٨

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، محمد بن عبدالله علم الحق والدين، أما بعد:

فقد منّ الله علينا أن جعل منا رسولاً هاديا، يخرجنا من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وأنزل عليه قرآناً عربياً أعجز البشر ببيانه وبلاغته، هو خطاب إلهي موجّه للناس كافة، مشرّع ومنظم لحياتهم، وقد تتالت الدراسات المتعلقة بخطاب القرآن الكريم، سواء كانت هذه الدراسات متصلة بالعلوم الشرعية أم بالعلوم اللغوية، أما هذه الدراسة فمرتبطة بعلم الدلالة، وهي مختصة بالخطاب الإلهي الموجه للرسول الكريم محمد – صلى الله عليه وسلم – وهدفها رصد قيم التلطف في الخطاب الإلهي الموجه له، أما عنوانها فهو "التلطف في خطاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – في القرآن الكريم، دراسة تركيبية دلالية".

وحيث إنه قد علم ما كان من معاناة الرسول– صلى الله عليه وسلم– في سبيل الدعوة، التي تجشم في سبيلها المشاق والأذى بشتى صنوفه، بل إنه كاد أن يهلك لولا عصمة ربه وحفظه إياه، ولمّا كانت له هذه المكانة العظيمة فقد خصه الله تعالى بخطاب فريد لطيف دقيق، كان له ولم يكن لغيره من بني الإنسان، فتارة يواسيه وتارة يوجهه ويؤدبه وأخرى يمتدحه، وتجده يخاطبه بأجمل الصفات وأرق الأسماء، إلا أن الخطاب له لم يخل من أمر أو نهي أو عتاب، لكن الصفة الجامعة لكل أحوال خطابه هي صفة التلطف، فالله تعالى يضع أوامره ونواهيه له بقالب اللطف واللين تكريمًا وتشريفاً له – صلى الله عليه وسلم– بل إنه تعالى ليراعيه بحب ورحمة لما علم من صدقه وتفانيه في التبليغ.

أما هذه الملاطفة فتظهر على شكل إشارات دقيقة مسوقة بوعاء المعاني ألا وهو اللغة،

واعتنت الباحثة برصدها وإظهارها في هذه الدراسة – إن شاء الله–.

منهجية الدراسة:

اتبعت الباحثة المنهج الإحصائي بداية لرصد الآيات الكريمة التي خوطب بها الرسول – صلى الله عليه وسلم –، والعمدة في هذا الجانب من الدراسة معجم لذكر الرسول الكريم في القرآن للدكتور محمد زكي خضر؛ إذ إن هذا المعجم اختص برصد الآيات القرآنية التي ذكر بها الرسول الكريم محمد– صلى الله عليه وسلم– ثم عمدت إلى تصنيفها تصنيفاً لغوياً – هو تصنيف صاحب المعجم، وإن كان للباحثة بصمة في الإضافة إلى هذا التصنيف – تمثلت بتقسيم ما هو مجتمع أو جمع ما هو متشابه، ثم تخيرت من هذه الآيات مثالين على كل نمط خطابي لتستجلي بهما قيم التلطف الإلهي في خطاب الرسول الكريم، وإن الاختيار للشواهد القرآنية لم يكن عشوائياً بل هو اختيار وفق النمط الخطابي، ثم وفق الإشارة الواضحة للتلطف بعد استشراف لتفسير الآيات قبل الخوض بها، متحرية عدم التكرار بهدف توسعة الفائدة والوصول بهذه الدراسة إلى أوفى إحاطة ممكنة؛ لا سيما أن في القرآن الكريم آيات متشابهة، وأساليب لغوية متداخلة، فقد تجد الخطاب بالضمير وبالفعل وبالظرف في آية واحدة، مثال ذلك قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾التوبة: ٦١

فالآية الكريمة تضمنت الخطاب بالضمير (هو) وبفعل الأمر (قل)، وبصفتي الرسالة والنبوة، فالمتناول من الشواهد تحت هذا النمط اللغوي، انتقت الباحثة غيره من الآيات الكريمة عند دراسة نمط آخر من الخطاب من باب الابتعاد عن التكرار أولاً، ومن باب التوسعة في

الفائدة كما تقدم لا سيما أن هذه دراسة لغوية وإن كان ميدانها الشريف هو القرآن الكريم عامة، والآيات التي خوطب بها الرسول الكريم خاصة، ثم اتبعت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي، إذ اتخذت من آراء المفسرين ركيزة تنطلق منها إلى استجلاء أهداف الدراسة من إظهار لقيمة التلطف التي هي ثمرة هذا البحث، ثم عمدت إلى تحليل الآية – بما يتفق مع آراء المفسرين – تحليلاً لغوياً، فالباحثة تتناول الآية القرآنية مفسرة لها في ضوء أسباب نزولها، وتقسيمها من حيث هي مكية أو مدنية، ثم اللجوء إلى المعجم ثم التحليل النحوي والصرفي والصوتي، لجني قيمة التلطف الدلالية والبلاغية.

أهمية الدراسة:

تحمل الدراسة عنوان "التلطف في خطاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – في القرآن الكريم دراسة تركيبية دلالية".

تتأتى أهمية الدراسة من كونها مختصة بميدان التلطف – الذي أحسبه جديدا – بل وأحسبها الدراسة الأولى التي تحمل هذا العنوان، وإن الباحثة قد تقصت موضوع التلطف فلم تجد فيما بحثت إلا القلة القليلة من الدراسات، وإن هذه القلة ربما حملت مفردة التلطف في عنوانها ولم تقترب منه في طياتها، فما وجدت الحديث عن التلطف إلا على شكل إشارات متناثرة في كتب التفاسير أو أبحاث قصيرة تحت عنوان الخطاب النفسي أو الاجتماعي، قد مر الباحث فيها على هذه الإشارات غلى عجل غير قاصد إياها.

وجديد هذه الدراسة كذلك ميدان بحثها، فالتلطف في خطاب الله تعالى للرسول – صلى الله عليه وسلم – هو هدف هذه الدراسة على وجه الخصوص، وقد وجدت الباحثة غير واحدة من الدراسات المتعلقة بالخطاب القرآني، منها ما كان مخصوصاً بسورة معينة، أو بالخطاب

القرآني عامة، ومنها ما كان متعلقاً بعلم الفقه أو الشريعة، وقد علم الارتباط بين العلوم الشرعية والعلوم اللغوية، فالشرع مصدره القرآن والسنة، وكلاهما وعاؤهما اللغة. وتسعى هذه الدراسة إلى إبراز خصوصية خطاب الرسول الكريم في القرآن الكريم كما تسعى للكشف عن الأنماط اللغوية التي يمكن استشراف قيم التلطف منها، كما أنها ربط بيّن واضح بين آراء المفسرين واللغويين والمعجميين والنحويين والأسلوبيين، لجني قيمة التلطف التي هي ثمرة هذه الدراسة ومحورها. وجديد هذه الدراسة أن قيم التلطف إن درست ففي الأدب لا في القرآن الكريم، وجديدها في سعيها إلى كيفية استكناه قيم التلطف من خلال القيم الدلالية للمفردات.

أما معوقات البحث فكثيرة، منها: إن موضوع التلطف لم تفرد له دراسة بشكل مستقل، فهو إشارة ملتقطة من مجموع كتب التفاسير في معانيها، متبلورة على شكل نمط لغوي في صورتها، فهي بين المعنى الذي عني به المفسر وبين النمط والتركيب اللغوي الذي عالجه النحوي أو المعجمي أو الصرفي بل والبلاغي كذلك، ومن المعوقات أيضاً قلة الدراسات السابقة في موضوع التلطف، فما وقعت يد الباحثة عليه من دراسات، كانت متعلقة بالخطاب القرآني، أو متعلقة بفقه أو إنها دراسة تحمل العنوان ولا تقترب منه في فحواها – كما أسلفت –.

أما مصادر هذه الدراسة ومراجعها فمتنوعة، أشرفها القرآن الكريم الذي هو ميدان الدراسة، ثم معجم لذكر الرسول الكريم – تقدمت الإشارة إليه – ثم عيون كتب التفاسير مثل الكشاف للزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، ومفاتيح الغيب للرازي (ت ٦٠٦هـ)، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٧٥٤هـ) ، والدر المصون للسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، والجواهر الحسان للثعالبي (ت ٨٧٥هـ)، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (ت ٨٥٥هـ)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (ت ٩١١هـ)، وروح المعاني للألوسي (ت ١٢٧٠هـ)،

وخواطر الشعراوي (ت ١٤١٨هـ)، وإعراب القرآن الكريم لابن عربي، وثلة من معاجم اللغة العربية لشرح مفردات عنوان الدراسة منها: شمس العلوم لنشوان الحميري، ومعجم الكليات للكفوي، ومعجم التعريفات للجرجاني، وكشاف مصطلحات الفنون للتهانوي، وآخرون، وثلة من كتب اللغة مثل علم الدلالة لأحمد مختار عمر، ودلالات الألفاظ لابراهيم أنيس، وغيرهم.

أما الدراسة فقائمة على:

- **مقدمة:** احتوت منهجية الباحثة.
- **تمهيد:** عمدت به الباحثة إلى توضيح معاني مفردات عنوان الدراسة.
- **الفصل الأول:** عنوانه "التلطف المصطلح المفهوم والقيمة" يقوم على ثلاثة محاور، الأول: تأصيل لمصطلح التلطف عند المتقدمين، والثاني: وجود مفهوم التلطف عند المحدثين والثالث: علاقة التلطف بعلمي الاجتماع وعلم النفس، فما التلطف إلا ظاهرة في اللغة، وليس للغة إلا أن تكون ظاهرة اجتماعية ناتجة عن بشر متفاوتين في أنفسهم وفي طبقاتهم.
- **الفصل الثاني:** التلطف في خطاب الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – بصيغ المخاطب.
- **الفصل الثالث:** التلطف في خطاب الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – بصيغ الغائب.
- **الفصل الرابع:** التلطف في خطاب الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – بصيغ لغوية مباينة للمخاطب والغائب بأسمائه وصفاته وكناه.
- **والخاتمة.**

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد

"التلطف في خطاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – في القرآن الكريم، دراسة تركيبية دلالية" عنوان الدراسة معني بثلاثة مصطلحات هي: التلطف والخطاب والرسالة.

التلطف، مفهومه ودلالته:

اللطف من الله تعالى هو الرحمة والرفق، واللطف: الرفق في العمل، واللطف: اسم من ألطاف، واللُّطَفة: الهدية، واللطيف: الصغير، واللّطيف: اسم من أسماء الله عز وجل، معناه: الرؤوف بعباده، ولطف من اللطف واللطافة، مصدر من اللطيف وهو: الصغير، ولطف الله بعباده لطفاً: رفق بهم، والإلطاف ألطفه أي برّه، ومنها الملاطفة والتلطيف، وألطفه: صغّره[١].

إن التلطف يدور في محور الدقة والصغر والرفق واللين، وجلّها معان إيجابية لأسلوب يصطفى في التعامل مع الخاصة من الناس، فلا يتحرى اللطف في القول أو العمل إلا مع من تحرص على إبقائهم وإبقاء ودّهم بانتهاج منهج رقيق يوصل الطلب دون إحداث أذية في النفوس؛ ولأن الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – خير من ولد على هذه الأرض خصّه الله تعالى بالخطاب الرقيق الرفيق، بل إن في حضّه وفي تكليفه بالرسالة تكريم وتلطف وتشريف، فإن كان هذا النهج من الله تعالى في جهة الرسول الكريم، فكيف بنا في جهته؟ وهو الهادي والمعلم بل إنه الوسيط بين الله وبين العباد.

---

[١] انظر، نشوان بن سعيد الحميري، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: أ.د حسين بن عبد الله العمري وآخرين، بيروت، لبنان، دار الفكر المعاصر، دمشق سورية، دار الفكر، د.ط، د.س، ج٩، ص ٣٥٣- ٣٥٨.

أما في كشاف مصطلحات الفنون والعلوم وفي كشاف المصطلحات والكليات فاللطافة بالفتح تطلق على معان أربعة، الأول: رقة القوام، أعني سهولة قبول الأشكال الغريبة وتركها، أي الكيفية المقتضية لتلك السهولة، والثاني: قبول الانقسام، والثالث: سرعة التأثر، والرابع: الشفافية[١]، وهنا لا تكون من الملموسات. واللطيف يطلق على الذي يرفق بالعمل، وعلى العاصم، واللطف: بالضم وسكون الطاء المهملة: هو الفعل الذي يقرب العبد إلى الطاعة، بحيث لا يؤدي إلى الإلجاء أي الاضطرار، كبعثة الأنبياء، فإنا نعلم أن الناس معها بالضرورة أقرب إلى الطاعة وأبعد عن المعصية، واللطف: العصمة. واللطيفة: هي النكتة إذا كان لها تأثير في النفس بحيث يورد نوعا من الانبساط، واللطيفة: إشارة دقيقة يتضح بها إشارة لمعنى لا يتسع لها اللفظ، واللطيفة إشارة دقيقة لم يسبقها ورود في الذهن ولا يتسع لها التعبير، واللطيفة الإنسانية: هي النفس الناطقة، وهي القلب وهي الروح[٢].

إن المعاني يدور جلها في الرقة، أما الأول فيدور في تقديم ما هو غير مستساغ بقالب مستساغ، كجعل الغليظ رقيقاً بكيفية تسهل قبوله دونما شعور بغلظته، والمعنى الثاني المتضمن معنى الانقسام فشكل آخر لتلطيف الشيء بآلية التجزئة لترغيب المتلقي في القبول، دونما شعور بثقل أو عبء، وسرعة التأثير غاية من غايات التلطف، هي تحقيق التأثير والاستجابة، دونما مسافة تفصل انشغال النفس بغلظة الأمر أو عظمه أو ألم يستنفذ الهمة قبل الانصراف إلى العمل

---

[١] انظر، التهانوي، محمد علي، كشاف مصطلحات الفنون والعلوم، تحقيق، رفيق العجم وآخرين، لبنان، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، طبعة١، س١٩٩٦م، ص١٤٠٦-١٤٠٨، والكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: د.عدنان درويش، لبنان بيروت، الرسالة ناشرون، ط٢، س١٩٩٨م، ص٧٩٧.

[٢] انظر، الجرجاني ،علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، معجم التعريفات، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، د.س، د.ط، ص١٦١ والتهانوي، كشاف مصطلحات الفنون والعلوم، ص١٤٠٦-١٤٠٨.

المراد، والشفافية هي غاية التدقيق والترقيق، بأن يبدو الأمر على صعوبته أمراً شفافاً يمر على النفس بخفة دون أن تشعر بعناء تجشم أو حتى بمرور عارض عليها، فأي تنوع وتفنن في الأساليب قد يوصل الإنسان إلى مستوى من الشفافية والمراعاة في التعامل مع الخاصة من الناس أو الأشياء هو التلطف أو هو درجة من درجاته؛ إذ لن يبلغ المرء وإن اجتهد درجة تلطف الله برسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم – لما علم من صعوبة أمر الرسالة التي وكل بها، فخفف عنه أعباءها بتكليفه بالأمر الشاق الصعب بأسلوب رقيق لطيف.

مما يذكر هنا أن المؤلف قد أورد تعريفات للتلطف واللطف وفق آراء الشيعة والمعتزلة والمتصوفة، جلّها متعلق بدرجات القرب والعبادة، قد ضربت الباحثة عنها صفحاً.

وفي معجم الكليات اللطافة من اللطيف: وهو من الأسماء الحسنى معناه البر بعباده، المحسن إلى خلقه بإيصال المنافع إليهم برفق ولين ولطف، فيكون من صفات الأفعال فالصفات الجميلة للعباد بخلق الله تعالى وإقداره إياهم على كسبها أو بإقداره إياهم على خلقها، فتكون من أنوار ذاته وآثار صفاته، واللطيف: العالم بخفايا الأمور ودقائقها، فيكون من صفات الذات، واللطيف من الكلام: ما غمض معناه وخفي، ولطف: رفق ودنا، ولطف الله لك: أوصل إليك مرادك بلطف[١].

أورد المعجمي توضيحاً للمفردة بوصفها متعلقة بموصوف بها، فقد فسر المفردة على أنها من صفات الله تعالى، وأن من لطف الله أن جعل في العباد بعضاً من صفاته يتصفون ببعضها ولا يصلون إلى تامها، وذلك من أصل خلقهم لأن المتفرد بصفات الكمال هو وحده، وأن لطفه يدور في قدرته على خلق قابلية الاكتساب فيهم، لتكون علامة فيهم على ذاته، ومن لطفه

---

[١] انظر، الكفوي، الكليات، ص٧٩٧.

تعالى علمه بدقائق الأمور وخفاياها، بأن ييسر للإنسان الأمر بلطف ودقة، بل وإنه يدبر للنـــاس الأمر بتدبير خفي لطيف، وللمعجمي رأي في التلطف في الكلام، وأنه متضمن معنى التخفـــي، ولا يكون التخفي في الكلام إلا فيما يصعب توضيحه والتصريح به، فالتلطف يكون في إخفـــاء الغليظ من الكلام، باختيار مفردات رقيقة توصل المعنى المراد دونما شدة أو أذية.

أما في معجم التعريفات، فالتلطف: أن يذكر ذات أحد المتضايفين مجردة عن الإضـــافة في تعريف التضايف الآخر[١].

وفي اللسان، لطف، اللطيف: صفة من صفات الله واسم من أسمائه، والمعنى: الرفيــق بعباده، واللطيف: الذي يوصل إليك إربك في رفق، واللطف من الله: التوفيق والعصمة، لطُــف، بضم الطاء: صغر ودقّ، واللطف: البرّ والتكرمة والتخفي، وألطفه بكذا: بــرّه بـــه، والاســـم: اللطف، واللطفة: الهدية، ولطف فلان: أصحابه وأهله، واللطيف من الكلام: ما غمـــض معنـــاه وخفي، واللطف في العمل: الرفق فيه، والتلطف للأمر: الترفق به[٢].

يدور ما سيق من معان في معنى الرفق، إن كان من جهة الله إلى العباد، وإن كان فـــي الكلام فهو التستر وخفاء المعنى، وليس الخفاء هنا بغية الغموض إنما بغية قولبة العسير بقالـــب اليسير.

أما في أساس البلاغة وغير واحد من المعاجم، فلطف به وله إذا رفق، وأنا ألطـــف: إذا

---

(١) انظر، الجرجاني، معجم التعريفات، ص٥٩.

(٢) انظر، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري الخزرجي المصري أبو الفضـــل (ت ٧١١هــ)، الكويت، شركة دار النوادر، وزارة الشؤون الاسلامية والأوقاف والـــدعوة والإرشـــاد، د ط، س ٢٠١٠م، ج١١، ص٢٢٨-٢٢٩، مادة لطف.

أريته مودة ورفقا في المعاملة، ولطيف بهذا الأمر: رفيق بمداراته[١].

اللطف من الله: العصمة والتوفيق، ولطف: رق، ضد كثف[٢] وفي مقاييس اللغة: فإن اللام والطاء والفاء، أصل يدل على الرفق[٣].

الخطاب، مفهومه ودلالته:

الخطاب: الكلام بين اثنين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ ص: ٢٠. الخطبة: اسم الكلام المخطوب به[٤] وخاطبه: من الخطاب، والخطاب المفيد على ضربين حقيقة ومجاز، وأصل الخطاب من الخطب، وهو سبب الأمر[٥].

إن المعجمي يوصل للأذهان اشتراط وجود طرفين خطيب ومخاطب، وبينهما نص الخطاب جار، ويفسر سبب وجود الخطب بأمر داع له وهو الخطب أو الأمر الذي استدعى وجود الخطاب.

---

[١] انظر، الزمخشري، جار الله محمود بن عمر بن أحمد، أبو القاسم (ت ٥٣٨هـ) أساس البلاغة، تحقيق:= =محمد باسل عيون السود، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، ط ١، س ١٩٩٨م، ج/٢ص١٦٩، والزبيدي، محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفضل، الملقب بـ(مرتضى) (ت ١٢٠٥هـ) تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.ط، د.س، مادة لطف، ج/٢٤، ص٣٦٣-٣٦٤، والرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، عمان، دار عمار، ط.٩، س ٢٠٠٥م، ص٢٩٤، ومدكور، ابراهيم مدكور، المعجم الوسيط،، مجمع اللغة العربية، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط ٤، س ٢٠٠٤م، ص٢٤٢-٢٤٣، وأبو العزم، عبد الغني، معجم الغني، ص٧٦٨٩.

[٢] انظر، الجوهري، اسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين، ط.٤، س١٩٩٠م، ص١٤٢٦-١٤٢٧ والرازي، مختار الصحاح، ص ٢٩٤.

[٣] انظر، ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ) معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت ، لبنان، دار الفكر، د ط، س ١٩٧٩م، ص٢٥٠.

[٤] انظر، الحميري، شمس العلوم، ص١٨٤٣.

[٥] انظر، المرجع السابق ص ١٨٥١.

أما في معجم الكشاف، فالخطيب:هو صاحب الخطابة ومن يقرأ الخطبـــة، والخطـــاب: بكسر الخاء: هو توجيه الكلام نحو الغير للإفهام، ثم نقل إلى الكلام الموجه نحو الغير للإفهـــام، وقد يعبر عنه بما يقع به التخاطب، والخطاب: اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هـــو متهيء لفهمه، فاحترز باللفظ عن الحركات والإشارات المفهمة بالمواضعة وبالمتواضع عليه من الأقوال المهملة، وبالمقصود به الإفهام عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع فإنه لا يسمى خطابا، والكلام يطلق على العبارة الدالة بالوضع على مدلولها القائم بالنفس، فالخطاب إما بالكلام اللفظي أو الكلام النفسي الموجه به نحو الغير للإفهام، والخطابة: التأثير بالبيان(١).

الخطاب كلام جار قصد منه الإفهام، أي توصيل أمر سواء كان تكليفا أو توجيها أو غير ذلك، بل إن الخطاب لا يقتصر على اللفظ فحسب، فهو اللفـــظ منضـــاف إليـــه الإشـــارات أو الحركات والإيماءات الجسدية التي قد تدعم حجج الخطيب وتزيد من قدرته على الإقناع، يزيـــد على ذلك أن الخطاب شامل للفظ ولمدلوله النفسي في المتلقي، فيصبح الموقـــف قائمـــا علـــى مجموعة من العناصر، أساسها الخطيب وهو المرسل، والمخاطب وهو المتلقي، والرسالة بينهما وهي الخطاب، والفهم المتحقق منها لدى المخاطب، والأخيرة نسبية تختلف باختلاف المتلقـــي، وعلى ذلك يتوقف ذكاء الخطيب بمراعاة نوعية المخاطب ومستوى فهمه ليتخير من الخطاب ما يصل ويدرك.

أما في معجم الكليات، فالخطبة: كلمات تتضمن طلب شيء(٢) والخطابـــة فـــي معجـــم التعريفات: قياس مركب من مقدمات مقبولة مظنونة من شخص معتقد فيه(٣) والغرض ترغيـــب

---

(١) انظر، التهانوي، كشاف مصطلحات الفنون والعلوم، ص٧٤٩-٧٥٤.

(٢) انظر، الكفوي، الكليات، ص٤٣٣.

(٣) انظر،الجرجاني، معجم التعريفات، ص٨٧..

الناس بما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم كما يفعل الخطباء والوعاظ [١].

الخطاب مفردة لم يقطع التعريف بها بعد، فمنهم من عرفها بالنظر إلى الهدف منـــه، أي أنه كلام يهدف إلى طلب شيء معين، بغض النظر عن مقصد صاحبه من وعظ أو توجيه.

والخطاب: المواجهة بالكلام[٢] وهو الكلام بين اثنين، والتخاطب: المراجعة[٣] والخطاب من الخطب، وهو الشأن أو الأمر صغر أو عظم، والخطـــاب والمخاطبـــة: مراجعـــة الكـــلام، والخطبة: اسم الكلام الذي يتكلم به الخطيب، والخطبة: الكـــلام المنثـــور المســـجوع، وفصـــل الخطاب: أن يحكم بالنية أو اليمين، وأول من قال "أما بعد" هو داود عليه السلام، وقيل هو الفقه في القضاء[٤] وخاطبه بالكلام خطابا ومخاطبة[٥] الخطيب: صفة مشبهة لمن يلقي خطبة[٦].

المفردة في المعاجم قد جاءت بمعنى الكلام، ومراجعته وأنه مسبب عن أمر هو مدعاته، والقرآن من هذا خطاب للبشر جميعا، بكل مستوياتهم وعقولهم ودرجاتهم، وما قد خـــص بهـــذه الدراسة هوأشرف خطاب من أعلى المخاطبين وهو الله تعالى، إلى أشـــرف المخـــاطبين وهـــو الرسول الكريم.

الرسول، مفهومه ودلالته:

في شمس العلوم، الرسول: المرســـل قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ آل عمران: ١٤٤

---

[١] انظر، التهانوي، كشاف مصطلحات الفنون والعلوم، ص٧٥٠، والجرجاني، المرجع السابق ص٨٧.

[٢] انظر، الزمخشري، أساس البلاغة، ج١، ص٢٥٥.

[٣] انظر، ابن فارس، مقاييس اللغة، ص١٩٨.

[٤] انظر، ابن منظور، لسان العرب، مرجع ســـابق، ص ٣٤٩، والزبيـــدي، تـــاج العـــروس، ج٢، ص٣٧٠، ومدكور، المعجم الوسيط، ص ٢٤٢-٢٤٣.

[٥] انظر، الرازي، مختار الصحاح، ص٩٦، والجوهري، الصحاح، ص١٢١.

[٦] انظر، الزبيدي، تاج العروس، ج٢ ص٣٧٠، أبو العزم، الغني، ص١١٣٤٨.

ويكون للاثنين والجمع والمؤنث، والرسول: الرسالة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ الطلاق: ١٠ – ١١.

الرسول في كشاف مصطلحات الفنون والعلوم، يستعمل في الشريعة بمعنى بعث الله إنسانا إلى الخلق بشريعة سواء أمر بتبليغها أو لا،ويساوقها النبوة، وقد تخص الرسالة بالتبليغ أو بنزول جبريل–عليه السلام–أو بكتاب أو شريعة جديدة أو بعدم كونه مأمورا بمتابعة شريعة من قبله من الأنبياء، وقيل الرسول أعم من النبي؛ لأن الرسول إنسان أو ملك مبعوث بخلاف النبي فإنه مختص بالإنسان[١] وفي التعريفات فالرسول: إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام، وفي اللغة: هو الذي أمره المرسل بالتسليم أو القبض، وكل رسول نبي من غير عكس[٢] وفي اللسان، الرسول بمعنى الرسالة يؤنث ويذكر ويجمع، والرسول: المتابع للأخبار من الله، الرسول لغة: الذي يتابع الأخبار ممن أرسله، جاءت الإبل رسلا: متتابعة، والرسول ذوالرسالة، وجمعها: رسل، أرسل، رسل، رسلاء[٣] وأرسل: برسالة رسول أن افعل كذا...[٤] والرسول: المرسل، لقب النبي محمد – صلى الله عليه وسلم–[٥] الرسالة، ومن الملائكة من يبلغ من عند الله، ومن الناس: من يبعثه بشرع يعمل به ويبلغه[٦] رسل: اتئد[٧] رسل: السهل السير، وفعول وفعيل يستوي فيها المؤنث والمذكر[٨] ولابن فارس رأي أورده آخرا هو: إن اجتماع الراء والسين واللام من أصل واحد يدل على الانبعاث والامتداد، والرّسل: السير السهل، وشعر رسل: إذا كان

---

[١] انظر، التهانوي، كشاف مصطلحات الفنون والعلوم، ص٨٦٠.

[٢] انظر، الجرجاني، معجم التعريفات، ص٩٦.

[٣] انظر، ابن منظور، لسان العرب، ص٣٠١–٣٠٢ الزبيدي، تاج العروس، مرجع سابق، ج٢٩، ص٧٣.

[٤] الزمخشري، أساس البلاغة، ج١، ص٣٥٣.

[٥] انظر، أبو العزم، الغني، ص١٣١٤٣.

[٦] انظر، مدكور، المعجم الوسيط، مرجع سابق، ص٣٤٤.

[٧] انظر، الرازي، مختار الصحاح، ص١٢٦،و الجوهري، الصحاح، ص١٧٠٩.

[٨] انظر، المرجع السابق.

مسترسلا، وأرسل إرسالا: يتبع بعضهم بعضا، والرسل: الهينة[١].

إن المعاني السابقة إنما تدور في خلاف بين مفهومي الرسالة والنبوة، وكلاهما وصف اتصف بهما الرسول الكريم، ثم دارت المعاني حول معنى الإرسال والبعث، تلا ذلك التفاف حول معنى الامتداد والهينة والسهولة، هذا تعريف ابن فارس- كما تقدم -لكن هل كانت الرسالة سهلة ممدودة مبسوطة؟ ومن أي وجه كان التتابع؟

إن الرسالة الإسلامية – على مشاقها – كانت ممدودة للرسول الكريم بوضوحها من جهة وعصمة وتوفيق له من ربه من أخرى، بل إن المؤمن لمستمتع بصبره لعلمه أن الصبر طريق يصل به إلى الجنة، لا سيما إذا كان هذا الصبر جميلا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾يوسف: ١٨، أي إنه يصبر متمتع بحصاد أجره عند ربه لا شاكيًا ولا متململًا ولا مزكيا نفسه، وأي إيمان قد يكون في قلب مؤمن فوق إيمان رسول الله، أما التتابع فهو من جهة الرسل – عليهم السلام – فقد بعثوا للأمم يتبع بعضهم بعضا.

ومن المعاجم التي عادت إليها الباحثة: المنتخب من غريب كلام العرب وفهرس اللغة فيه، فوجدت مادة متعلقة باللفظة خطب: ما يدور حول خطبة النساء لا الخطابة[٢] واللفظة رسل: رسل: ما يدور حول الاسترسال، ناقة مرسال: سهلة المشي[٣] أما اللفظة لطف فما وجدت.

---

[١] ابن فارس، مقاييس اللغة، ص٣٩٢.

[٢] انظر، كراع النمل، علي بن الحسن الهنائي، أبو الحسن (ت ٣١٠هـ) المنتخب من غريب كلام العرب، تحقيق: محمد بن أحمد العمري، مكة ، ط ١، س ١٩٨٩م، ص١٠٩، ومصطفى عبد الحفيظ سالم، فهرس اللغة في كتاب المنتخب لكراع النمل، مكة، مركز ودود للمخطوطات، مركز البحوث الإسلامية مكة، د.ط، د.س، ص٨٤.

[٣] انظر، المرجع السابق، ص٢٨٨، والمرجع السابق، فهرس اللغة في كتاب المنتخب، ص ١٦٨.

الفصل الأول:

التلطف، المصطلح والمفهوم والقيمة

الفصل الأول

التلطف، المصطلح والمفهوم والقيمة

اللطيف:

اللطيف: إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها، ما دق منها وما لطف، ثم يسلك في إيصالها إلى المستحق سبيل الرفق دون العنف، فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في العلم تم معنى اللطف، ولا يتصور ذلك كمال ذلك في الفعل والعلم إلا لله تعالى، فأما إحاطته بالدقائق والخفايا فلا يمكن تفصيل ذلك، بل الخفي في علمه كالجلي من غير فرق، أما رفقه في الأفعال فلا يدخل أيضا تحت الحصر؛ إذ لا يعرف اللطف في الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله وعرف دقائق الرفق فيها، وبقدر اتساع المعرفة فيها تتسع المعرفة بمعنى اسم اللطيف[١].

إن مفهوم اسم الله تعالى (اللطيف) متأت من وصف هو له تعالى، وهذا الوصف إنما جاء من علم مطلق وإحاطة واسعة في الخلق والمخلوقات، ومن سيكون أعلم بالشيء من صانعه ومن مبتدعه ألا وهو الله سبحانه، بل إنه خلق المخلوقات لحكمة وإن جهلناها فهي واردة في تدبره، وإنما لطفه بالمخلوقات وتسييرها وتدبيرها ورزقها وخلقها متأت من علمه المحيط التام بها.

أما جوانب التلطف فلا يمكن حصرها – على حد وصف صاحب الكتاب- لكن يدرج منها ما هو متعلق بالإنسان فيقول "من لطفه بعباده أنه أعطاهم فوق الكفاية، وكلفهم دون الطاقة،

---

[١] الغزالي، محمد بن محمد، أبو حامد، الملقب بحجة الإسلام (ت ٥٠٥هـ) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق: محمد عثمان الخشت، القاهرة مكتبة القرآن، د.ط، د.س، ص ١٦٤- ١٦٧.

ومن لطفه أنه يسر لهم الوصول إلى سعادة الأبد بسعي خفيف في مدة قصيرة وهي العمر"[١].

هذا ما يتعلق بجانب الإنسان من خلقه على صورة تمكنه من القيام بأكثر مما هو مكلف به، وتكليفه بما هو أقل، ومنه جعل عمر الإنسان وسيلة للخلود الأبدي السعيد في الجنة، وهذا لا يقاس إلى جنب ذاك، فما عمر الإنسان أمام الأبدية.

ونصيب العبد من الاتصاف بهذه الصفة به حد معلوم بقوله "حظ العبد من هذا الوصف الرفق بعباد الله، والتلطف بهم في الدعوة إلى الله والهداية إلى سعادة الآخرة من غير ازدراء وعنف، ومن غير خصام وتعصب، وأحسن وجوه اللطف فيه الجذب إلى قبول الحق بالشمائل والسيرة المرضية والأعمال الصالحة فإنها ألطف وأوقع من الألفاظ المزينة"[٢].

وفي الأخيرة تجسيد لأخلاق الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومنهجه في التبليغ وهو اللطف والتلطف وفق ما أدبه به ربه وحباه به من حميد الصفات وجميلها، فهو آية وحجة بكمال خلقه وحسن سلوكه أما ورود اسم الله تعالى (اللطيف) في القرآن الكريم فقد كان في سبعة مواضع هي:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الأنعام: ١٠٣.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ يوسف: ١٠٠.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ الحج: ٦٣.

---

[١] المرجع السابق، ص١٦٤-١٦٧.

[٢] انظر، الغزالي، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ص ١٦٤-١٦٧.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ لقمان: ١٦.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الشورى: ١٩.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ الملك: ١٤.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ الأحزاب: ٣٤.

والمتأمل في هذه الآيات الكريمة يجد خمسة مواضع منها قد ورداسم الله تعالى (اللطيف) مقترنا باسمه تعالى (الخبير) والخبير: بمعنى العليم لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة، وصاحبها خبيرا[١]، وهذا يدل ويؤكد القول السابق للإمام الغزالي أن اللطف متأت من العلم بالشيء والخبرة به وبخفاياه، فورود الاسم على هذه الحال توكيد لعلم الله المطلق وإحاطته وهذا متعلق بذاته تعالى، والتي هي مخفية عن البشر إلا ما أخبرنا به تعالى عنها، والمعاني مرتبطة بمصدر اللطف وصفة اللطيف بأنه خبير، والسبب الذي كان منه اللطف وهو الخبرة، أما الموضعان الآخران فقد وردا على نحو مختلف، فالأول: مع العلم والحكمة، والعليم: معناه ظاهر، وكماله أن يحيط علما بكل شيء، ظاهره وباطنه أوله وآخره[٢] والحكمة: معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، وأجل الأشياء هو الله تعالى، ولا يعرف كنه معرفته غيره[٣] وهو موضع مرتبط أيضا بمصدر اللطف وسببه، أما الموضع الثاني فمتعلق بالنتيجة التي هي الفعل والتصرف والسلوك الناتج عن اللطف، فقد ورد مع القوة والعزة، والقوي: صاحب القدرة

---

[١] انظر، الغزالي ، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ص١٦٧.

[٢] انظر، المرجع السابق، ص١٤١.

[٣] لمرجع السابق، ص (١٦٧).

التامة[١] والعزيز: الخطير الذي يقل وجوده، وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه، ولا بد من اجتماع هذه الأوصاف حتى يكون عزيزا[٢].

تأصيل مصطلح التلطف:

تنبه العلماء إلى حسن الألفاظ وخستها، وبهذا فإنهم قد فطنوا إلى التلطف بمفهومه دون تسميته؛ ذلك أن علوم اللغة كانت في بداياتها ممتزجة بعضها ببعض، فتجد العالم يتحدث عن الظاهرة تحت اسم معين وآخر يعرج على الحديث عنها ذاتها تحت تسمية أو اصطلاح آخر، وليست ظاهرة التلطف من ذلك ببعيد، فالمراجع للمصنفات اللغوية والبلاغية منها يجد الحديث عنها تحت تسميات مختلفة، ومن ذلك قول الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، وبه أبدأ بوصفه بادئ المصنفات اللغوية البلاغية منها فيقول "وكلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والحسن، والقبيح والسمج، والخفيف والثقيل"[٣].

فهو يتحدث عن مراتب الكلام بل إنه ليجعل الناس في طبقات تترتب على مرتبة كلامهم، فالكلام هو معيار رتبة الإنسان ومنزلته عنده.

ثم وظف المصطلح بلفظه دون معناه عند ابن قتيبة (٢٧٦هـ) فتجده يفرد بابا سماه: التلطف في الكلام والجواب وحسن التعريض، يورد فيه أخبارا ومواقف عن حسن التخلص والجواب الحسن، من ذلك قصة لعمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه مر بالطريق فوجد الصبية يلعبون، وفيهم الزبير، ففروا ووقف، فقال له عمر: ما لك لم تفر مع أصحابك؟ فقال: يا

---

[١] المرجع السابق ، ص (٢٠٦)

[٢] المرجع السابق ، ص (١٢٠-١٢١)

[٣] الجاحظ، عمرو بن بحر بن الجاحظ، أبو عثمان، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط.٧، س١٩٩٨م، ج١، ص١٤٤.

أمير المؤمنين، لم أجرم فأخافك، ولم يكن بالطريق ضيق فأوسع لك(١).

أي أن التلطف عنده حسن الرد والتعريض، والتعريض مفهوم آخر يلتقي مع التلطف عند غير واحد من اللغويين والبلاغيين، والتعريض: هو التلميح للشيء دون التصريح به، لكنه ليس المفهوم الذي تهدف الدراسة إليه، ولربما يكون متقاربا من التلطف في مسألة التلويح بالشيء دون ذكره من باب التلطف.

والتلطف يلتقي كذلك مع الكناية عند غير واحد من العلماء فهو عند المبرد (ت ٢٨٥هـ) بمعناه دون لفظه، فالكناية عنده تقع على ثلاثة أضرب، أولها: التعمية والتغطية، وثانيها: هو عنده من الكناية أحسنها: الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ النساء: ٤٣. وثالثها: هو التفخيم ومنه اشتقت الكنية، تكني بأبي فلان صيانة لاسمه(٢).

مما تقدم تجد المبرد يجعل من التلطف ضربا من أضرب الكناية، فالأول من أضرب الكناية عنده التخفي والاستتار، وقد يلتقي هذا مع مفاهيم التلطف من باب وإن لم يكن كله، أما الضرب الثاني منها عنده فهو التلطف لا جدال؛ إذ إن الغرض منه الترفع عن اللفظ المفحش بلفظ حسن مقبول، أما الثالث فقد يلتقي مع مفاهيم التلطف من وجه الترقيق والتودد لا من غرض التعظيم والتفخيم.

---

(١) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو محمد (ت ٢٧٦هـ) عيون الأخبار، تحقيق: منذر محمد سعيد أبو شعر، عمان، وبيروت، المكتب الإسلامي، ط.١، س٢٠٠٨م، ج٢، ص٢٢١.

(٢) انظر، المبرد، محمد بن يزيد، أبو العباس (ت ٢٨٥هـ) الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، وزارة الشؤون الإسلامية والاوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، د.ط، د.س، ج٢، ص٢٩٧-٢٩٨.

ومن المفسرين المبتدرين في التنبه إلى التلطف تحت مفهوم الكناية، الإمام الطبري (ت ٣١٠هـ) فتجده يفسر الآية الكريمة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ البقرة: ١٨٧، فيقول "الرفث: كناية عن الجماع في هذا الموضع"[١] والرفث: كل ما يراد من المرأة، وفي أصله الكلام المفحش[٢]، أي أنه يوظف مفهوم التلطف تحت تسمية الكناية، ومنها كثير بالقرآن الكريم لا سيما ما يتعلق بموضوع قضاء الحاجة أو الجماع.

أما عند ابن وهب (ت ٣٥٥هـ) فالتلطف بمفهومه تحت مسمى اللحن، فيقول "أما اللحن: فهو التعريض بالشيء من غير تصريح أو الكناية عنه بغيره، والعرب تفعل ذلك لوجوه، تستعمله في أوقات ومواطن؛ فمن ذلك ما استعملوه للإعظام أو للتخفيف أو للاستحياء أو للبقيا أو للإنصاف أو للاحتراس[٣].

أي أن اللحن معناه التعريض بالكناية، فالتداخل بالمفاهيم واضح، فإنه يعرف اللحن بأنه التعريض، ويعد الكناية وسيلته، ثم يعدد مواطن هذا اللحن فالعرب توظفه تعظيما أو تخفيفا، واستحياء وبقيا، إنصافاً واحتراسًا.

ثم يمثل لكل باعث من هذه البواعث فيقول"أما الإعظام: أن يراد تعريف ما هو قبيح فيعرض له من فعل غيره، فيكون قد قبح له ما أتاه من غير أن يواجهه به، وأما التعريض فللتخفيف: فهو أن يكون لك حاجة إلى رجل فتجيئه مسلما لاتذكر حاجتك، فيكون ذلك اقتضاء وتعريضا، أما التعريض للاستحياء: فيكون بالكناية، كقولك عن الحاجة النجو، والنجو: المكان

---

[١] الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، أبو جعفر (ت ٣١٠هـ) جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق: د. بشار عواد معروف وعصام فارس الحرستاني، مؤسسة الرسالة، ط.١، س١٩٩٤م، ج٢، ص٥٠٢.

[٢] انظر، ابن منظور، مادة رفث.

[٣] انظر، ابن وهب، اسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، أبو الحسن (ت ٣٥٥ه) البرهان في وجوه البيان، تحقيق: د. جفني محمد شرف، مكتبة الشباب، مطبعة الرسالة، د.ط، د.س، ص١١٠-١١٢.

المرتفع[١] أما البقيا: فمثل تعريض الله تعالى بصفات المنافين وإمساكه عن تسميتهم إبقاء عليهم وتألفا لهم، وأما الإنصاف فمثله قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ سبأ: ٢٤، والاحتراس قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ الأنعام: ١٠٨.

أما التقاء هذه المفاهيم مع التلطف فواضح، إذ يلتقي التلطف مع باعثي الاستحياء والاحتراس والتخفيف والكناية التي عدها ابن وهب وسيلة التلطف أو التعريض – على حد تسميته – كما يقترب التلطف مع باعث آخر وهو التعظيم من حيث إنه تأدب وتلطف، ويقترب من باعثي البقيا والإنصاف من جوانب التخفيف والحفظ والرفق لا من هذه المفاهيم كاملها.

ولابن جني (ت ٣٩٢هـ) ميدان آخر يعرضه للتلطف فيقول في باب سماه: باب في ملاطفة الصنعة، يقول "من ذلك أن العرب غيرت شيئا من كلامها من صورة إلى صورة، فيجب أن تتأتى لذلك وتلاطفه لا أن تخبطه وتتعسفه، من ذلك باع، أصلها بيع، أبدلت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها، فأسكنتهما أولا لاستقبالهما للحركة ثم أبدلت الياء ألفا لأن ما قبلها مفتوح، لذلك فرّق بين (شيخ وثوب) لأنهما ساكنا العين ولم يسكنا عن حركة"[٢].

والمتأمل للحديث السابق يجد ابن جني متحدثا عن ميدان جديد للتلطف غير الذي ألفه حتى الآن، وهو ميدان الصرف، فليس لك أن تبدل الحروف ولفظها إلا بما يلطف ويدق ويصح ليستساغ، ومن ذلك ما يمر دون أن نفطن إلى كونه من باب التلطف وغايته، ألا وهو منع التقاء الساكنين، الذي لم يكن إلا من باب الاستساغة اللفظية تسهيلها وتوضيبها، فتشترك في هذا اللغة بمستواها النحوي، وهذا أيضا يتداخل في المستوى الصوتي للغة، وليس تآلف تلك العناصر

---

[١] انظر، ابن منظور، لسان العرب، مادة نجو.

[٢] انظر، ابن جني، عثمان بن جني، أبو الفتح (ت ٣٩٢هـ) الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، دار الكتب المصرية، د.ط، د.س، ج٢، ص ٤٧٠-٤٧٣.

أجمع إلا لتحقيق التلطف الذي هو سمة لهذه اللغة الشريف البديعة.

ولم يغب التلطف عن ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) فيورده تحت باب الكناية فيقول "الكناية لها بابان، أحدهما أن يكنى عن الشيء فيذكر بغير اسمه تحسينا للفظ أو إكراما للمذكور، ومنه قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ﴾فصلت: ٢١.

قالوا: إن الجلود في هذا الموضع كناية عن آراب الإنسان، والآراب: الفروج[١]، ومنها الكناية التي للتبجيل قولهم "أبو فلان" صيانة لاسمه عن الابتذال، والكنى من سمات العرب خصوصا[٢]. وهذا يلتقي مع مفاهيم التلطف من حيث إنه تحسين وتكريم للألفاظ، أما الغرض الثاني وهوالتفخيم فيلتقي مع التلطف من حيث إنه تودد وتحبب- وقد قال برأيه ابن وهب- لا لأجل التفخيم قصدا.

وله رأي جديد في هذا الباب فيقول "والباب الثاني من الكناية: الاسم يكون ظاهرا، مثل زيد وعمرو، ويكون مكنيا، وبعض النحويين يسميه مضمرا وذلك مثل: هو وهي، وزعم بعض أهل العربية أن أول أحوال الاسم الكناية ثم يكون ظاهرا وذلك أول حال لمتكلم أن يخبر عن نفسه ومخاطبه فيقول: أنا وأنت، وهذان لا ظاهر لهما وسائر الأسماء تظهر مرة ويكنى عنها مرة، والكناية متصلة مثل التاء في: حملت، ومنفصلة مثل: إياه أردت، ومستجنّة، مثل: قام زيد، فإذا كنينا قلنا: قام، فيستتر الاسم في الفعل"[٣].

---

[١] انظر، ابن منظور، مادة أرب.

[٢] انظر، ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، علق عليه وشرح حواشيه: أحمد حسن بسج، لبنان بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، س ١٩٩٧م، ص٢٠٠-٢٠١.

[٣] انظر، ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، ص٢٠٠-٢٠١.

والمتأمل للباب الثاني عنده من الكناية يجد التلطف متجليا تحت اسم التكنية لكن جديــد قوله متمحور في ميدان هذه الكناية، فهو ليس البلاغة ولا المعاني كما كانت عند سابقيه، لكــن الميدان هنا النحو، فالضمائر وإعرابها متصلة أو منفصلة أو مستترة ميدان النحو والإعراب، لا البلاغة مع تذكر أن اللغة وإن درست وفق مستويات منفصلة فهي جسم واحد وكل مســتوياتها مشكل لها، حالها حال الجسد والأعضاء، لكل عضو وظيفة، وكلها تجتمع لتشكل الجسد الواحــد المتناغم المتسق.

ولكن متى وظف مصطلح التلطف معنى واصطلاحا؟

إن مصطلح التلطف لم يذكر صراحة عند الأوائل وإن كانوا قد تناولوه مضــمونا بــل وأطالوا الحديث عنه لكن تحت غير هذا الاصطلاح، أما أول من وظفه بهذا الاصطلاح والمعنى فهو أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هــ)، في مؤلفه (الصناعتين الكتابة والشعر) فيعرفه ويقــول: "التلطف: أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجنه، والمعنى الهجين حتى تحسنه"[١].

فهو بهذا يورد طريقين للتلطف، إحداهما تهجين الحسن، وثانيتهما: تحسين الهجين، أما التلطف المقصود لهذه الدراسة فمتعلق بالطريق الثانية من مفهومه له، أي تحسين الهجين ليقبله السامع ويستسيغه.

والقائل بأنه مبتدع هذا المصطلح لهذا الباب من فنــون الكــلام هــو صــاحب معجــم المصطلحات البلاغية؛ إذ يقول" التلطف من ابتداع العسكري"[٢].

---

[١] العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، أبو هلال (ت ٣٩٥هــ)، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيــق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، س١٩٥٢م، ص٤٢٧.

[٢] مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، د. ط، س ١٩٨٦م، ج٢، ص٣٧١.

ومما تجدر الإشارة إليه أن مفردة التلطف وظفت بذاتها باعتبارها وصفا لأمر مستحسن، فتجد غير واحد من العلماء في كافة ميدانيهم يصف بقول من مثل: هذا باب لطيف، ومن لطائف الكنايات، ومن لطيف هذا الباب كذا وكذا... الخ، فهو وصف لجانب مستحب من أبوابهم البلاغية، وليس بابا منفردا بذاته.

ومن الذين اعتنوا بالتلطف مضمونه لا مسماه، الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) فتجده متحدثا عنه في غير موضع، ففي مؤلفه (الكناية والتعريض) يقول: "كتاب في الكنايات عما يستهجن ذكره، ويستقبح نشره بألفاظ مقبولة تؤدي المعنى، وتفصح عن المغزى، وتحسن القبيح وتلطف الكثيف"[(١)].

أي أن الكنايات عنده وسيلة صاحب الذوق الرفيع للتهرب من إيراد اللفظ الخسيس بالاستعاضة عنه بألفاظ يقبلها صاحب الفطرة السليمة والعقل المتزن، بل إنه يورد أسباب العدول إلى هذه الكنايات وهي الحياء أو الاستهجان أو التطيّر بل وحتى التحسين لأجل ذاته، لا لأن الشيء المكنّى عنه مدعاة لخجل أو تطيّر، وهذا هو مفهوم التلطف عينه.

بل إنه يذكر ذلك في مؤلّف آخر فيقول في باب مسماه: في الكناية عما يستقبح ذكره بما يستحسن لفظه، هي من سنن العرب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ ﴾النساء: ٤٣، كناية عن الحدث، ومنه قول العامة عن اللقيط: تربية القاضي، ومن كناياتهم عن موت الرؤساء والأجلّة والملوك: انتقل إلى جوار ربه، أو استأثر الله به[(٢)].

---

(١) الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن اسماعيل، أبو منصور (ت ٤٣٠هـ)، الكناية والتعريض، صححه: السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مصر، مطبعة السعادة، ط ١، س ١٩٠٨، ص١.

(٢) الثعالبي، عبد الملك بن بن محمد بن اسماعيل، أبو منصور (ت ٤٣٠هـ)، فقه اللغة وأسرار العربية، تحقيق: ياسين الأيوبي، صيدا بيروت، المكتبة العصرية، ط ٢، س ٢٠٠٠، ص٤٣٨-٤٤٠.

وللمؤلف كتاب آخر بعنوان (اللطف واللطائف) وهو كتاب جمع فيه النصوص ضـمن تبويب قائم على النظر إلى العلاقة بين طبقة القائل أو جنس صـناعته أو تخصصـه، فيجعـل للوراقين بابا وللجزارين آخر وهكذا[١].

وبالتسلسل الزمني فإن القيرواني (ت ٤٥٦هـ) يورد مفهوم التلطف ممتزجا مع مفاهيم أخرى فالتورية عنده نوع من الإشارة فيقول" أما التورية في أشعار العرب فإنما هـي كنايـة، ومنها قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ ص: ٢٣ كناية بالنعجة عن المـرأة، ومن الكناية اشتقاق الكنية، ويعيد كلام المبرد في أغراض الكناية من تعمية وتبجيل وغيره"[٢].

يلتقي حديثه مع مفهوم التلطف بأنه يقول بقول المبرد، أن من أغراض الكناية الرغبـة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه، والتلطف هو التورية من حيث إنها كنايـة، حاله حال غيره ويزيد عنده أن الكناية نوع من الإشارة.

يليهم في تناول الموضوع الجرجاني (ت ٤٧١هـ) إذ يقول في فوائد الكنايات "التحـرز عن ذكر الفواحش السخيفة بالكنايات اللطيفة، وإبدال ما يفحش ذكره في الأسماع بما لا تنبو عنه الطباع"[٣].

---

[١] انظر، الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبو منصور (ت ٤٣٠هـ) اللطف واللطـائف، تحقيـق: محمود عبد الله الجادر، بغداد، وزارة الثقافة، ط.٢، س٢٠٠٢م، ص ١٠، الكتاب الرئيسي له هو كتاب يتيمة الدهر، لكن المؤلف كان يعمد إلى أخذ جزء من الكتاب ويضيف عليه أو يقف على محاسنه ويهدي للملـوك والوزراء، وهذه سمة علماء ذاك الزمان، (المقدمة، ص ٩).

[٢] انظر، القيرواني، الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، أبو علي (ت ٤٥٦هـ) العمدة في محاسـن الشـعر وآدابه، وهو كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده، حققه وفصله وعلق على حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، سوريا، دار الجيل، ط٥، س،١٩٨١م، ص٣١١-٣١٣.

[٣] انظر الجرجاني، أحمد بن محمد الجرجاني النقفي، أبو العباس (ت ٤٧١هـ)، المنتخب من كنايات الأدبـاء وإشارات البلغاء، صححه: السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبـي، مصـر، مطبعـة السـعادة، ط ١، =

ففي الكنايات عنده مجال للترفع عن القبيح من الكلام بإبداله بألفاظ حسنة مستساغة دالة على المعنى المراد، وهذا من مفاهيم التلطف وهو قولبة الصلب الثقيل بقالب اللين والرقة ليسوغ ويسهل قبوله – كما تقدم – فالتلطف عنده هو الكناية.

وله قول في مؤلف آخر إذ يقول "إذ الألفاظ خدم المعاني"[١] وفي موضع آخر يقول "أما رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شرك في المعنى فيه وكونه من أسبابه ودواعيه، فلا يكاد يعدو نمطا واحدا وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم ويتداولونه في زمانهم فلا يكون وحشيا غريبا أو عاميا سخيفا"[٢].

أي أن الكلام أصله معان في النفس ثم تقولبها الألفاظ، ولا يكون اللفظ مقبولا إلا بشروط هي: ألا يكون وحشيا غريبا، ولا عاميا سخيفا، أي أنه يشير إلى تلطيف الألفاظ واختيارها ليسوغ تقبلها، لا سيما أن من المعاني الدقيقة ما يلزم ذكره، فلا مهرب من قبح اللفظ إلا بالكناية عنه.

جاء في دلائل الإعجاز في باب الكناية والتعريض" هذا فن من القول دقيق المسلك لطيف المأخذ، وهو أنا نراهم كما يصنعون في نفس الصفة بأن يذهبوا بها مذهب الكناية والتعريض، كذلك يذهبون في إثبات الصفة هذا المذهب، وإن فعلوا ذلك بدت محاسن تملأ الطرف وتعجز الوصف"[٣].

=س١٩٠٨م، ص٣.

[١] الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، (ت ٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ) أسرار البلاغة، علق عليه: محمود محمد الشاكر، جدة، دار المدني، د ط، د.س، ص٨.

[٢] الجرجاني، أسرار البلاغة، ص٦.

[٣] الجرجاني، أبو بكرعبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٤٧١هـ) دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد رضوان الداية، وفايز الداية، دمشق، دار الفكر، ط ١، س ٢٠٠٧م، ص٣٠٤.

إن الجرجاني يجعل من التعريض والكناية شيئا واحدا بالنظر إلى خاصية التخفي الجامعة لكليهما. ويفصل ذلك في موضع آخر فيقول: "وكما أن الصفة إذا لم تأتك مصرحا بذكرها مكشوفا عن وجهها ولكن مدلولا بغيرها، كان ذلك أفخم لشأنها وألطف لمكانها، وكذلك إثباتك الصفة للشيء، إذا لم تلق إلى السامع صريحا ذهبت إليه من جانب التعريض والكناية والرمز والإشارة ، كان له من الحسن والرونق ما لا يقل قليله ولا يجهل الفضيلة فيه"(١).

فالتعريض عنده والكناية طريق غير مباشر لإيصال أمر يترتب على إشارة أو رمز، ويشير إلى خاصية الكناية بأنها تضيف إلى المعنى لطفا ورونقا، وفي هذا أيضا التقاء مع مفهوم التلطف وهو تحسين الكلام وتجميله وإن لم يكن في أصله خسيسا، أي تحسين لأجل غاية التحسين لا هروبا من قبح.

هؤلاء هم العلماء حتى القرن الخامس الهجري، أما مفهوم التلطف بمسماه ومفهومه فظهر بارزا عند الزمخشري (ت ٥٢٨هـ) أي أن المفهوم برز في القرن السادس الهجري واضحا، فتجده يورد أقوالا مثل: ومن الكنايات اللطيفة، وذلك مثل تفسيره للآية الكريمة قَالَ تَعَالَى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ البقرة: ٢٢٣، وهذا مجاز شبههن بالمحارث لما يلقى في أرحامهن من النطف التي منها النسل بالبذور، وهذا من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة؛ وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها، ويتكلفوا مثلها محاوراتهم ومكاتباته"(٢).

---

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٣٠٤.

(٢) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر الخوارزمي، أبو القاسم (ت ٥٢٨هـ) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، شرح وضبط ومراجعة: يوسف الحمادي، مصر، مكتبة مصر، ط ١، س ٢٠١٠م، ج١، ص٢٥٤. والمثال أخذ من رسالة دكتوراه صاحبها: عصام الدين عبد السلام محمد أبو=

وللزمخشري حضور بارز في الفصول التطبيقية من هذه الدراسة، وسيرد من هذا غير قليل من الأمثلة – إن شاء الله – أما قوله فتلطف لا جدال، إلا أنه يجعل الكناية في أصلها مجازا، وهنا يظهر أن له رأيًا في معنى الكناية، أنها في أصلها مجاز وتشبيه، ولعل لغيره رأيًا يلتقي معه بل أكثر وضوحا، فتجد ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) صاحب (المثل السائر) يشير إلى خلط المتحدثين في مفهوم الكناية وحدودها، بل ويوجد حدا لها لا تتعداه، فيقول في الكناية والتعريض "وهذا النوع مقصور على الميل مع المعنى وترك اللفظ جانبا، وقد تكلم علماء البيان فيه، فوجدتهم قد خلطوا الكناية بالتعريض فذكروا للكناية أمثلة من التعريض، وللتعريض أمثلة من الكناية"[١].

ثم يفرق بين الكناية والتعريض فيقول "أما الكناية فقد حدت بحد، فقيل: هي اللفظ الدال على الشيء على غير الوضع الحقيقي، بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه كاللمس والجماع، وهذا الحد فاسد؛ لأنه يجوز أن يكون حدا للتشبيه؛ فإن التشبيه: هو اللفظ الدال على غير الوضع الحقيقي لجامع بين المشبه والمشبه به وصفة من الأوصاف، كقولك: فلان أسد، وهي عند الفقهاء: لفظ يحتمل الدلالة على المعنى وعلى خلافه، وهذا فاسد، فلربما تسمي الجزء بالكل، والكل بالجزء، فكل إنسان حيوان وليس كل حيوان إنسان"[٢].

تنبه ابن الأثير إلى التداخل في المفاهيم بين الكناية والتعريض والتشبيه، وذلك من خلال

=زلال، بعنوان: التعبير عن المحظور اللغوي والمحسن اللفظي في القرآن الكريم، إشراف: أ.د عبد المنعم تليمة، القاهرة، ٢٠٠١، ص١٣-١٤.

[١] ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بـ(ابن الأثير الموصلي) (ت ٦٣٧هـ)، المثل السائر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، د.ط، د.س، ج٢، ص١٩١-١٩٣.

[٢] المرجع السابق.

الأمثلة التي يتمثل بها عندهم، وإن له رأيًا خاصًا فاصلًا في معنى الكناية، ولم يزد شيئا في مقاربتها من مفهوم التلطف, إذ يقول "الذي عندي: إن الكناية إذا ورت تجاذبها جانبان حقيقة ومجاز، وجاز حملها على الجانبين معا، ألا ترى أن اللمس في قَالَ تَعَالَىٰ:﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ النساء: ٤٣، يجوز حمله على الحقيقة والمجاز، وكل منهما يصح به المعنى[١].

لعل في قوله حدًا للكناية فلا بد من وجود جانبين محتملين لها، لكنه يشترط أن يكون الجانبان أحدهما حقيقة والآخر مجازًا، وهذا مخالف لتعريف الكناية التي هي عند غيره حقيقة ناجمة عن حقيقة.

سبقه السكاكي (ت ٦٢٦هـ) فالكناية: ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك، كقولك عن المرأة "نؤوم الضحى" وأنت تريد أنها ترفة مرفهة، تنام الضحى لوجود خدم يقومون بشؤونها، ولا ضير من أن يكون المعنى المراد أنها تنام الضحى[٢].

أي إن الكناية في أصلها حقيقة لا خيال، فهي تنام الضحى لأنها ترفه لا تحتاج الاستيقاظ باكرا لتقوم بشؤون بيتها إذ إنها تملك خدما يقومون بذلك، ولا يستبعد أن يكون المعنى هو على حقيقته أي أنها تنام الضحى، فالكناية حقيقة متأتية من حقيقة.

ويقول السكاكي "الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيحاء وإشارة، ومساق

---

[١] انظر، ابن الأثير، المثل السائر، ص١٩١-١٩٣.

[٢] انظر، السكاكي، الإمام سراج الملة والدين، يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، أبو يعقوب (ت ٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، ضبط: نعيم زرزور، لبنان بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، س ١٩٨٣م، ط٢، س ١٩٩٧م، ص٤٠٢-٤٠٣.

الحديث يحسر اللثام عن ذلك"[١].

وفي الأخير من القول تمهيد لارتباط آخر بين التلطف وغيره من أبواب البلاغة، وهو التعريض والرمز والتلويح والإشارة والإيحاء.

أما ابن أبي الإصبع (ت ٦٦٨هـ) فالتلطف يندرج تحت مصطلح جديد فيقول صاحب معجم المصطلحات البلاغية " التغاير: تغير الشيء عن حاله و تحول: حوله وبدله كأنه جعله غير ما كان، وسماه العسكري التلطف[٢] ثم يورد تعريف التغاير عند المصري، وبالرجوع إلى كتابه، فإنه يقول: "التغاير: هو تضاد المذهبين إما في المعنى الواحد بحيث يمدح إنسانا شيئا ويذمه، أو يذم ما مدحه غيره أو يفضل شيئا على شيء، ثم يعود فيجعل المفضول فاضلا، أو يفعل ذلك مع غيره فيجعل المفضول عند غيره فاضلا وبالعكس"[٣].

أي أن التلطف هو التغاير عند المصري – وفق حكم صاحب معجم المصطلحات البلاغية – وبالنظر إلى مفهوم التغاير عند من عرفه فلا تجد الباحثة تقاربا بين المفهومين، فالتغاير – حسب مفهومه – مخالفة وتحول عن العادة بجعل المحمود مذموما أو المذموم محمودا، ولا أحسب هذا يقارب التلطف في جانب، إلا إن كان القصد من ذلك عدم التصريح بقباحة الشيء، بالمواربة فذلك وجه من وجوه التلطف.

ويعرف الكناية بقوله "هي تعبير الكريم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن، وعن النجس بالطاهر وعن الفاحش بالعفيف، هذا إذا قصد المتكلم نزاهة كلامه عن العيب، وقد يقصده بالكناية

---

[١] انظر، المرجع السابق، ص٤٠٢-٤٠٣.

[٢] انظر، مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص٣٠٣-٣٠٤.

[٣] المصري، زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله بن محمد المصري، أبو محمد، المعروف بـ(ابن أبي الإصبع) (ت ٦٥٤هـ)، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وإعجاز القرآن، تحقيق: يحيى مراد، د ط، د س، ص١٣٧.

عن ذلك[١] وهذا يلتقي مع مفهوم التلطف بل ويطابقه.

أما عند القرطبي (ت ٦٧١هـ) فيقول عند تفسيره للآية الكريمة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾البقرة: ١٨٧، الرفث: كناية عن الجماع؛ لأن الله عز وجل كريم يكني[٢] وفي قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ ﴾البقرة: ١٨٧، كناية عن الجماع[٣].

وفي هذه المعاني يقول القزويني (ت ٧٣٩هـ) صاحب (الإيضاح) ملتقيا مع غيره في الرأي "الكناية: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ"[٤]. أي أنه مع القول بأن الكناية حقيقة مفضية إلى حقيقة، ولا يرى مكانا للمجاز هنا.

ومن علماء القرن الثامن كذلك يحيى العلوي (ت ٧٤٥هـ) إذ يشير إلى الخلط بين مفاهيم الكناية والمجاز، ويرد على صاحب المثل السائر، يقول بأن حدوده فاسدة، فاللفظ يحترز به عن التعريض فإنه ليس مدلولا عليه بلفظ، فالتفرقة بين الاستعارة والكناية ظاهرة، إذا قلت: جاء أسد، فإذا أطلقته فالمراد حقيقة السبع، ولا تحتاج لقرينة، وإذا أردت الشجاع فأنت محتاج قرينة، فهما في أصلهما حقيقة ومجاز لكن من أفاد الحقيقة لا يفيد المجاز، ومن أفاد المجاز لا

---

[١] انظر، المصري، زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد ظافر بن عبد الله بن محمد المصري، المعروف بـ(ابن أبي الإصبع) (ت ٦٥٤هـ) بديع القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، مصر، دار النهضة، د.ط، د.س، ج٢، ص٥٣.

[٢] انظر، القرطبي، محمد بن احمد بن أبي بكر، أبو عبد الله (ت ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق: عبد الله بن عب المحسن التركي، شاركه: محمد رضوان عرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط.١، س.٢٠٠٦م، ج٣، ص١٨٨.

[٣] انظر، القرطبي، المرجع السابق، ص(١٩٢).

[٤] الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد (ت ٧٣٩هـ) الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، وضع حواشيه: محمد علي بيضون، لبنان بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، س٢٠٠٣م، ص٢٤١-٢٤٢.

يفيد الحقيقة، بخلاف الكناية التي إذا أطلقت فالمعنيان الحقيقة والمجـــاز مفهومـــان معـــا عنـــد إطلاقهما، كقولك: "كثير الرماد" أما اشتقاق اسم الكناية من الستر إذ المجاز مســـتور بالحقيقـــة، وأما من الكنية، فلأن الرجل إذا كان اسمه محمدا، أبو عبد الله، فالكنية موضحة كاشفة[(١)].

والفرق بينه وبين ما قال به ابن الأثير، أن الكناية عنـــده تحتمـــل الـــوجهين الحقيقـــة والمجاز، أما المجاز إذا أريد فلا يكون في ذات الوقت حقيقة، والحقيقة إذا أريدت فلا تكون في ذات الوقت مجازا، ويلتقي مع سابقه من حيث إن للكلام جانبين حقيقة ومجاز، أم التقاء تعريفـــه مع مفهوم التلطف الذي هو غاية الدراسة وهدفها ففي تفسيره لمعنى الاسستار والتخفي، وهذا من مفاهيم التلطف.

ومن المفسرين الذين قالوا بالكنايات وبدائعها أبو حيان التوحيدي (ت ٧٥٤هـــ) فيفســـر قولـــه تعـــالى ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ البقرة: ٢٢٣ وهذه الكناية في النكاح من بديع كنايات القرآن[(٢)].

وسيرد الحديث عن أبي حيان وكنايات القرآن الكريم في تفسيره في الفصول التطبيقية – إن شاء الله – ومما يفهم أن الكناية عنده ترفع عن الخسيس من الألفاظ – حاشا أن يكون مثلهـــا في القرآن الكريم – بل إن القرآن الكريم عبر أجمل تعبير وكنى بأجمل الكنايات التي حيـــرت بدقيق لفظها الأذهان والقلوب.

[(١)] انظر، العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن ابراهيم العلوي اليمني (ت ٧٤٥هـــ) الطراز، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، صيدا بيروت، المكتبة العصرية، ط.١، س٢٠٠٢م، ص ١٩١-١٩٢.

[(٢)] أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف (ت ٧٤٥هـــ)، البحر المحيط، تحقيق: الشيخ علـــي محمـــد معـــوض، والشيخ عادل احمد عبد الموجود، وشاركهم آخرون، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٣م، ج٢، ص ١٨٠.

يورد الأبشيهي (ت ٨٥٠هـ) صاحب كتاب المستطرف في كل فن مستظرف كلام في حسن الكلام فيقول: "والذي أراه في ذلك أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف في الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحا حسنا"[١] أي أن اللفظ إذا أراد صاحبه بلوغ الفصاحة منه فالشرط شرطان: حسن اللفظ وإلفه، وإصابة المعنى، وهذا هو غاية التلطف ومحور التقاء الحديث السابق به، فلا يكفي للفظ أن يكون موصلا للمعنى لا يجب أن يصل المعنى بلفظ مألوف حسن.

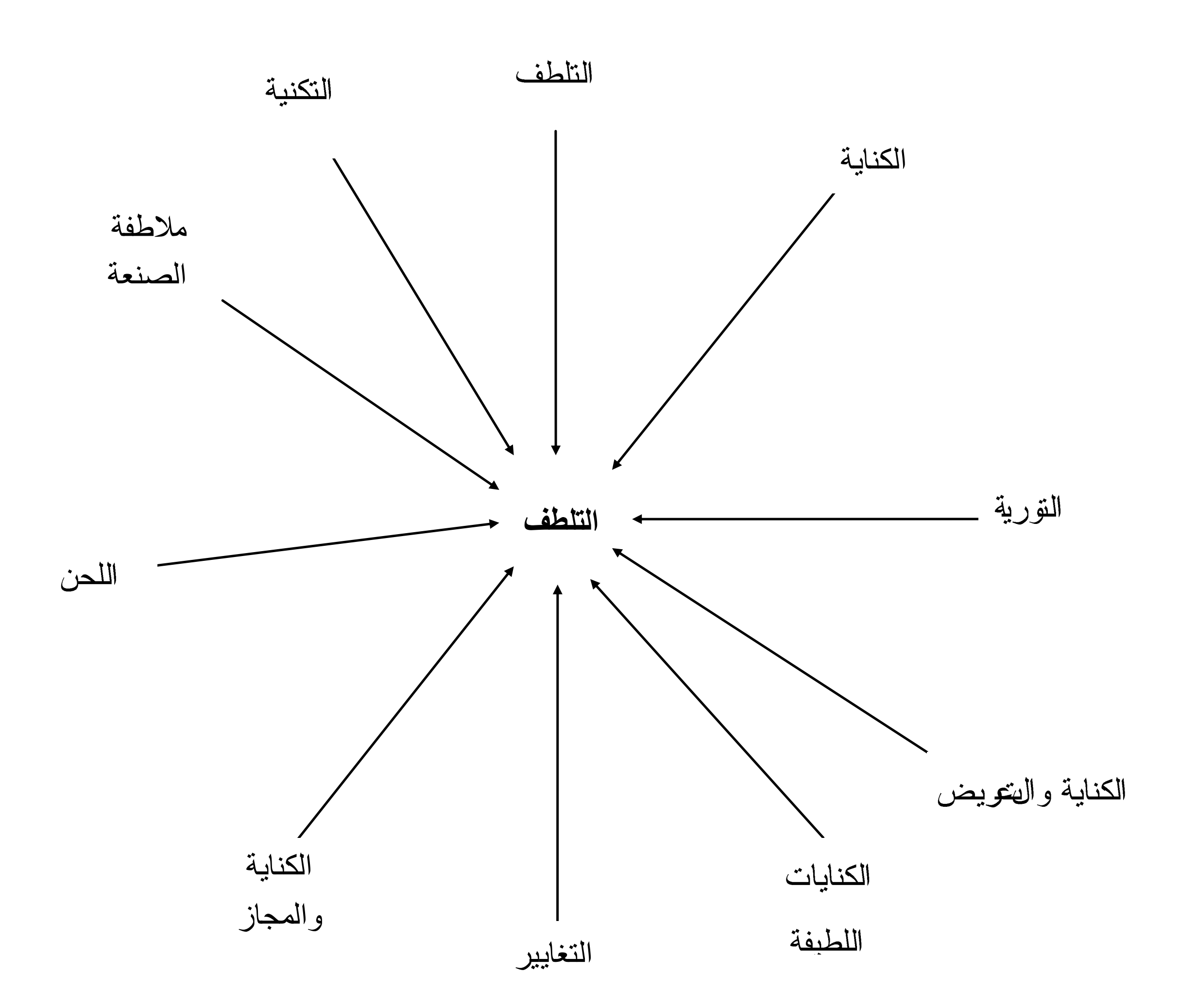
إن التلطف مفهوم فطن إليه المتقدمون في العلم من مفسرين أو علماء لغة أو مؤرخي أدب أو بلاغيين لكنه عندهم ممتزج تحت مسميات مختلفة، أو تحت أبواب من أبواب البلاغة مثل الكناية وهي عند الأغلب منهم، كما تجده عندهم ممتزجا مع التعريض والمجاز والتغاير كذلك والتورية واللحن، ولكل منهم نظر في إدراج التلطف تحت هذا الباب، بل إنهم وإن اختلفوا في تحديده فإنهم مجتمعون في أسباب ذلك من البعد عن الخسيس من الألفاظ، أو تحسين الكلام أو الاستحياء أو التفخيم، أو تلطيف الكلام، ومما تجدر الإشارة إليه كذلك أن التلطف ليس ميدانه المعاني فحسب، بل يتعداه إلى مستويات اللغة كافة، الصوتي منها والصرفي والنحوي، كذلك البلاغي والدلالي منها.

إن كل ذلك في كلام البشر الموجه للبشر، فكيف به إذا كان في خطاب الله تعالى للخلق؟ وكيف به إذا كان كلاما موجها من الله تعالى إلى عباده المؤمنين الصالحين؟ وكيف به إذا كان خطابا موجها لصفيه محمد – صلى الله عليه وسلم – هل اكتمل الحديث عن التلطف في عرض ما قد سبق؟ إن من التلطف في الخطاب القرآني للرسول – صلى الله عليه وسلم – ما يفوق كل

---

[١] الأبهيشي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت ٨٥٠هـ)، المستطرف في كل فن مستظرف، القاهرة، دار الفجر للتراث، د .ط، س٢٠١١م، ص٦٩.

ما تقدم من جمال ورونق ودقة ومراعاة، بل إن خطابه ينماز عن أي خطاب بما يحمل من دقة ورقة ولين ولطف.



التلطف عند المحدثين

لم يرد مصطلح التلطف – حسب ما وصلت يداي إليه من مؤلفات – بمفهومه ومسماه إلا عند أحمد مختار عمر في مؤلفه (علم الدلالة) فالتلطف عنده: "هو الإشارة إلى أي شيء

مكروه أو معنى غير مستحب بطريقة تجعله أكثر قبولا واستساغة"[١].

إلا أنه درس بمفهومه دون مسماه تحت مظلة الدراسات المتعلقة بعلم اللغة النفسي أو علم اللغة الاجتماعي، أو المعنى النفسي والمعنى العاطفي، بل وإنه قد درس مرتبطابظواهر في اللغة هو سببها، مثل ظاهرة اللامساس، أو ظاهرة التضاد ومثلها الترادف، فكل نتج عنه وطرأ على اللغة بسببه، وسأورد بعضا من آراء المحدثين فيه موضحة البعد الذي كان للتلطف عندهم، منهم فندريس (ت ١٨٣٠هـ) يقول فيه "الكناية: صورة مهذبة متحضرة مما يسمى تحريم المفردات"[٢] فالمعاني التي يعرف بها الكناية إنما هي مفهوم التلطف عينه، فهو الصورة المهذبة لتحسين القبيح، والتحسين لا يكون إلا للقبيح من المفردات أو الخسيس منها، أو ما كان للمفردات المحرمة، وهي المفردات المتعلقة بكل ما يثير الخوف أو الحياء، أو لكل ما هو متعلق بثقافة شعب أو حساسيته تجاه مفردات معينة، وبالحديث عن المفردات المحرمة يقول محمود السعران تحت عنوان (للائق وغير اللائق من الكلام) "لكلام الحرام نتيجة مقاييس اللياقة وغيرها، وهي مختلفة باختلاف العصور والطبقات واللهجات، وبين الجنس الواحد الذكور والإناث، وهناك اعتبارات الخوف الداعية إلى التحريم والتقنيع"[٣].

إن المفردات المحرمة ليس لها قانون ضابط يحددها فهي مختلفة باختلاف المجتمعات، بل حتى باختلاف الطبقات الاجتماعية داخل المجتمع الواحد، ومعاييرها متباينة حسب الدرجة العلمية والثقافة والوعي العام لأفراد المجتمع، أو حتى درجة الانفتاح – حسب التسمية الحديثة

---

[١] عمر، أحمد مختار، علم الدلالة، القاهرة، عالم الكتب، ط٧، س ٢٠٠٩م، ص٤٠.

[٢] فندريس، جوزيف فندريس (١٣٨٠هـ)، اللغة، تعريب عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٠م، ص٢٨١.

[٣] السعران، محمود، اللغة والمجتمع رأي ومنهج، الاسكندرية، ط ٢، س١٩٦٣م، ص١٣٢.

للتحرر – بل إنك لتجد الباعث على تحريمها باعثا دينيا أو اجتماعيا أو غير ذلك من أسباب وبواعث قد تكون عامة أو أنها مقتصرة على مجتمع وحده، أو حتى مقتصرة على فئة معينة من هذا المجتمع.

وممن يتحدثون عن الجانب الاجتماعي في التلطف، نايف خرما فيقول "من وظائف اللغة، أنها وسيلة للتحية والسلام، لإظهار التأدب والتلطف في المناسبات والحفلات"[١] فإنك تجد الكاتب يتحدث عن التلطف بوصفه وظيفة من وظائف اللغة لا ظاهرة لها من الأساليب والدوافع والأنماط ما يجعلها شيئا يستحق أن يفرد بالدرس والتحليل.

ومن المحدثين كذلك من يتناول الجانب النفسي والاجتماعي للتلطف، يقول أولمان "إن استبدال الكلمات اللطيفة الخالية من أي مغزى سيء أو مخيف (كلمات اللامساس) يعد ضربا من ضروب حسن التعبير، أي الكناية، وأن حسن التعبير وسيلة مقنعة بارعة لتلطيف الكلام وتخفيف وقعه"[٢] أي أنه يعبر عن التلطف باسم حسن التعبير، وقد قال بقول أولمان غير واحد من المحدثين منهم: حاكم مالك لعيبي، وزاد عليه "إن كثيرا من المسميات يعبر عنها على سبيل المجاز وذلك لأسباب اجتماعية من عادات وتقاليد وأدب، أو نفسية من تشاؤم وحياء وخوف"[٣].

إن الحديث عن التلطف لا ينفصل بحال عن الحديث عن أسبابه لا سيما أن المتناولين له تناولوه مضمونا ومعنى لا ظاهرة تسمى، يقول إبراهيم أنيس "الابتذال يصيب الألفاظ لأسباب سياسية: مثل بعض الألقاب التي فقدت مكانتها بسقوط الدولة، فكلمة أفندي كانت تشير لمنصب

---

[١] خرما، نايف، سلسلة أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، بإشراف أحمد مشاري العدواني، عالم المعرفة العدد التاسع، ص١٧١.

[٢] أولمان، ستيفن، دور الكلمة في اللغة، ترجمه وعلق عليه: الدكتور كمال محمد بشير، مكتبة الشباب، د.ط، د.س، ص١٧٧.

[٣] لعيبي، حاكم مالك، الترادف في اللغة، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، س ١٩٨٠، ص١٠٤.

في الجيش، ثم أصبحت كلمة تدل على تفاهة المكانة، وأسباب نفسية عاطفية: ما يتعلق بالدنس او الجنس أو الدين؛ إذ يندثر اللفظ ليحل محله لفظ آخر أقل وضوحا في دلالتـــه وأكثـــر غموضـــا وتعمية"[١].

يتحدث أنيس عن دورة حياة الألفاظ؛ إذ تولد لتدل على معنى، وبعد مدة مـــن حياتهـــا تصاب بالابتذال الذي هو علة موتها، لتحل محلها ألفاظ جديدة أكثر تعمية وغموضا في دلالتها، ثم تعيش على ألسنة الناس وتصاب بالابتذال كسابقاتها وتموت وهكذا.

ومن المحدثين كذلك (جون ليونز) الذي يشير إلى التلطف فيقول "إن البحث التـــاريخي للمفردات يوضح أهمية عامل (لطف التعبير) عن شيء بغيض، تجنب كلمات التابو، في تغيـــر المعنى الوصفي للكلمات، وهو ما يتضمن اعتمادا تزامنيا متبادلا بين كل من المعنى الوصـــفي وغير الوصفي"[٢].

يشير الكاتب إلى ظاهرة (التابو) التي يعرفها الدكتور رمضان عبد التواب "اللامســـاس، أو الحظر أو التابو: هي ألفاظ تطلق على كل ما هو مقدس أو ملعون أو يحرم الاقتراب منه أو لمسه"[٣].

إن اللامساس أو الحظر اللغوي أو التابو، ما هي إلا ظاهرة في اللغة درست وأفرد لهـــا الأبحاث والدراسات، ولا تذكر هذه الظاهرة بمسمياتها المتعددة إلا ويذكر معها أسبابها وأدوات علاجها، ومن اللافت للنظر أن تذكر ولا يذكر معها التلطف بوصفه عاملا مسببا لها، وليس هذا

---

[١] أنيس، ابراهيم، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥، س ١٩٨٤م، ص١٣٩.

[٢] ليونز، جون، اللغة وعلم اللغة، ترجمة وتعليق: د.مصطفى التوني، القاهرة، دار النهضـــة العربيـــة، ط.١، س١٩٨٧، ج١، ص٢٠٦.

[٣] عبد التواب، رمضان، فصول في فقه العربية، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط.٦، س١٩٩٩م، ص٣٤٥.

فحسب بل إنه هو ركيزتها، ولولاه لما تحركت اللغة باتجاهات عديدة لبلوغــه، فهــو المســبب وتحقيقه هو الغاية، فاللغة لها وظائف وأدوار ولا يكفي أن تكون أداة توصيل فحسب، بل هــي نشاط إنساني فكري راق، يعكس صورة الإنسان وتمدنــه وارتباطاتــه الاجتماعيــة والنفســية والعاطفية.

ومن المحدثين من أطلق على التلطف تســميته الخاصــة مثــل: "تحســين الدلالــة أو التسامي"[١].

يستنتج مما سبق أن التلطف قد تناوله الدارسون بمفهومه أيضا، بل إن منهم من أطلــق عليه تسميته الخاصة فمنهم من قال عنه حسن التعبير ومنهم سماه لطف التعبير ومنهم من قــال بقولة السابقين أنه الكناية، ولكل منهم وجهة في اتخاذ هذه التسمية أو تلــك، والــذي أجــده أن التلطف هو أشمل بكثير مما تناوله الباحثون فهو المسبب لكل هذه الانزياحات اللغويــة، وهــو الهدف المبتغى من كل هذه الوسائل، وأجدهم يتحثون عن وسائله وأسبابه غير مفرقينه عنهــا، فتجد الباحث يمزج مفاهيم عدة للحديث عنه دونما فصل أو تصريح بوجوده.

أسباب التلطف وبواعثه:

أسباب التلطف كثيرة ذكرها غير واحد من المتقدمين والمحدثين، أجملها بــ:

- **بواعث سياسية:** مرتبطة بالدول والأنظمة – تقدم الحديث عنها عند الدكتور أنيس –.
- **بواعث اجتماعية عاطفية**، يتفرع منها:
  - التفاؤل، كقولك للديغ السليم، تفاؤلا بشفائه.

---

[١] أبو شريفة، عبد القادر، علم الدلالة والمعجم العربي، شاركه: حسين لافي، وداود غطاشة، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط.١، س ١٩٨٩م، ص٦٩.

- الخوف، فكلمة (أدوناي) معناها: السيد، ينطقها اليهودي دلالة عن الإله (يهوه) لارتباط اللفظة عندهم بالكوارث واللعنات.
- الوقاية، ففي بلاد المجر يسمون الأولاد بأسماء سيئة لإبعاد الأرواح الشريرة عنهم.
- التهكم، كتسمية الجاهل عاقلا[١].
- الحياء والحشمة، كالعورات والجنس.
- الذوق الاجتماعي، ما يتعلق بقضاء الحاجة[٢].
- عامل الابتذال، الذي يصيب الألفاظ في كل لغة لأسباب سياسية أو اجتماعية أو عاطفية[٣].

للدكتور تمام حسان قول في قضية الابتذال، يقول "وقد تسوء سمعة الكلمة لطول ارتباطها بمدلول غير كريم، فيستعمل مكانها كلمة أخرى على سبيل المجاز، ويعتبر عنصر الدلالة المجازية فيها مناط التبرير في قبولها، حيث يعتبر استعمالها المجازي نوعا من التنزه عن ذكر الكلمة سيئة السمعة، ثم يطول الأمد فتسوء سمعة الكلمة وتطرح، ولا يزال هذا المدلول يستهلك الكلمات واحدة بعد الأخرى إلى ما لا نهاية"[٤].

يشير الدكتور حسان إلى العامل الاجتماعي النفسي، فارتباط الكلمة بمدلولها غير الكريم هو سبب ابتذالها، فيبتكر أهل اللغة لفظة لطيفة بديلة ثم تعود لتبتذل بسبب كثرة استعمالها، وفي

---

[١] انظر، عبد التواب، فصول في فقه العربية، ص (٣٤٦-٣٥٠)، وأنيس، دلالة الالفاظ، ص١٤٠-١٤٤.

[٢] انظر، أبو شريفة، علم الدلالة والمعجم العربي، ص٦٧-٦٨.

[٣] انظر، عبد التواب، رمضان، التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط.٢، س١٩٩٩م، ص١٩٣. وفندريس، اللغة، ص٢٨٠.

[٤] حسان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، المغرب الدار البيضاء، دار الثقافة، د.ط، س١٩٩٤م، ص٢٢٠-٢٢٣.

سلسلة الارتباطات الحاصلة لتجعل من الكلمة كلمة مبتذلة يقول دي سوسير "الارتباطات التي تقع خارج الحديث لا يدعمها التعاقب الخطي ويكون مكانها الدماغ فهي جزء من الذخيرة الداخلية للغة التي يملكها كل متكلم، وتسمى هذه العلاقات بالعلاقات الإيحائية"[١].

يشير المؤلف إلى طاقة اللغة، فلكل لفظة مستوى معين من القوة، والدليل أن اللفظة تحدث تأثيرا يختلف باختلاف أداته وهي اللغة او اللفظة تحديدا، فلكل لفظة مجموعة من العلاقات الإيحائية المرتبطة بها، والعجيب أن هذه العلاقات من الكم والنوع ما لا يمكن إخضاعه للحصر أو الضبط، فبالتجارب الشخصية لا ندري لماذا يطرأ على خاطر الفرد منا صورة أو شكلا معينا عند ذكر هذه اللفظة تحديدا، ولربما أن هذه العلاقات هي سبب ابتذال الكلمات وهي كذلك سبب استساغتها وقبولها.

إن التلطف هدف صاحب الذوق الراقي للتكلم بحديث يوصل أفكاره للمتلفي بأسلوب كيس أنيق، ولكن الوصول إلى هذا الهدف لا يكون إلا بالتوسل بوسائل، فما هي وسائل بلوغ التلطف؟

وسائل التلطف وأدواته:

إن التلطف مفهوم يقتضي تحقيقه التنبه إلى كل مستويات اللغة، وهو ليس مقتصرا على إبدال لفظة قبيحة بأخرى أكثر استساغة وإن كان التركيز على هذا الجزء أكثر، لا سيما أن من تناول التلطف بالحديث تناوله بالحديث عن المحظور اللغوي أو اللامساس، أو من جهة أنه مستوى من التأدب في الخطاب الاجتماعي لا أكثر، والحقيقة أن التلطف هو المسبب لكثير من الانزياحات اللغوية قديمها وحديثها، من استعارات وتشبيهات وكنايات وملاحن، وهو المسبب

---

[١] سوسير، فرديناند، علم اللغة العام، ترجمة: الدكتور يوئيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي: الدكتور مالك يوسف المطلبي، بغداد، الأعظمية، دار آفاق عربية، د.ط، س١٩٨٥، ص١٤٢.

لظواهر متجذرة في اللغة من تضاد ومشترك لفظي أو اللامساس (التابو)، وبالنظر إلى مستويات اللغة فإن وسائله تتدرج بما هو آت:

وسائل صوتية (التحريف الصوتي): "لا ينحصر الأثر الناجم من تحريم المفردات في استبدال كلمة مكان كلمة فحسب بل يتعداه أيضا إلى تشويه الكلمات الموجودة فتغير حرف من الكلمة أو نقله يخفف ما ينطوي عليه من الخطر أو مما لا يليق، ودون أن ينقص ذلك من قيمتها الدلالية، وفي استطاعة كل إنسان في هذه الحال أن يفهم المراد على الفور"[١] ينضاف إلى ذلك، التبدلات الصوتية من قلب حروف العلة وغيره[٢]، هذا كله يندرج تحت مجانبة اللفظ الثقيل لفظه إلى لفظ ووزن أكثر سهولة، بل وإن العربية تحديدا ظاهر فيها هذا التلطف الصوتي من منع التقاء الساكنين وعدم البدء بساكن، بل وإنها لتبتعد عن المفردات ذات الحروف المتقاربة بالمخرج، يقول أبو الطيب (ت ٣٥١هـ) "يقال: شرّحت اللحم وشرّيته، ولحم مشرّح ومشرّى"[٣] ثم يفسر سبب الإبدال للياء مكان الحاء، فالحاء حلقية مهموسة والياء شجرية مجهورة، اختلفا مخرجا وبالهمس والجهر، واشتركا في الإصمات والرخاوة والانفتاح والاستفال[٤]. والمتأمل يجد أن الإبدال الصوتي صورة من صور التلطف تسهل اللفظ أو تحسنه أو تجمله، وليس الأمر مرتبط بقبح معنى ومدلول.

ولابن السكيت (ت ٢٤٤هـ) قول في ما تقدم مثلا في باب العين والهمزة "يقال: آديته

---

[١] فندريس، اللغة، ص٢٨٢.

[٢] انظر، ابن فارس، جزء سابق من البحث.

[٣] أبو الطيب، عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي (ت ٣٥١هـ) كتاب الإبدال، حققه وشرحه ونشر حواشيه الأصلية وأكمل نواقصه: عز الدين التنوخي، دمشق، مطبوعات المجمع العلمي العربي، د.ط، س١٩٦٠م، ج١، ص٣٢٨.

[٤] انظر، المرجع السابق، الحواشي.

على كذا وكذا إذا أعديته أي قويته، وأعنته، يقال: استأديت الأمير على فلان بمعنى استعديت"[١] فالقلب بين العين والهمز واضح أنه يتحرى السهولة اللفظية.

وسائل صرفية: إن شكل الكلمة وبنيتها مؤثر في التوظيف اللغوي لها؛ ذلك أنـك تجـد المجتمع يستبعد مفردات لا لسوء معانيها ومدلولاتها بل لوحشيتها وغرابتها أو حتـى لصـعوبة نطقها، بل وإن الصرف متداخل مع الأصوات فتجدك توظف من الأوزان ما يدل على مبالغة أو اتصاف دائم لتحقق هدف التلطف من المدح مثلا، من ذلك قوله تعالى ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ الفتح: ٢٩.

وسائل نحوية: يدخل في هذا أنماط التوكيد وجمل الوصف أو الحال إن سيقت بهـدف المدح أو الثناء كقوله تعالى ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ ﴾ الفتح: ٢٩

ومن صور التوكيد التوكيد ما يذكره الدكتور محمـد الأنطـاكي، التوكيـد بـالتعريف، وبالتكرار، وبالضمير وغيره[٢]:

وسائل بلاغية: يندرج تحتها الكنايات والمجـاز والاسـتعارة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ البقرة: ٢٣٥. كناية عن الوطء[٣]. ومثاله في السنة قول الرسول الكريم – صلى الله عليـه وسلم – :"حدثنا سليمان بن حرب حدّثنا حماد عن صابت عن أنس. وأيوب عن أبي قلابة عـن

---

[١] ابن السكيت (ت ٢٤٤هـ) أبو يوسف يعقوب بن اسحق، الكنز اللغوي في اللسن العربي، نشره وعلق علـى حواشيه: الدكتور أوغست هفنر، رواية أبي الحسين علي بن احمد بن محمد المهلبي، أخبر به عنه: الشيخ أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن خرزاد النحيرمي، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسـوعيين، د.ط، س١٩٠٣م، ص٢٢.

[٢] انظر، الأنطاكي، محمد، دراسات في فقه اللغة، بيروت، ط.٤، د.س، ص٢٦٤-٢٧٣.

[٣] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج١، ص ٢٧٠.

أنس رضي الله عنه أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان في سفر وكان غلام يحدو بهنّ يقال له أنجحشه، قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : رويدك يا أنجشة سوقك بالقوارير". قال أبـــو قلابة: يعني: النساء[١].

وسائل دلالية : يندرج تحتها اللغة بكل مستوياتها، وأساليبها.

إن ما يذكر حول تقسيم اللغة إلى مستويات ما هو إلا للتوضيح والتفسير، وإلا فهي كلّ منسجم مجتمع ليحقق هدفا ومقصدا، سيأتي الحديث عن التلطف وأدواته في الفصول التطبيقة من الدراسة – إن شاء الله – لا سيما أن من أهداف الدراسة الكشف عن التلطف وأساليبه اللغوية في خطاب الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم.

بالحديث عن التلطف أجدني أعرج على اللامساس أو المحظور اللغوي، وأجدني أمـــام الترادف والتضاد، فمن أي وجه يذكر كل ذلك ملازما للتلطف؟ وهي ظـــواهر قديمـــة حديثـــة فالتسمية والتناول والتخصيص لا يعني أن المفهوم قد سقط من السماء، بل هو أصيل في اللغـــة وبعد التنبه لوجوده، يفرد ويقصد بالبحث والدرس.

التلطف واللامساس:

الطوطم أو التابو: الفزع من الاتصال بالمحارم، وهو أبرز عند الأجناس البدائيـــة، أدى إلى اتخاذ إجراءات خاصة للوقاية[٢]، وهو نوع من المحظورات الاجتماعية الوضعية الخاصـــة

---

[١] البخاري، محمد بن اسماعيل، أبو أيوب، صحيح البخاري، دمشق بيروت، دار ابن كثير، ط ١، س٢٠٠٢م، كتاب الأدب، ١١٦/ باب المعاريض مندوحة عن الكذب، ص١٥٤٩.

[٢] انظر، فرويد، سيغموند، الطوطم والتابو، ترجمه عن الألمانية: بو علي ياسين، راجعه للعربية: محمود كبيبو، سورية، اللاذقية، دار الحوار للنشر، ط .١، س١٩٨٣م، المقدمة، ص٦–٧، والطوطم: فكر بدائي يسود في القبائل الأسترالية، مضمونه أن هناك ذكر قوي مسيطر على القبيلة لا سيما على النساء، اتحد أفراد القبيلة=

ببعض القبائل البدائية، هذه المحظورات لها انطلاء على اللغة، مثلا عبارات القرابة لديهم لا تشير إلى الصلة بين فرد وفرد، بل بين فرد وجماعة[١]، بل إن هذه المجانبات تتعدى السلوك إلى اللغة فالأخ لا ينطق اسم اخته بل يتجنب الكلام القريب من اسمها وهي كذلك[٢]. والغريب أن هذه التابوهات الاجتماعية قد زالت بفعل التحضر، لكن أثرها الاجتماعي اللغوي ما زال موجودا.

والمحظور اللغوي: هو لفظ يمنع استعماله في سياق معين لعوامل متعددة، يتكون من كلمة أو أكثر قابل للتغير متنوع بين الحقيقة والمجاز[٣]، وهو عند فندريس: المحرمات اللغوية، يقول "نواتج التحريم للمفردات الترادف والتغير الصوتي"[٤].

وأسباب التابو غير بعيدة عن أسباب التلطف، فهي:

- **دينية:** مثل التحرز من ذكر كلمة إله- تقدم الحديث عنها -.
- **ثقافية:** مثل التحرز من ذكر الجهة اليسرى لانها مرتبطة بالسحر والشعوذة.
- **واجتماعية نفسية:** مثل التحرز من ذكر الموت بالقول ذهب أو نام[٥].

أي أن أسباب التابو تلتقي مع أسباب التلطف، بل إن التلطف هو العلاج للتابو وهو البديل المحسن المستساغ له.

=لقتل هذا الذكر المتسلط واختاروا العيش بمفهوم الأخوة، ثم أصبح التقليد أنهم يصيدون حيوان معين (التابو) كل عام ويتناولون لحمه، من هنا جاءت فكرة التابو وما يتعلق به من ألفاظ محرمة، ومجانبة الأخوات والعلاقات وإن كانت زواجا بين أفراد القبيلة الواحدة.

[١] انظر، المرجع السابق، ص٢٨.

[٢] المرجع السابق، ص٣٢.

[٣] أبو زلال، المحظور اللغوي، ص٧٢.

[٤] فندريس، اللغة، ص٢٨٣.

[٥] انظر، المرجع السابق، ص ٢٨٠-٢٨٩.

يقول أولمان "إن اللامساس وحسن التعبير وانحطاط المعنى كلها تسير في اتجاهات متشابهة تشابها جوهريا في لغات مختلفة"[١].

التلطف والترادف

من المفاهيم التي تذكر بذكر التلطف (الترادف) وهو مفهوم ناشيء من التلطف؛ ذلك أن المفردة البديلة اللطيفة أعني للفظة القبيحة تصبح ممجوجة، فيضع الواضعون بديلا جديدا لذلك تجد للمسمى الواحد أسماء عدة.

والترادف غير التام ليس نادرا، فالألفاظ تترادف وصفيا دون أن يكون لها المعنى نفسه، وهو ترادف إدراكي عام، ما يعتبره الدلاليون الترادف على نحو لائق[٢]. ويقال: نواتج التحريم للمفردات الترادف، فالسبب في كثرة الألفاظ الدالة على الجهة اليسرى هو الاعتقاد بأنها جهة الشر والشعوذة، والألفاظ الدالة على اليمين قليلة، ولهذا يلجأ إلى الترادف[٣] ومنهم من ينكر وجود الترادف في اللغة فيقول إن الشيء واحد وما له من أسماء هي صفات، فالسيف واحد وسائر أسمائه صفات[٤]، وقد يكون سبب الترادف الحب والولوع، وليس الترادف إلا صورة من صور التلطف بل هو أداته، ولا ضرورة لأن يكون الشيء مستقبحا ليتحقق الترادف، فالمحب إذا أحب شيئا أوجد له عدة أسماء، يقول ابن القيم في أسماء المحبة "لما كان الفهم لهذا المسمى أشد وهو بقلوبهم أعلق كانت أسماؤه لديهم أكثر، وهذا عادتهم في كل ما اشتد إلفهم له، أو كثر خطوره على قلوبهم، تعظيما له أو اهتماما به، أو محبة له، فالأول: كالأسد والسيف، والثاني:

---

[١] أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص ١٨٤.

[٢] انظر، ليونز، مرجع سابق، ص ٢٠٥.

[٣] انظر، فندريس ، اللغة، ص٢٨٢.

[٤] انظر، عبد التواب، فصول في فقه العربية، ص ٣١١.

الداهية، والثالث: كالخمر[١].

التلطف والتضاد

التضاد: هو نوع من العلاقة تجعلك تذكر الضد، بدل الأسود الأبيض[٢]، وليس هذا بكائن لولا عوامل التشاؤم والتفاؤل التي ترد إلى بواعث اجتماعية ونفسية.

من الذوق الاجتماعي تسمية الأشياء بأسماء مضادة، مثل: المعافى للمريض[٣] وهذا من باب التفاؤل بشفائه.

ومن الأمثلة على ذلك: البصير للأعمى، وهذا تأدبا، ومن ذلك ما كان سببه الخوف، مثل قولك "بسم الله الرحمن الرحيم" عند ذكر الشياطين أو الجن[٤].

والمتأمل لمفاهيم اللامساس أو الترادف أو التضاد يجدها مفاهيم أوجدت في اللغة من التلطف؛ ذلك أن التلطف هو الحاجة إلى مجانبة بعض الألفاظ التي ترتبط في ذهن الإنسان بما يثير تشاؤما أو تطيرا أو خجلا بألفاظ أكرم وأفضل وأجمل، والذي أشير إليه في هذا أن التلطف هو أساس كل هذه المجانبات اللغوية، وهو حلية الكلام وزينته، ولولا أن له هذه الأهمية ما غطى هذه المساحة من الدرس اللغوي بكل مستوياته، فالتلطف – كما أسلفت – هو المسبب وهو الهدف الذي لأجله كانت كل هذه المفاهيم.

---

[١] ابن القيم، شمس الدين محمد بن ابي بكر، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، بيروت، دار النبلاء، د.ط، د.س، ص ١٦.

[٢] انظر، عبد التواب، فصول في فقه العربية، ص٣٣٦.

[٣] انظر، أبو شريفة، علم الدلالة والمعجم العربي، ص٦٨.

[٤] انظر، العاني، لمى فائق جميل، جامعة بغداد، مجلة كلية الآداب، العدد: ١٠١، بحث بعنوان "الكلام المحظور (اللامساس)"، ص٢٤٠-٢٤٣.

الخطاب التداولي والنظرية التداولية:

التداولية: هي دراسة المعنى التواصلي، أو معنى المرسل وكيفية قدرتــه علــى إفهــام المرسل إليه بدرجة تتجاوز ما قد قاله. وهي علاقة العلاقات بمستعمليها وبمؤوليهــا، والتــداول هو: المعنى في سياق التواصل[١].

إن التداولية تختص بدراسة كيفية إيصال المعنى بين شبكة الخطاب المتمثلة في المرسل أولا والمرسل إليه، ونص الرسالة بينهما، وهذا مرتبط أشد الارتباط في موضوع الدراسة، فإن المرسل هو الله تعالى، والمرسل إليه هو الرسول الكريم، أما الرسالة فهي القرآن الكريم.

والدرس اللغوي التداولي يدرس المنجز اللغوي في إطار التواصل وليس بمعزل عنــه؛ لأن اللغة لا تؤدي وظائفها إلا فيه، وبما أن الكلام يحدث في سياقات اجتماعية فمن المهم معرفة تأثير هذه السياقات على نظام الخطاب[٢].

تجد الباحثة أن ليس هناك دراسة للخطاب صحيحة إذا كانت بمعزل عن سياقه، فالكلمات لا تسقط من السماء، بل هي نتاج تقاطع زمني ومكاني وحدثي جلها تسببت في وجوده أولا، بل هي المبلور لقالبه وشكله، من هذا ما يلمس من فرق بين اللغة القديمة والحديثة، وبين اللهجــات الخاصة بأهل كل منطقة، والفرق بين الكلام في كل مناسبة، فليست المفردات التي تساق للمدح والثناء بمساوية للمفردات التي تساق للعتاب أو الأمر أو النهي، وليست الأنساق اللغوية بمتساوية ولا التراكيب، على ما يجود به كل نسق من قيم صوتية تزيد من دلالته.

---

[١] انظر، الشهري، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ليبيا، بنغــازي، دار الكتب الوطنية، ط١، د.س، ص٢١-٢٢.

[٢] المرجع السابق، ص٢٤.

أما الاستراتيجيات الخطابية التي يتوخاها المرسل فتنتظم وفق معايير منها:

- **معيار اجتماعي**: الذي هو معيار العلاقات التخاطبية، وتندرج تحته الاستراتيجية التوجيهية، فالمرسل يوجه رسالة للمرسل إليه بأمر أو نهي أو تحذير أو إغراء.
- **معيار لغوي**: الذي هو شكل الخطاب، ويندرج تحته الاستراتيجية التلميحية، التـــي تجعـــل المعنى المراد مبطنا في قالب لغوي مثل الاستعارة والكناية.
- **هدف الخطاب**: ويندرج تحته استراتيجية الإقناع. والتي قد تخاطب العقـــل أو العاطفـــة أو كلاهما، ويمكن للمرسل أن يتوخى عدة استراتيجيات لتحقيق هدفه[١].

أما الأول منها فمرتبط بدرجة المرسل من المرسل إليه، ما يصنف الخطاب إلى رسمي أو إخواني، ومرتبط بمراعاة المناصب أو تسلسلها وما يتبع ذلك من ألقاب وغيرها، أما الخطاب في هذه الدراسة، فمختلف جدا فهو مرسل من عند الله تعالى الذي لا شريك له فـــي حكـــم ولا منزلة، موجه إلى صفي وخليل ورسول كريم، أي أنه لا يندرج تحت هذه المعايير وفوق الألقاب والكنى، بل وإنه مخصوص على نحو فريد من أسماء وصفات سماه الله تعالى بها، ونمط دقيق لطيف خصه به لمكانته عنده – صلى الله عليه وسلم – أما ثاني هذه المعايير فهو معيار اللغـــة وهو القالب الذي به ترسل الرسالة، وبحسن توظيفها تتحقق النتائج، وهذا المعيار ما ســـتتناوله الدراسة في فصولها التطبقية فالدراسة لغوية بداية، وثالثها معيار الهدف مـــن الخطـــاب، وقـــد تعددت أهدافه تعالى حين خاطب الرسول الكريم فهو تارة خطاب تشريع وتكليف وآخر خطاب توجيه وإرشاد وغيره خطاب مدح أو ثناء بل وحتى مواساة له وتثبيت لفؤاده، وفي كل مرة كان للخطاب نمط وألق فريد مختلف.

---

[١] انظر، الشهري، المرجع سابق، المقدمة، ص(١٩).

علاقة التلطف بعلمي الدلالة والنفس:

إن علم النفس عالج الجانب الذاتي للغة، أي الإدراك، لما كان الإدراك ظاهرة فردية فقد اهتم علماء النفس بتطوير وسائل ليعرفوا بها كيف يختلف الناس في إدراكهم للكلمات أو في تحديد ملامحها الدلالية، أما علم الدلالة فمعني بعادات الناس الاجتماعية وطرق الاتصال القائمة بينهم، كما يعنى بدراسة العمليات العضوية المركبة في أعضاء النطق، ويسير وراء ذلك ليرى كيف تتحول إلى إشارات عن طريق الجهاز العصبي وكيف يتلقى العقل هذه الإشارات ثم يحولها إلى أفكار[١].

إن علم النفس ميدانه الفردية الخاصة، وعلم الدلالة ميدانه الوسائل الاجتماعية العامة، أما الارتباط بين ما تقدم وموضوع الدراسة فوثيق، ذلك أن الله تعالى عالم بلغات الناس ووسائلهم وألسنتهم التي قد خلقها، وقد خلق الأنفس الحاملة لها بأدوات استقبال وفهم وإرسال، ثم إنه عالج الخطاب الموجه للرسول الكريم بطريقتين، أولاهما ما هو مرتبط به وحده أي الجانب الذاتي الإدراكي للرسول الكريم، فقد وجه له من الخطاب ما يحقق له الإدراك والفهم والسلوك لا سيما أن الله تعالى اصطفى رسله -عليهم السلام- بعد أن جعل بهم من الصفات ما يحقق هدف الإرسال لهم، ثم اصطفى عليهم الرسول- صلى الله عليه وسلم- لما كان له من تفان في التبليغ وجهد عظيم، أما الثانية: فجعل الخطاب الموجه له آلة مكشوفة يفهما هو وغيره من الناس، على أن الاختلاف في المهمات واضح، فعلى الرسول- صلى الله عليه وسلم- التبليغ وعلى الناس الإيمان، وهذا يقود لسؤال، هل المعاني النفسية تتميز بالعمومية؟

إن المعنى النفسي يشير إلى ما يتضمنه اللفظ من دلالات عند الفرد مقيد لمتحدث واحد

---

[١] انظر، عمر، أحمد مختار، علم الدلالة، ص١٦.

فقط، ولا يتميز بالعمومية ولا التداول بين الأفراد(١).

لكن هل ينطبق هذا المعنى على الخطاب الإلهي للرسول – صلى الله عليه وسلم-؟ إن المتأمل للخطاب القرآني يجد به مراعاة للجوانب النفسية للرسول –صلى الله عليه وسلم- هي مراعاة على نحو مخصوص، لكن الخطاب وإن كان خاصا فهو عام من جانب آخر فبهذه الخصوصية يظهر الله مكانة الرسول – صلى الله عليه وسلم- للمؤمنين ويوجب عليهم تعظيمه ويثيبهم على ذلك، بل إن الجانب العام من خطابه يظهر في القرآن الكريم المتعبد بتلاوة جل آياته سواء خوطب بها الرسول –صلى الله عليه وسلم- أم لا.

حقيقة كلام الله تعالى:

إن الله تعالى متكلم بكلام وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف ولا يشبه كلامه كلام غيره، والكلام كلام النفس وإنما الأصوات قطعت حروفا للدلالات كما يدل عليها تارة بالحركات أو الإشارات(٢).

إن الخطاب الإلهي كلام في أصله، لكنه لم يبلغ للرسول –صلى الله عليه وسلم- مباشرة، بل هو وحي أوحي إليه، بوساطة الملك جبريل – عليه السلام- ذلك أن خلق الإنسان لا يحتمل التلقي من الله تعالى مباشرة، لكن هل احتاج النقل إلى أدوات ليصل إلى الرسول الكريم كما أراده الله؟ إن القرآن الكريم خطاب معجز بطاقته الكاملة غير محتاج إلى نبر أو تنغيم ليحقق الإيصال التام، فهذه أدوات لازمة أو مكملة للخطاب بين البشر ولا تلزم الخطاب الإلهي، فالكلمات المسوقة بتراكيبها حاملة لقدرتها في ذواتها لا في الأساليب المدعمة لتحقيق الإفهام

---

(١) انظر، عمر، ص٣٦-٤١.

(٢) انظر، الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، مصر القاهرة، المكتبة التوقيفية، د.ط، د.س، المجلد الأول، ص١٦٨.

المطلوب.

واللغة سلوك بشري يكشف عن نفسية المتكلم وأسراره، ويرى علماء النفس أن كثيرا من الظواهر اللغوية يمكن فهمها من خلال الظواهر النفسية فالفرح والغضب والانفعال ينعكس آثاره على اللغة[١].

لكن الميدان اللغوي لهذه الدراسة اللغوية ليست بوصفها سلوكًا بشريًا، بل بوصفها وسيلة تواصل بين إله متفرد في صفاته، ورسول كريم من البشر، اللغة سلوكه ووسيلته للفهم والإفهام، والله تعالى ينتقي منها ما يوصل لرسوله مراده تلطفا منه به، فهي وسيلته هو في الفهم، وأداة لله تعالى خلقها في أصل التكوين.

---

[١] انظر، الحمد، محمد ابراهيم الحمد، فقه اللغة مفهومه وموضوعاته قضاياه، السعودية، دار ابن خزيمة، ط١، س٢٠٠٥م، ص٣٠.

الفصل الثاني:

التلطف في خطاب الرسول محمد –صلى الله عليه وسلم– بصيغ المخاطب.

الفصل الثاني:

التلطف في خطاب الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- بصيغ المخاطب.

ضمير المخاطب المنفصل "أنت"

ورد الخطاب بهذه الصيغة في القرآن الكريم في ثمانية وعشرين موضعًا، ثلاثة عشر موضعا منها مسبوقًا بنفي، وسبعة مواضع مسبوقًا باستفهام، وخمسة منها مسبوقًا (بإنما) وفي ثلاث مواضع لم تسبق إلا بحرفي العطف الواو والفاء.

الشاهد الأول:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ فاطر: ٢٢ ـ ٢٣

يضرب الله مثلا للمؤمن والكافر، فمن دخل الإسلام حي، ومن أصر على الكفر ميت، والحياة: نقيض الموت[١]، والسواء: المثل، وسواء الشيء مثله[٢]، والواو هنا مقرونة بالنفي لتأكيد معنى النفي، والمقصود نفي التماثل بين الأحياء والأموات، "إن الله يسمع من يشاء" يعني أنه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيه، فيهدي من علم أن الهداية تنفع فيه، ويخذل من علم أنها لا تنفع فيه، أما أنت فقد خفي عليك أمرهم، فلذلك تحرص وتتهالك على إسلام قوم من المخذولين ومثلك في ذلك مثل من يريد أن يسمع المقبورين، وذلك ما لا سبيل إليه، "إن أنت إلا نذير" أي ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر، فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفع، وإن كان من

---

[١] انظر، ابن منظور، مادة حيي.

[٢] انظر، المرجع السابق، مادة سوي.

المصرين فلا عليك، والله يسمع من يشاء ويهدي المطبوع على قلوبهم على وجه القسر والإلجاء وغيرهم على وجه الهداية والتوفيق، أما أنت فلا حيلة لك في المطبوع على قلوبهم الـــذين هـــم بمنزلة الموتى[١].

إن تتالي النفي يزيد من المنافاة بين الحي والميت، فالحي من عمر قلبه بالإيمان، والميت من مات قلبه بالكفر والإعراض، والنفي أيضا للمساواة بينهما، وقد علم الله بمن سيسمع ويؤمن وعلم بمن سيعرض ويصر على كفره، والرسول – صلى الله عليه وسلم– لن يهدي ولن يســـمع من طبع الله على قلبه؛ لذلك نهاه الله أن يكلف نفسه شيئا لا سبيل إلى تحقيقه.

إن الكفار بالنسبة لسماع الوحي دون حال الموتى، والله يسمع الموتى والنبي – صلى الله عليه وسلم– لا، والمراد تسلية النبي – صلى الله عليه وسلم– فهو لا ينفعهم وليس عليـــه مـــن حسابهم من شيء، وقوله"إن أنت إلا نذير" بيان للتسلية[٢].

ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات وإشباع في إقناطه –عليه الصلاة والسلام– من إيمانهم، فالظلمات تنافي النور، والظل ينافي الحرور، بخـــلاف الأعمـــى والبصـــير؛ فـــإن الشخص قد يكون بصيرا ثم يعرض له العمى، فلا منافاة إلا من حيث الوصف، أمـــا الأحيـــاء والأموات، ففيهما وإن كانا كالأعمى والبصير من حيث أن الجسم الواحد قد يكون حيا ثم يعرض له الموت، لكن المنافاة بين الحي والميت أتم من المنافاة بين الأعمـــى والبصـــير، فإنهمـــا قـــد يشتركان في إدراك أشياء ولا كذلك الحي والميت، كيف والميت مخالف الحي في الحقيقة علـــى ما تبينه الحكمة الإلهية، فما عليك إلا أن تبلغ وتنذر، فإن كان المنذر ممن أراد الله هدايته سمع،

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٥٤٥.

[٢] انظر، الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري الطبري، أبو عبد الله (ت ٦٠٤هـ) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، لبنان، دار الفكر، ط ١، س١٩٨١م، ج٢٦، ص١٨.

وإن كان ممن أراد الله ضلاله وطبع على قلبه فما عليك من شيء[١].

إن ضرب الأمثلة للرسول – صلى الله عليه وسلم- إنما كان رأفة من ربه به؛ إذ سيقت له المتنافيات حتى يستقر في قلبه اليأس من إيمانهم، وبهذا يتوقف عن إهلاك نفسه في دعوته إياهم.

فقد شبه المؤمنين بالأحياء، والكفار بالموتى من حيث إنهم لا يفقهون الذكر، وأنت لا تسمع الميت الذي في القبر[٢]، وصار للمؤمن والكافر مثالان ليفيد الأول نفي استواء الجنس بالجنس مع القبول للحكم على الإفراد، والثاني بالعكس وهو النفي في الإفراد مع القبول للجنس"ما يستوي الأحياء "لأن منهم الناطق والأعجم والذكي والغبي والسهل والصعب فلا يكاد يتساوى حيان في جميع الخلال "ولا الأموات" الذين هم مثال الكافرين في صعوبة الموت وسهولته والبلى وغيره مما يخفى، والإنذار إنما هو لمن قضي بانتفاعه مسليا لنبيه مؤكدا ردا على من يرى لغيره فعلا من شر أو خير "إن الله" أي القادر على كل شيء، "يسمع من يشاء" يهدي، وأنت لن تسمع من لم يرد الله له الهداية[٣].

زاد الشعراوي في تفسيرها:إن السماع يكون سماع إقبال أو سماع إعراض، وإلا فهم

---

[١] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٧، ص ٢٩٤-٢٩٥، والألوسي، شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، أبو الفضل (ت ١٢٧٠هـ) روح المعاني تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لبنان بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.س، ج٢٢، ص١٨٦-١٨٧.

[٢] انظر، الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف المالكي، أبو زيد (ت ٨٧٥هـ) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: علي محمد معوض، وعادل احمد عبد الموجود، شاركهم: عبد الفتاح أبو سنة، لبنان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ط.١، س١٩٩٧، ج٤، ص٣٨٧.

[٣] انظر، البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر (ت ٨٨٥هـ) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، ج١٦، ص٣٨-٤١ والسمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دمشق، دار القلم، د. ط، د.س، ص٢٢٥.

جميعا يسمعون، وقد كان سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – شديد الحرص على هداية قومه، يكاد يهلك نفسه في سبيل دعوته فخاطبه الله تعالى أنك قد أديت ما عليك نحوهم، فدعوتهم وخاطبتهم خطاب هداية وخطاب تهديد ووعيد فلم يسمعوا، فجعلهم الله كالأموات[١]، يستأنس الشعراوي بذكر حادثة في تفسيره لهذه الآية، هي وقوف الرسول– صلى الله عليه وسلم – على قليب بدر،حيث نادى: يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا أبا جهل، أليس ما وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فإنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فقال له عمر: أتكلمهم وقد جيفوا؟ قال: "ما أنتم بأسمع منهم ولكنهم لا يتكلمون"[٢]. والمعنى ما أنت بمسمع السماع المؤدي إلى الهداية، كما أنك لا تسمع من في القبور لأن زمن السماع وقبول الهداية انتهى بالموت، فما مهمتك إلا أن تكون نذيرا[٣].

إن في تفسير الشعراوي للآية مثالين: أما الأول فهو مثل ينفي استواء الأحياء في حياتهم، فهم في تباين في أحوالهم وصفاتهم وأشكالهم وألسنتهم وألوانهم، كما ينفي استواء الموتى فهم في تباين في أسباب موتهم وأعمارهم ومدد بقائهم في قبورهم وفي تباين بما خفي علينا من شؤونهم، أما الثاني فهو استواء الأحياء والأموات –على تباين أحوال أفراد الفئة الواحدة– .

"ما يستوي الأحياء" ما النافية، تنفي استواء الأحياء في شتى أحوالهم وأشكالهم وألسنتهم "ولا الأموات" الواو عاطفة، لا النافية تنفي استواء الأموات أيضا في سائر شؤونهم وأحوالهم،

---

[١] انظر، الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، راجعه وخرج أحاديثه: أحمد عمر هاشم، الأزهر، مجمع البحوث الإسلامية، طبعه: دار أخبار اليوم، د.ط، س١٩٩١م، ج٢٠، ص١٢٤٨٠-١٢٤٨٣.

[٢] البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، رقم الحديث (٣٩٨٠-٣٩٨١) ص ٩٧٧.

[٣] انظر، السيوطي، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية و الإسلامية، ط. ١، س٢٠٠٣م، ج١٢، ص٢٧٤-٢٧٥. والشعراوي، خواطر حول القرآن، ص١٢٤٨٠-١٢٤٨٣.

وتكرار النفي مرة بما وأخرى بلا زيادة في المنافاة، فكل فئة لا مساواة بين أبنائها، كما أن لا مساواة بين الفئتين، أما الفعل "يستوي" فهو فعل لا يكتفي بفاعل واحد بل يحتاج الفاعلين لذلك يجب أن يعطف عليه.

أما توظيف الأحياء والأموات بصيغة الجمع فللدلالة على التكثير، وعلى نفي الاستواء على هذه الكثرة، وتقديم الأحياء على الأموات فيه أمران: أولهما أن حياة الأحياء تسبق موتهم لهذا تقدم ذكر الأحياء على الأموات، وثانيهما: أن الأحياء إشارة إلى المؤمنين، والأموات إشارة إلى الكافرين فمن باب تكريمهم تقدم ذكرهم[١]، "إن الله يسمع من يشاء" ثم يساق المؤكد "إن" عند الحديث عن قدرة الله، فهو القادر على إسماع دعوتك من يشاء من خلقه وذلك بالتوفيق والهداية، وذكر اسم الله تعالى في هذا الموضع متناسب مع الحديث عن القدرة التامة الكاملة، فهذا الاسم له تعالى اسم جامع لكل أسمائه وصفاته، وتوظيف الفعل "يسمع" مقصود؛ إذ إنه قد تقدم ذكر اسمه "الله" لذا كان الفاعل ضميرا مستترا تقديره هو عائد على لفظ الجلالة المتقدم، "من يشاء" من: اسم موصول في محل نصب مفعول به، والاسم الموصول مقترن بفعل المشيئة، والتي هي من شأنه وحده، "وما أنت بمسمع من في القبور" الواو: عاطفة، ما: نافية، أنت: اسم ما، والباء: زائدة، مسمع: اسم مجرور لفظا منصوب محلا لأنه خبر ما، من: اسم موصول في محل نصب مفعول لاسم الفاعل العامل، والمؤكد مع الله والنفي مع الضمير المخاطب به محمد – صلى الله عليه وسلم–، ثم الفعل "يسمع" مقابله اسم الفاعل "مسمع" مقترنا بحرف جر زائد لكنه يزيد في التوكيد، من يشاء، تقابلها من في القبور، إن هذا الوزن الخطابي إنما يدل على مكانة محمد – صلى الله عليه وسلم–، فالرحمن يخاطبه بضمير المخاطب المباشر "أنت" بينما يتحدث عن نفسه

---

[١] انظر، الدرويش، محيي الدين، إعراب القرآن الكريم وبيانه، بيروت، دار ابن كثير، ط ٣، س١٩٩٢م، ج٨، ص١٤٦.

بضمير الغائب تلطفا به، فلم يقل "أنا أسمع من أشاء" بل كانت "إن الله يسمع..." ذلك أن الخطاب خطاب شفقة به وإعلاء له، بل حتى إقرار منه تعالى أنه قد أدى ما عليه فلا تبعة ولا عتب، ثم حدد مهمته وهي الإنذار وذلك تجلى بأسلوب الحصر إلا المسبوقة بنفي. ما أنت بمسمع، إن أنت إلا نذير.

بكلا الجملتين سبق الضمير بنفي، والخبر مشتق، أما الأولى فقد جاء المشتق فيها اسم فاعل، يقول السامرائي: الفعل يدل على التجدد، والاسم يدل على الثبوت، لكن الثبوت في الأسماء ليس على درجة واحدة، فاسم الفاعل يدل على الحدث والحدوث والفاعل، فالحدث معنى المصدر، والحدوث معنى التغير، والفاعل ذاته، فالحدثية في اسم الفاعل أدوم من الحدثية في الفعل، ولا يرقى إلى ثبوت الصفة المشبهة، فكلمة قائم أدوم من قام، ولا تصل إلى الثبوت في طويل[١]. والصفة المشبهة تدل على الدوام والثبوت، والثبوت يعني اللزوم والاستمرار، وهي ليست موضوعة للحدوث في زمان، كما أنها ليست موضوعة للاستمرار في جميع الأزمنة[٢].

أساليب التلطف التي تظهر في الآية الكريمة هي: الحصر، وطريقته – في الآية – النفي والاستثناء، قيل: هو أشهر طرق القصر وأقواها، بل هو الأصل فيها[٣]، والحصر والقصر واقع في الآية الكريمة للموصوف على الصفة، فالرسول – صلى الله عليه وسلم – لم يبعث إلا ليكون نذيرا، والمعنى الذي أفاده الحصر فيها هو التثبيت، إثبات صفة النذارة له ونفي ما سبق عنه من مهمة إسماع من في القبور، والمراد الكفار، قيل: من خصائص أسلوب النفي والاستثناء، التوبيخ

---

[١] انظر، السامرائي، إبراهيم، معاني الأبنية في العربية، دار عمار، ط.٢، س٢٠٠٧م، ص٤١.

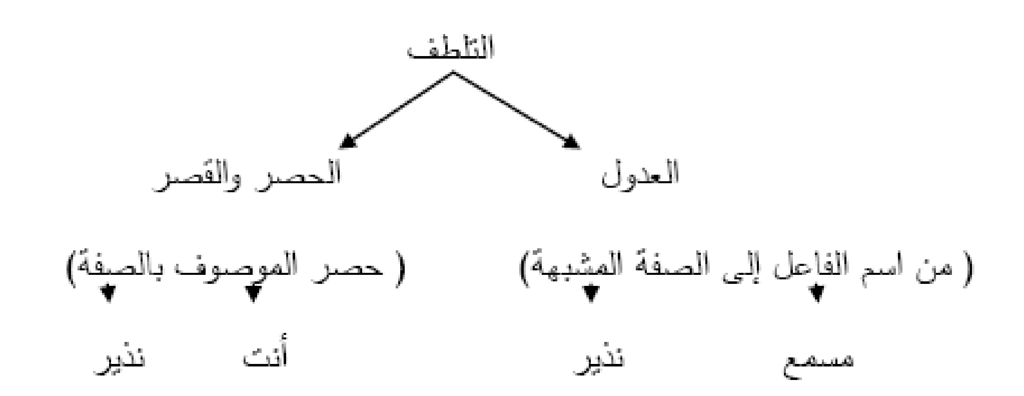
[٢] انظر، السامرائي، معاني الأبنية ص٦٥-٦٧.

[٣] انظر، طاهر، نسرين، ظاهرة الحصر والقصر مفهوما وبلاغة في إطار القرآن الكريم، رسالة دكتوراه، بإشراف: د. ضياء الحق، الجامعة الوطنية للغات الحديثة والعلوم، إسلام آباد- باكستان، س٢٠٠٧م، ص ٩٧.

والتقوية والتثبيت[1]، والأخير هو المقصود من الآية الكريمة فالله تعالى يثبت صفة النذارة لـــه، رحمة به إذ إنه أهلك نفسه في دعوة فئة ميئوس من اهتدائها.

النفي على الذات لا يكون القصد إلى نفيها؛ لأن أنفس الذوات لا تنفى، فيتجـــه النفـــي لا محالة إلى ما يصح عليه النفي والإثبات في الذات وهو أوصافها وأحوالها[2].

والأسلوب الثاني: هو العدول، والعدول: هو انحراف الكلام عن نسقه المثـــالي[3]، وهـــو الانزياح عند المسدي إذ يقول "هو كل تصرف لمستعمل اللغة في هياكلها وتراكيبها وأشكالها بما يخرجها عن المألوف، أي بما يحدث انزياحا عن النمط التركيبي الأصلي[4]، يظهر من توظيف اسم الفاعل الدال على الحدثية عند الحديث عن إسماع الموتى، أما الصفة الثابتـــة للرســـول – صلى الله عليه وسلم– الكريم فهي عند تحديد مهمته وهي النذارة، وهذه بالصفة المشبهة.



الشاهد الثاني :

ورد الخطاب بالضمير " أنت" مسبوقًا بالاستفهام في سبعة مواضع– كما تقدم– .

---

[1] انظر، المرجع السابق، ص١٦٥–١٦٦.

[2] انظر، أبو موسى، محمد محمد، دلالات التراكيب دراسة بلاغية، مكتبة وهبة، ط٢، س١٩٨٧م، ص ١٢٣.

[3] عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية، لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، س ١٩٩٤م، ص ٢٦٨.

[4] المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط٣، د.س، ص ١٦٣.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴾ النازعات: ٤٢ ــ ٤٣

لم يزل الرسول – صلى الله عليه وسلم – يسأل عن الساعة حتى نزلت الآية، والمعنى أنهم يسألونك عنها فلحرصك على إجابتهم لا تزال تسأل عنها وتذكرها، وفي هذه الآية إنكار لسؤالهم فإرسالك وأنت خاتم النبيين – صلى الله عليه وسلم- ذكر من ذكرها وعلامة من علامتها فكفاهم بذلك دليلا على دنوها ووجوب الاستعداد لها[١].

أجاب الله عن رسوله بإنزاله "فيم أنت من ذكراها" أي ليكف سؤالهم إياه عنها من وجه، والوجه الثاني: أن الله أرسلك لتكون خاتم النبيين – صلى الله عليه وسلم-، وآخر الرسل وأنت واحد من أقسام أشراطها وعلامة من علاماتها، فكفاهم بذلك دليلا على دنوها ووجوب الاستعداد لها إذ لا فائدة في سؤالهم عنها[٢].

تساءل الرسول – صلى الله عليه وسلم- عن وقت الساعة وألح في سؤال ربه أمرها؛ ذلك أن من يترصدون به يلحون في سؤاله عنها، فما كان من الله عز وجل إلا أن كفى رسوله -صلى الله عليه وسلم- الإجابة عن هذا السؤال، بإنزاله الآية الكريمة، لتكف ألسنة وأسئلة السائلين عنها، بأن أعلمهم بأنه على علم بصنيعهم "يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها إنما أنت منذر من يخشاها" معناها أن الله يرد العلم بها إليه، ويتعجب من السؤال عنها، وما كانت بعثته لنبيه الكريم إلا علامة على قربها ودنوها، ففيم السؤال عنها.

أما السؤال له فقد كان من مشركي قريش، الذين كانوا يسخرون كلما جاء وصف لأهوال

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص٥٩٨.

[٢] انظر، الزمخشري، المرجع السابق، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ، ج٨، ص٤١٦، والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٣١، ص٥٣.

الساعة وأحداثها[١].

إن الخطاب كان لسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم- إلا أن الهدف منه زجر كل سائل له والهدف إعفاؤه من الإجابة؛ إذ أجاب الله تعالى عنه، بل وكف عنه الحرج فالساعة أمر منوط بالله معرفته وليس لك أن تسأل وأنت صاحب المكانة الرفيعة، فكيف بهم؟

فيم: شبه جملة في محل خبر مقدم، أنت مبتدأ مؤخر[٢] فإن كان هذا فإن التقديم للخبر على مبتدئه دلالة على زيادة الإنكار لصنيعهم من سؤالهم رسولهم أمرا لا علم له به قصد إحراجه وتكذيبه، وتأخير المبتدأ أنت ليتناسب مع تأخر الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن الإجابة، فلم يبعث ليخبركم عن موعدها بل ليحذركم وينذركم منها، فإن كان الوقف على شبه الجملة " فيم" فإن المبتدأ مضمر تقديره هذا السؤال، أي فيم هذا السؤال؟[٣].

أما إظهار الخبر وإضمار المبتدأ فزيادة في توبيخهم؛ إذ الإضمار هنا يقصد إلى التقليل من شأن السؤال وسائليه أمام الأمر المسؤول عنه وهو الساعة وموعده[٤]، والأولى بهم – كما تقدم- السؤال عن كيفية النجاة من أهوالها، وشبه الجملة "فيم" حرف جر (في) ثم (ما)، محذوفة ألفها؛ لتناسب قدر السائلين فالتقليل هنا في حروف شبه الجملة التي هي خبر وإجابة لهم، تحجيم لقدرهم واحتقار لهم، أما إضمار المبتدأ وعدم إظهاره فهو زيادة في إنكار صنيعهم؛ ذلك أن من عمر قلبه بالإيمان لا يسوق الحجج الواهية ليجد شيئا رادًا له عن الدين الحق، بل يأخذ من الرسول ويصدق به لعلمه أن ما هو مخفي اليوم مدرك غدا، والمثل في ذلك الصحابة الكرام

---

[١] انظر، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٥، ص٥٥٠، والسيوطي، الدر المنثور، ج١٥، ص٢٣٥.

[٢] انظر، السمين، الدر المصون، ج١٠، ص٦٨٢.

[٣] انظر، السمين، المرجع السابق، والألوسي، روح المعاني، ج٣٠، ص٣٧.

[٤] انظر، قطب، سيد إبراهيم حسين الشاذلي (ت ١٩٦٦م)، في ظلال القرآن، لبنان، بيروت، دارإحياء التراث العربي، ط.٧، س١٩٧١م، ج٢٨، ص ٤٥١.

الذين كانوا يصدقون بكل ما يأتي به –صلى الله عليه وسلم– متخذين من تصديقه ونصرته بابًا من أبواب الأجر عند الله تعالى، "أنت من ذكراها" مبتدأ وخبر والذكر هو الشيء يجري على اللسان[١] وإن إرسال الرسول – صلى الله عليه وسلم – علامة من علاماتها فكيف تسألون عنها؟ أما خطاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالضمير "أنت" وهو في محل رفع مبتدأ فهو إعلاء من شأنه وتكريم له، ثم الخبر "من ذكراها" جار ومجرور وضمير في محل جر بالإضافة، أيضا إعلاء من شأن الأمر المسؤول عنه وهو الساعة، والمتأمل في الجملتين يجد: المبتدأ محذوفا، وحذف المبتدأ للاحتقار[٢].

مبتدأ مضمر ——————— ◄ الخبر (في جهة الكفار)

(تقديره هذا السؤال) (شبه جملة مختصرة الحروف فيم)

مبتدأ مذكور______________ يقابله خبر (في جهة الرسول– صلى الله عليه وسلم)

(الضمير أنت)______________(شبه جملة تتكون من جار ومجرور وضمير عائد على الاسم المجرور في محل جر بالإضافة)

أي أن الجملتين متباينتان في وزنيهما، فلما كان الحديث عن المشركين كان المبتدأ مضمرا والخبر مختصرا، ولما كان الحديث عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – وعن الساعة صرح بالمبتدأ ضميرا منفصلا معروفا مخاطبه معروفة مكانته، ثم كان الخبر مفصلا مذكورا موضحا وهذا من لطف الله تعالى برسوله – صلى الله عليه وسلم.

والمتأمل للخطاب الإلهي للرسول – صلى الله عليه وسلم– الكريم يجده في نمط واحد

---

[١] انظر، ابن منظور، مادة ذكر.

[٢] انظر، أبو شادي، مصطفى عبد السلام، الحذف البلاغي في القرآن الكريم،، القاهرة، مكتبة القرآن، د. ط، د.س، ص٦١.

هو الإفراد[١] والضمير المنفصل مبني وضع للكناية عن المخاطب وهو الرسـول – صـلى الله عليه وسلم–، أما المتامل لورود الضمير المنفصل في كل آيات الخطـاب فالسـمة العامـة أن الضمير في سياق الإشفاق على الرسول – صلى الله عليه وسلم، وتحديد مهمته إشفاق عليه من إهلاك نفسه في سبيل الدعوة، فالخطاب مخصوص له إذ ليست الدعوة منوطة إلا به، أمـا فـي الشاهد الأول فالخطاب مسبوق بنفي "ما أنت بمسمع"، كذلك ورد ضمن أسلوب للحصر، أي أن الجملة لا نفي فيها "إن أنت إلا نذير" والقصر هنا قصر موصوف على الصفة[٢].

وفي الشاهد الثاني، ورد مسبوقا باستفهام "فيم أنت من ذكراها" والضمير المنفصـل لا يكون إلا في محل الرفع[٣].

يقول الصعيدي في أغراض التعريف "وأما تعريفه فلإفادة السامع إما حملا علـى أمـر معلوم بطريق من طرق التعريف بأمر آخر معلوم له كذلك، تفسير هذا أن يكون للشيء صفتان من صفات التعريف ويكون السامع عالما باتصافه بإحداهن دون الأخرى، إذا أردت أن تخبـره تعمد إلى اللفظ الدال على الأولى وتجعله مبتدأ، وتعمد إلى اللفظ الدال على الثانية وتجعله خبرا، فتفيد السامع ما كان يجهله"[٤].

الخطاب بضمير "كاف المخاطب مقترنة بكلمة رب (ربك)

ورد الخطاب بضمير المخاطب مقترناً بكلمة رب (ربك) في مئة وستين موضعًا، من هذه

---

[١] السعران، محمود،اللغة والمجتمع، ص١٥٣

[٢] انظر، الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في البلاغة العربية، ط.٨، مصر، د.س، ج٢، ص٣.

[٣] ابن هشام، أبو عبد الله جمال الدين الانصاري (ت ٧٦١هـ) شرح قطر الندى وبل الصدى، حققـه وشـرح معانيه وأعرب شواهده: محمد خير طعمة حلبي، لبنان، بيروت، دار المعرفة، ط.٢، س١٩٩٧م، ص٧٦.

[٤] الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، ج١، ص٢٠٣.

الشواهد القرآنية تخيرت شاهدين الأول مسبوقا بفعل أمر، والثاني في سياق قسم.

الشاهد الأول:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ الطور: ٤٨

لحكم ربك: بإمهالهم وما يلحقك من مشقة وكلفة، فإنك بأعيننا: بحيث نراك ونكلؤك، حين تقوم: من أي مكان قمت، وقيل من منامك[١] وقيل: اصبر ولا تدع عليهم ولا تخف لأنك محفوظ بأعيننا، والصبر هو مطية الرحمة[٢]، وقيل: توجيه النبي – صلى الله عليه وسلم– للصبر إيذان بالإعزاز الرباني والعناية الإلهية والأنس الحبيب الذي يمسح على مشقات الطريق، ويجعل الصبر أمرا محببا، ومع هذا الإيناس طريق إلى الصلاة الدائمة به وهي التسبيح في كل وقت[٣]، وقيل في تفسير "حين تقوم": أي قل سبحان الله عند كل قيام، وقيل عند قيامك من منامك، وقيل هي صلاة التطوع كما قيل هي صلاة الفريضة[٤].

تجد الباحثة أن الله تعالى يأمر نبيه – صلى الله عليه وسلم– بالصبر على تبليغ الدعوة، حتى يأتي أمر الله ويطمئنه بأنه محفوظ محاط بعناية الله ولطفه، بل إنه ببث هذه الطمانينة في نفس نبيه إنما يحول مر الصبر حلوا؛ إذ إنه طريق أجر ومحبة ينالها من الله، ثم يأمره بدوام التسبيح بحمده أن حفظه من كل سوء وشر.

إن الله تعالى قد أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم– بالصبر على حكم الله وهو أمر

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ،ج٤، ص٣٥٧، والسيوطي، الدر المنثور، ج١٣، ص٧١١–٧١٣ والثعالبي، نظم الدرر، ج٥، ص٣١٩–٣٢٠ وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص١٥٠.

[٢] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٨، ص٣٧٥–٣٧٦.

[٣] انظر، قطب، في ظلال القرآن، ج٥، ص٦١٠.

[٤] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص١٥٠.

مصحوب بالرعاية والعناية التي خص الله بها سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وسيدنا نوح – عليه السلام – قَالَ تَعَالَى:﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ﴾ هود: ٣٧ وبهذه المكانة أيضا سيدنا موسى – عليه السلام – قَالَ تَعَالَى:﴿ وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾طه: ٣٩ فالحق سبحانه يطمئن رسوله فأنت تحت نظرنا فلا تهتم لصنيعهم، فإنك بأعيننا، وأي منزلة يمكن أن تتحقق لعبد أعلى من أن يكون بعين الله تعالى، هذا الفضل يستوجب منك الحمد بالتسبيح لله وحده، تسبيحا مقترنا بحمد[١].

إن الله قد حفظ رسله وأنبياءه، أن علم مشقة مهمتهم وكلفتها، فحفظ صناعة نوح –عليه السلام– للسفينة، وحفظ نفس موسى –عليه السلام– بأن كفل نشأته في قصر فرعون، إلا أنه حفظ محمد – صلى الله عليه وسلم– في جميع أحواله وأعماله، وهذا ما اختص به عن سواه ممن ذكر حفظ الله لهم في مثل هذه الآية.

إن التلطف في التراكيب يجنى من قوله "اصبر": وهو فعل أمر، وليس كل معاني الأمر استعلاء، فقد يكون طلبا للاستحسان[٢]، فاعله ضمير مستتر تقديره أنت، لحكم ربك: اللام بها وجهان، الأول: بمعنى إلى أن يحكم الله، والثاني: بمعنى اصبر بسبب حكم الله[٣]، أي أنها تفيد انتهاء الغاية أو السببية، ولم يقل (على حكم ربك) لأن على تفيد الاستعلاء، ولا علو على حكم الله، والحكم: هو القضاء على علم[٤]، فالله حكم عليك بعلمه وحكمته وليس فيهما ما يجلب الضرر عليك، فتعليق الصبر بحكم الله إراحة لنفس الرسول – صلى الله عليه وسلم؛ إذ لن يكون من الله تعالى إلا ما به خير للناس فكيف إذا كان الحكم للحبيب محمد – صلى الله عليه وسلم؟

---

[١] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، وقطب، في ظلال القرآن، ج٥، ص٦١٠.

[٢] انظر، الصعيدي، بغية الإيضاح، ج٢، ص٥٣-٥٤.

[٣] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٨، ص٣٧٥-٣٧٦.

[٤] انظر، ابن منظور، مادة حكم.

وقد وظف المصدر – والمصدر يعطي معنى الحدثية دون الزمن– ذلك أن كل حكم كان ويكون وسيكون أنت مكلف الصبر له، وأضافه إلى كلمة ربك: الرب هو الله تعالى، والرب هو المالك المستحق وكلمة الرب تقال للمربي[١]، والله قد ربى وحفظ نبيه في جميع أحواله، ثم أضاف اللفظة إلى كاف المخاطب ليزيد في طمأنة نبيه؛ إذ إنها بهذه الصيغة تشعر بالقرب، فإنك بأعيننا، الفاء عند الدرويش: تعليلية[٢] وإن: ناسخة سيقت للتوكيد، والكاف اسمها، بأعيننا: الباء جارة، وللرازي فيها قولان، الأول: أنها بمعنى في أعيننا، والثاني: أن حفظك بأعيننا كقولك: أكتب بالقلم[٣]، أي أنها بمعنى الظرفية أو الاستعانة، يليها مجرورها.

جمع أعيننا لما اقتضته نون العظمة التي هذا سياقها، وهي ظاهرة في الجمع إشارة إلى أنه محفوف بالجنود الذين رؤيتهم من رؤيته سبحانه، فالنبي – صلى الله عليه وسلم– مكلوء بجنوده محفوظ من كل جهة[٤] وقيل: إن الجمع للمبالغة فكأن معه من الله حفّاظا يحفظونه[٥] والرأي من كلا القولين أن مع الرسول – صلى الله عليه وسلم – جنودا يحفظونه، فلله أعين هم جنوده، أما إضافتها إلى ضمير المتكلم فتعظيم لله من جانب وزيادة في مراعاة نفس الرسول – صلى الله عليه وسلم – فكلما كان الحافظ أعظم كان المحفوظ أكثر راحة وأمنا، وأي حافظ أعظم من الله تعالى؟

"وسبح بحمد ربك العظيم" الواو للعطف على الفعل اصبر، سبح: أمر موجب التكليف،

---

(١) انظر، ابن منظور، مادة ربب.

(٢) انظر، ابن عربي، إعراب القرآن الكريم وبيانه، ج٩، ص٣٤١.

(٣) انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص١٥٠ والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ج٢٨، ص٣٧٥-٣٧٦.

(٤) انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج١٩، ص٣٧-٣٨.

(٥) انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٢٧، ص٤٠.

والمقصود أوقع التنزيه له عن شائبة كل نقص بالقلب واللسان والأركان[١]، والفاعل مستتر تقديره أنت، بحمد ربك، الباء جار يفيد الاستعانة، والمقصود أداة تسبيحك وتنزيهك هي الحمد الدائم المستمر، والحمد: مصدر، والمصدر دال على الحدثية دون الزمن؛ ذلك أن الحمد له واجب في كل وقت.

أما الحال فمحذوفة تقديرها ملتبسا[٢]، والحال تحذف للاختصار[٣]، والهدف من حذفها التنبيه[٤]، ثم أضيف الحمد إلى ربك –وهذه تقدم الحديث عنها– حين تقوم: ظرف زمان محدد بالقيام، والمقصود بتوظيف المضارع الاستمرار، بأن يجعل الحمد الدائم المستمر أداة الصبر وحيلته.

أما التلطف فهو في التضايف بين كلمة رب، وكاف المخاطب، قيل: الكاف مخاطبة للمذكر مفتوحة وللمؤنث مفتوحة[٥]، فالرب هو الراعي والحافظ، وكاف المخاطب بها معنى التخصيص، والله رب الرسول – صلى الله عليه وسلم ورب كل شيء، فكأن الله تعالى خصه بالربوبية تلطفا به لإشعاره بالقرب والمودة والحفظ. فالجمل تباعا على النحو التالي:

اصبر لحكم ربك   سبح بحمد ربك

فكأن الله تعالى يوصيه بالصبر، ويعطيه وسيلته وهي مداومة الحمد، وبكلا الحالين الرب ربك، الحافظ لك عند الحكم الشاق، والمداوي لك عند العلاج الشافي.

---

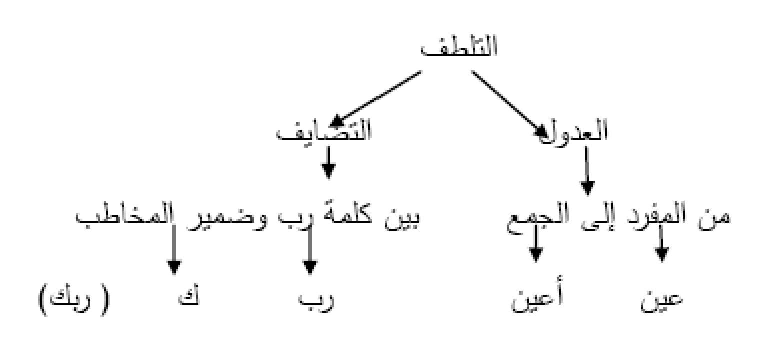
[١] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج١٩، ص٣٧-٣٨.

[٢] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، ج٩، ص٣٤١.

[٣] انظر، أبو شادي، الحذف البلاغي، ص٢٣.

[٤] انظر، المرجع السابق، ص٣٩.

[٥] انظر، ابن فارس، الصاحبي، ص ٧٢.



الشاهد الثاني:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾النساء: ٦٥

"فلا وربك" تعني وربك، والقسم يكون بالحلف على شيء فيأتي في الحلف بما يكون مدحا، أو ما يكسب فخرا، أو لغيره هجاء وتهديدًا[١]، لا مزيدة لتأكيد معنى القسم، "لا يؤمنون" جواب القسم، "فيما شجر" المعنى فيما اختلف واختلط، ومنه الشجر لتداخل أغصانه "حرجا" ضيقا، قيل لا ضيقًا ولا شكًا؛ لأن الشاك في ضيق من أمره حتى يلوح له اليقين، "ويسلموا تسليما"؛ أي ينقادوا ويذعنوا لما تأتي به من قضائك، "تسليما" تأكيد للفعل بمنزلة تكريره[٢] وللآية قصة ملخصها: أن الزبير وحاطب بن أبي بلتعة اختصما إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال عليه السلام: "اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك"، فغضب حاطب وقال: لئن كان ابن عمتك. فتغير وجه الرسول – صلى الله عليه وسلم – فقال: "اسق يا زبير ثم احبس الماء

---

[١] انظر، الحنفي، شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي، أبو الثناء (ت ٧٢٥هـ) حسن التوسل إلى صناعة الترسل مصر، المطبعة الوهبية، د.ط، س١٢٩٨هـ، ص٧٥.

[٢] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٤٧٢، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج١٠، ص١٦٨-١٧١، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٣، ص٢٩٦-٢٩٧، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٢، ص٢٥٨، والألوسي، روح المعاني، ج٥، ص٧٠-٧٢.

حتى يرجع إلى الجذور واستوف حقك"[١]، ثم أرسله إلى جارك. وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – قد أشار بأمر في صالح الطرفين فلما أبى استوفى للزبير حقه[٢].

إن للآية الكريمة قصة هي سبب نزولها فالله تعالى يقسم بانتفاء الإيمان عمن يعرض عن تحكيم الرسول – صلى الله عليه وسلم، بل ويتعداه إلى القبول والرضا النفسي، وليس فقط قبول الحكم إذ قد يقبله المرء على مضض، ثم يعقبه التسليم الخالص وفي هذا تشريف ولطف للرسول – صلى الله عليه وسلم– بصفته رسول يحكم بشرع الله.

إن شرط الإيمان قرره الله تعالى بنفسه، وهذا القول مرهون بزمان، وموقوف على طائفة من البشر، والتحكيم هنا تحكيم شريعته لا تحكيم شخصه وإلا لم يبق مكان لشريعة الله وسنة رسوله بعد وفاته، ويكفي لإثبات الإسلام أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسوله، ولا يكفي هذا مالم يصحبه الرضا النفسي وإسلام القلب والجنان في اطمئنان[٣]، وقيل حكم هذه الآية باق إلى يوم القيامة وليس مخصوصا بالذين كانوا في عصر النبي – صلى الله عليه وسلم– فقط[٤].

فالتلطف في المعاني ظاهر من جعله حاكما بشرع الله، وعلى الناس أن يقبلوه قاضيا ثم يرضوا بحكمه، بل من لطفه به أن جعل من توقيره بقبول حكمه وسيلة للأجر والثواب؛ لذلك كان القبول بحكمه مشروطا برضا لا يساوره شك أو ضيق؛ لأن هذه المعاني سيقت على

---

[١] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الشرب والمساقاة، باب سكر الأنهار، رقم ٢٣٥٩–٢٣٦٠، ص ٥٦٨، والقصة مذكورة عند من سبق من المفسرين، وكذلك عند السيوطي، الدر المنثور، ج٤، ص٥٢٣–٥٢٦.

[٢] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج٤، ص٢٣٧٣–٢٣٧٧.

[٣] انظر، قطب، في ظلال القرآن، ص

[٤] انظر، الألوسي، ج، ص٧٠–٧٢.

تراكيب كان اللطف أيضا فيها، الفاء: استئنافية، "لا" نافية زائدة لتأكيد القسم[١] تنفي إيمانهم وشهادتهم أنه رسول الله؛ لأنهم حكموا غيره، فساعة تحكيمهم غيره برغم إعلانهم للإسلام جاء الحكم بخروجهم من دائرة الإيمان، وتقديم لا إعلان بالأهمية، فالمهم إعلان نفي صفة الإيمان عنهم؛ إذ لم يرضوا بحكم الرسول – صلى الله عليه وسلم، الواو: حرف قسم وجر متعلقان بمحذوف تقديره أقسم، والمحذوف هنا مفهوم ضمنا؛ ربك: الرب: هو المحسن الراعي الحافظ – تقدم الحديث عنها في الشاهد الأول.

ولله تعالى أن يقسم بما يريد أما نحن فليس لنا أن نقسم بغير الله، قَالَ تَعَالَى:﴿ وَٱلطُّورِ ﴾ الطور: ١. وأقسم بالنبات قَالَ تَعَالَى:﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾التين: ١. وبالملائكة قَالَ تَعَالَى:﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴾الصافات: ١. ولن تجده أقسم بأحد من الإنس إلا سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – قَالَ تَعَالَى:﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾الحجر: ٧٢.

ذلك أن خلق السموات والأرض يكفي بها الخلق والإيجاد أما خلق سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– فلا يريد به الخلق فقط بل يريد تربية فيها ارتقاءات النبوة، فالله يدخل فينا هذه المهابة بالقسم برب رسول الله[٢]، والكاف للمخاطب المخصوص محمد – صلى الله عليه وسلم– "لا يؤمنون" نفي يعقبه مضارع ليدل على انتفاء الإيمان في كل وقت عمن لا يرتضيك حكما، وفي هذه دليل على أن الحكم ليس مقصورا على أهل زمان رسول الله فقط بل للناس كافة حتى يوم القيامة، والجملة جملة جواب للقسم، "حتى يحكموك" حتى زمانية، والمقصود انتفاء صفة الإيمان عنهم حتى هذه الغاية "يحكموك" مأخوذة من الحكمة: وهي حديدة اللجام توضع في فم

---

[١] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٢، ص٢٥٠.

[٢] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج٤، ص٢٣٧٣-٢٣٧٧.

الفرس لمنع الدابة من الشرود، والحكمة أن تضع الشيء في مكانه الصحيح[١]، وحتى: للغاية[٢]، أما إعادة توظيف المضارع فللدلالة على أن تحكيم الرسول وشريعة ربه يجب أن يكون حاضرا قائما في كل أمرنا وفي جميع شؤوننا، والتضعيف للتكثير والمبالغة، والواو ضمير الجماعة فاعل، والكاف ضمير المخاطب مفعول به، والمحكمون جماعة المسلمين والحكم واحد هو أنت يا محمد، "فيما شجر" جار ومجرور، وصلة موصول، "بينهم" ظرف مكان ومضاف إليه.

"ثم لا يجدوا" حرف عطف يفيد الترتيب على مهل؛ ذلك أن تقبل الأمر فيه صعوبة وثقل على النفس، ونفي وجدان الحرج أبلغ من نفي الحرج[٣] والمقصود أن تحكم بينهم ثم لا يجدون في أنفسهم حرجا، والحرج: الشك أو الضيق[٤] من قضائك، فلا بد لهم حتى يستقيم دينهم وإيمانهم من القبول السلوكي والرضا القلبي "ويسلموا تسليما" الفعل متبوعًا بالمفعول المطلق زيادة في التوكيد؛ لأن التسليم لك أمر على وجه التكليف اللازم لصحة الإيمان.

والتلطف أيضا يجنى من التضايف بين كاف المخاطب وكلمة رب، فالله يقسم برب محمد إكراما له، وتلطفا به، وإشارة إلى مكانته منه فكأنه رب لكل شيء في كفة، ورب للرسول – صلى الله عليه وسلم– الكريم في كفة أخرى، والأخيرة أوفى حظا وبها أقسم.

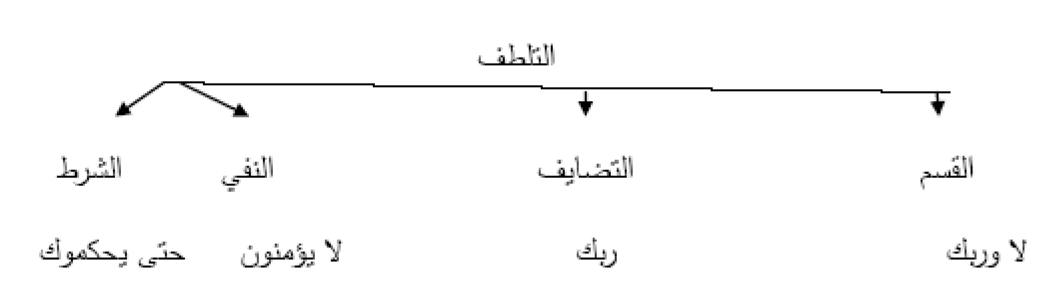
---

[١] انظر، ابن منظور، مادة حكم.

[٢] انظر، عضيمة، عبد الخالق، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القاهرة، دار الحديث، د.ط، د.س، ج١، ص١٤١.

[٣] انظر، الألوسي، ج٥، ص٧٠-٧٢، والبقاعي، ج٥، ص٧٠-٧٢.

[٤] انظر، ابن منظور، مادة حرج.



الخطاب بكاف الخطاب المتصلة بأسماء تنسب إليه – صلى الله عليه وسلم.

(وجهك) وردت في ستة مواضع ، أربعة منها في سورة البقرة في سياق الحديث عن تغير القبلة، واثنان آخران مسبوقان بالفعل (أقم).

الشاهد الأول:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾البقرة: ١٤٤.

"قد نرى" ربما نرى والمعنى كثرة الرؤية، "تقلب وجهك" تردد وجهك وتصرف نظرك في جهة السماء، وكان الرسول ينتظر من ربه أن يحوله إلى الكعبة لأنها قبلة أبيه إبراهيم، وأدعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم، ولمخالفة اليهود فكان يراعي نزول الوحي في ذلك، "فلنولينك" فلنعطينك ولنمكننك من استقبالها، والتولية: الإقبال[١]، قبلة: وجهة، ترضاها: تحبها وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التي أضمرتها ووافقت مشيئة الله،

---

[١] انظر، ابن منظور، مادة ولي.

شطر: نحو وتلقاء[١]؛ إذ نزل الأمر الإلهي في صلاة الظهر، فاستقبل الميزاب وبـدل الرجـال مكان النساء؛ لذلك سمي المسجد مسجد القبلتين، وجعل تولية الوجه تلقاء المسجد الحرام؛ أي في جهته وسمته لأن استقبال عين القبلة فيه حرج عظيم على البعيد ،وذكر المسـجد الحـرام دون الكعبة دليل مراعاة الجهة دون العين[٢].

إن الرسول – صلى الله عليه وسلم- كان في حالة انتظار وترقب لتغيير القبلة من بيـت المقدس إلى الكعبة، فالكعبة قبلة أبيه إبراهيم – عليه السلام- وفي استقبالها مخالفة لقبلة اليهـود والنصارى، وفي استقبالها تكريم للعرب؛ إذ إنها مزارهم ومفخرتهم، وهذا أدعى إلى إيمـانهم، لهذا أحب عليه السلام أن تتحول القبلة إليها، فأسباب رغبته وحبه مشروعة لا تتعـارض مـع مشيئة الله سبحانه، فاستجاب الله لرغبة نبيه بأن أمره باستقبالها، وأمر المسلمين باستقبالها أيضا.

زاد الشعراوي: والرضا: ضد السخط، والرضا والسخط من صفات القلب لا من صفات السلوك إن الأمر لله، والرسول – صلى الله عليه وسلم يصلي مستقبلا بيت المقدس، لكن عاطفته متوجهة للكعبة، وفي هذا الأمر دليل على صدق نبوته فلو أن الأمر من عنده لصـلى مسـتقبلًا الكعبة بما يوافق رغبته، إلا أن الأمر لله، فعاطفته لم تؤثر في المصالح، ولم تؤثر في استجابته لحكم ربه، فبادر الحق بإرضاء عاطفته وتكريم استقامته على المنهج؛ ليجيء الأمر في الصلاة لا في فراغ منها، فيصلي ركعتين متجها لبيت المقدس وركعتين متجها للكعبة؛ لأن الأمر فـي

---

[١] انظر، المرجع السابق، مادة شطر.

[٢] انظر، االزمخشري، الكشاف، ج١، ص١٩٨-١٩٩ والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفـاتيح الغيـب، ج٤، ص١٢٠-١٣٥، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج١، ص٦٠١- ٦٠٤ والثعالبي، الجواهر الحسـان، ج١، ص٢٢٩-٢٣٠ والبقاعي، نظم الدرر، ج٢، ص٢٠٦-٢١٩ والألوسي، روح المعاني، ج٢، ص٨-١٢ والشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج١، ص ٦٣٠-٦٣٢.

الوجهتين لله[١].

إن في تغيير القبلة تكريمًا وخصوصيةً للرسول - صلى الله عليه وسلم؛ إذ كان في تغييرها موافقة لعاطفته، والحكم على جميع المسلمين باستقبال وجهة مال إليها قلبه - عليه السلام - وزاد في ذلك أن جعل من هذا الأمر دليلًا على صدق نبوته، فقد صلى الرسول- صلى الله عليه وسلم- مستقبلا بيت المقدس سبعة عشر شهرا استجابة لأمر الله وحكمه، والناس على دراية بأن قلبه يميل إلى الكعبة الشريفة، وبمجرد نزول الأمر بتغيير القبلة، حول قبلته في أثناء الصلاة، لا في فراغ منها، ليأتي الأمر دليلا على أن الأمر وحي لا هوى.

إن اليهود قد علموا من كتبهم، التي أنزلت على أنبيائهم، أن سيأتي نبي يصلي إلى القبلتين، ولكنهم كانوا يتكاتمون على ذلك كفرا وعنادا[٢] قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ١٤٤.

في هذه الحادثة تلطف وخصوصية لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- على عدة أوجه أولها: علم الله بما في قلب رسوله، وتلطفه به بأن أجاب دعاء قلبه لا دعاء لسانه؛ إذ إن الرسول - صلى الله عليه وسلم- كان يستحيي من الله أن يدعوه لأمر كان قد حكم فيه، ثم أن الله تلطف في خطابه أن نسب التقلب إلى الوجه لا إلى القلب "تقلب وجهك" لأن الإيمان قد انعقد في قلب

---

[١] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج١، ص ٦٣٠-٦٣٢.

[٢] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج١، ص١٩٨-١٩٩ والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٤، ص١٢٠-١٣٥ وأبو حيان الأندلسي، ، البحر المحيط، ج١، ص٦٠١-٦٠٤ والألوسي، روح المعاني، ج٢، ص٨-١٢ والبقاعي، نظم الدرر، ج٢، ص٢٠٦-٢١٩ والشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج١، ص ٦٣٠-٦٣٢.

نبيه، والقلب: تحويل الشيء من وجهه، انقلب أي حوله ظهرا لبطن[١] وتقلب القلب من الخـوف والجزع يتنافى مع الإيمان؛ لذلك كان التقلب للوجه لا للقلب، ثم يؤكد تعـالى "فلنولينـك قبلـة ترضاها" مؤكدات سابقة: الفاء ولام الأمر، ثم مؤكد لاحق: نون التوكيد الثقيلة؛ ذلك أن الرسول – صلى الله عليه وسلم قد أثبت استقامته على المنهج، فألزم الله تعالى نفسه مكافأة رسوله بـأن حقق رغبته، ثم جعل من رغبة رسوله أمرا على المسلمين تكليفا، "وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره" فتحويل رغبة الرسول إلى أمر تكليف شرط لصحة الصلاة على كل مسلم، إنما هو غاية تشريف ونهاية تكريم، تشريف في جهة الرسول– صلى الله عليه وسلم، وتكليف على جميع من آمن به واستنّ بسنته واهتدى بهديه.

أما الوعد فقد جاء على إضمار؛ ليدخل السرور على قلب النبي– صلى الله عليه وسـلم– الكريم مرتين مرة بالوعد وأخرى بالتحقيق، ولأن بلوغ المطلوب بعد الوعد به أنس في التوصل من مفاجأة الوصول[٢].

هذا التلطف في المعاني من استجابة لرغبة الرسول – صلى الله عليـه وسـلم، وجعـل رغبته تكليفا على المسلمين إلى يوم الدين، ومن جعل زمن تحقيق رغبته دليلا علـى صـدقه، وكشف أعدائه، كل معاني التلطف هذه إنما جاءت على مطية الألفاظ والتراكيب، فكيف كانـت وسيلة التلطف فيها؟

قد: أداة للتشكيك إن تلاها مضارع، إلا أنها سيقت مع مضارع؛ المـراد منـه الماضـي والمقصود تردد وجهك[٣]، فهي قاصدة إلى التحقيق والتكثير، نرى: أي أن الرسول – صلى الله

---

[١] انظر، ابن منظور، مادة قلب.

[٢] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج١، ص٦٠١–٦٠٤.

[٣] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٢، ص٢٠٦–٢١٩.

عليه وسلم- قد انطوى ضميره على أمر ولم يطلبه، فالله رأى رأي الغيب دون طلب[١]، تقلب: مصدر لفعل مضعف دال على كثرة التقلب وطول الانتظار؛ إذ صلى الرسول – صلى الله عليه وسلم- مستقبلا بيت المقدس سبعة عشر شهرًا، وجهك: المراد البدن إذ إن الإنسان يتوجه ببدنه كاملا لا بوجهه فحسب، أما ذكر الوجه ليكنى به عن سائر البدن فلشرفه على سائر الأعضاء.

أما تعلق التقلب بالوجه لا إطلاقه، فإنما هو لأن التقلب ههنا للوجه دون القلب؛ إذ إن الإيمان معقود في قلب الرسول – صلى الله عليه وسلم، وتوظيف المصدر لإطلاق الزمن لا لتخصيصه، في السماء: جار ومجرور، الجار يفيد الظرفية المكانية؛ إذ إن صاحب الأمر في السماء، وذكر السماء تعظيم لما يضاف إليها[٢]، فالأمر من عنده وما عليه إلا الانتظار، أما الحال فمحذوفة، تقديرها طالبا قبلة غير التي أنت مستقبلها[٣]، أما حذفها لأن الرسول – صلى الله عليه وسلم- طلب بقلبه ولم يدع بلسانه تأدبا مع ربه سبحانه.

والقسم مضمر، تدل عليه الفاء التالية في قوله "فلنولينك" قسم مضمر ثم لام الأمر، الفاء عاطفة للتعليل، أما اللام فموطئة للقسم[٤]، نولينك: مضارع مؤكد بنون التوكيد الثقيلة، دلالة على حتمية الأمر وقربه، ثم الكاف: التي هي ضمير المخاطب المتصل بالفعل، وربط المخاطب بالضمير بفعل فاعله الله تعالى إنما هو تشريف للمخاطب محمد –صلى الله عليه وسلم- قبلة: جيء بها نكرة؛ لأن الله يعلم ماهي القبلة التي ترضي رسوله –صلى الله عليه وسلم، ترضاها: جملة فعلية في محل نصب نعت، فوصف القبلة المنكرة، مشروط برضا قلب الرسول – صلى

---

[١] انظر، المرجع السابق.

[٢] أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج١، ص٦٠١-٦٠٤.

[٣] الثعالبي، الجواهر الحسان، ج١، ص٢٢٩-٢٣٠ والسمين، الدر المصون، ج٢، ص ١٥٩-١٦٢.

[٤] انظر، الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، ج١، ص٢٠٥، ٢٠٨.

الله عليه وسلم، والله تعالى يعلمها دون أن يذكرها الرسول – صلى الله عليه وسلم، فول وجهك: استقبل بوجهك أما قلبك فإنما توجهه إلى الله.

وذكر الوجه لمناسبة المقابلة، تقلب وجهك تقابل فول وجهك، والفاء حرف عطف يفيد الترتيب والتعقيب، ثم الأمر الذي يفيد التكليف، فالوجه مفعول به أول، ظاهر ويقابل الظاهر، والغيب يقابل الغيب، في الآية ظاهران وغيبان، أما الظاهران فالوجهان إلى بيت المقدس وإلى الكعبة المشرفة، وأما الغيبان في الوجهتين فلله[١]، شطر المسجد الحرام: التولية للجهة لا للعين لئلا يشق الأمر، شطر مفعول فيه وهو مضاف أضيف إليه المسجد الحرام، وحيثما: أداة شرط جازمة، كنتم: فعل ماض ناقص، والضمير المتصل اسمها، فولوا: الفاء عاطفة، والأمر: مبني على حذف النون، والضمير هو الفاعل.

في هذه بشرى للرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– أن سيكثر اتباعه وينتشر دينه حتى يملأ الأرض، ثم يؤمرون بتولية وجوههم وقلوبهم إلى القبلة التي ترضيك[٢]، وهذا زيادة في تكريمه وتشريفه أن جعل القبلة التي يرضاها قلبه قبلة للمسلمين بل وشرطا من شروط الصلاة لا تتم إلا به، وجوهكم: مفعول به، شطره: مفعول فيه، والضمير يقصد به المسجد الحرام.

أما من يتساءل عن هذه القضية وجوهرها، فالموضوع فيه ما فيه من مراعاة فطرة الإنسان التي تميل إلى التفرد والتخصص، فالدين موافق للفطرة، فلكل حركة عبادة، ولكل عبادة حركة، حتى يأتلف ظاهر النفس وباطنها، فالقبلة ليست مكانا أو جهة فحسب بل هي رمز

---

[١] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٢، ص٢٠٦-٢١٩.

[٢] انظر، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٠٦-٢١٩.

للخصوصية والتميز، وفي هذا إشارة إلى تلك الصلة بين الرسول – صلى الله عليه وسلم – وربه؛ إذ استجاب له ولقلبه وعيّن له القبلة بل جعلها قبلة للمسلمين إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، فتوحيد القبلة أمر ينطوي عليه توحيد الأمة وتوحيد العقيدة للناس من كافة الأجناس والمواطن لله تعالى[١]، وإن الذين أوتوا الكتاب: مؤكد ثم اسم موصول هو اسم لإن، ثم جملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، ليعلمون: لام الابتداء مؤكد آخر ثم جملة فعلية هي خبر لإن[٢]، مؤكدان دالان على علم أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن سيكون أمر تحويل القبلة من الرسول الذي ذكر بكتبهم السماوية، فالأمر إنما هو تكذيب واستكبار على علم منهم، ولم يصفهم الله بالجهل أو بالسفاهة بل وصفهم بالعلم، زيادة في إفشاء أمرهم.

أنه الحق: أن واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي الفعل علم، وما الله بغافل: الواو استئنافية، وما هي النافية، الله: اسمها والباء: زائدة، غافل: خبر ما مجرور لفظا منصوب محلا، يعملون: جملة فعلية هي صلة للموصول لا محل لها من الإعراب[٣].

والتلطف باد من عدة أوجه، الأول: بأسلوب القسم الذي وقع لتحقيق ما يناسب الرضا القلبي للرسول – صلى الله عليه وسلم، "فلنولينك"، والثاني، بنسبة التقلب إلى الوجه لا إلى القلب، وفيها كناية عنه، والكناية بتسمية الكل بالجزء معلوم تلطفها، ولأن الوجه له شرف على سائر الأعضاء ذكر.

والتلطف باد من كثرة المؤكدات وتنوعها، والتوكيد: ثبت الشيء بالنفس وتقوية أمره[٤].

---

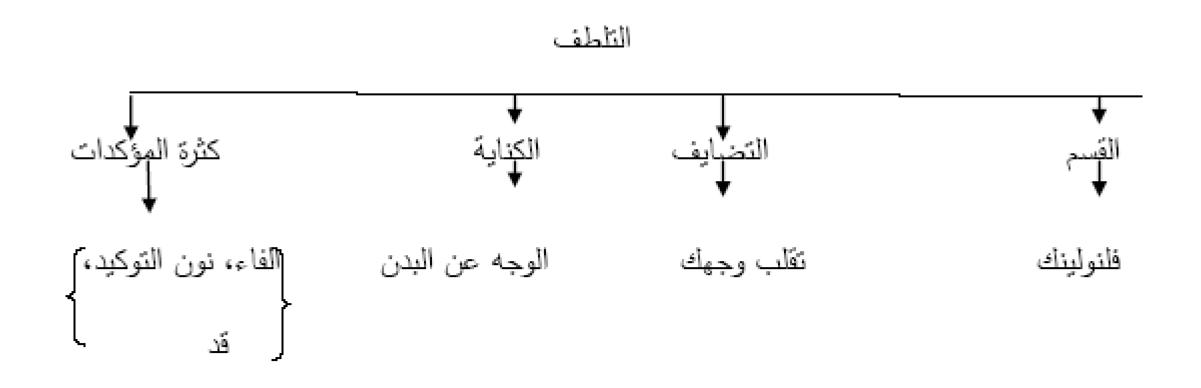
[١] انظر، قطب، في ظلال القرآن، ج١، ص١٧٠-١٧٩.

[٢] انظر، الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، ج١، ص٢٠٥، ٢٠٨.

[٣] انظر، الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، ج١، ص٢٠٥، ٢٠٨.

[٤] الأنطاكي، دراسات في فقه اللغة، بيروت، دار الشرق العربي، ط٤، د.س، ص٢٦٤.

فمن وسائله الكثيرة ورد غير واحد في الآية الكريمة، منها، قد: التي تدخل على الماضي، وفي الآية دخلت على المضارع لتدل على كثرة الحدوث في الماضي، والقسم: فلنولينك، وهو جملـــة فعلية، الفاء واللام سابق، والنون نون التوكيد الثقيلة لاحق[١].



الشاهد الثاني:

فؤادك، وردت في موضعين، مسبوقة بالفعل (نثبت). قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾هود: ١٢٠.

التنوين في"كلًا" تنوين عوض، فالمقصود كل نبأ نقص عليك من أنباء الرسل "ما نثبت به فؤادك" بدل من كلا، والمعنى أننا نقص عليك على كل نوع وأسلوب "ما نثبت به" ما يزيد فـــي يقينك وطمأنينتك؛ لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للعلم، "وجاءك في هذه الحق" أي جاء في هذه السورة أنباء منها ما هو حق وموعظة وذكرى للمؤمنين[٢].

إن الله تعالى يبين سبب سوقه للقصص – قصص الأنبياء والأولين– لما في ذلـــك مـــن

---

[١] انظر، المرجع السابق، ص٢٦٤-٢٧٣.

[٢] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٢٩٧، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيـــب، ج١٨، ص٨١، والبقاعي، نظم الدرر، ج٣، ص٣٠٨، السيوطي، الدر المنثور، ج٨، ص١٧٣.

تسرية عن قلب الرسول – صلى الله عليه وسلم، كما أن فيه موعظة له فيهم بصبرهم، وتثبيت لقلبه، وإنباء له بالحق بذكر أخبارهم، وذكرى للمؤمنين بمصير الأقوام الذين خالفوا أنبياءهم، وكيف غضب الله عليهم؛ إذ حقق فيهم الوعود والنذور.

كلًا: عندما ترى التنوين تعرف أن الله سبحانه يريد قص قصة، ومما يوجب النظر في الفعل (قص) هل أخذ من صفة له أو اسم موجود، فيحق لنا أن نأخذ الاسم ونأخذ الفعل، مثل خلقكم من خالق، ولكن إن جاء الفعل ليس له أصل في الأسماء فإياك أن تشتق من الفعل اسما، فليس لك أن تقول إن الله قصاص من الفعل قص فهنا جاء الفعل للمشاكلة ما دام ليس له وجود ضمن أسماء الله الحسنى، و"أنباء" جمع نبأ وهو الخبر العظيم الذي له أهمية[١]، أما أخبار الرسل فمتناثرة عبر سور القرآن الكريم موضحة ما جاء به كل رسول وما عانى من قومه من عنت وتعب، أما هذه الاخبار فقد جاء ذكرها لتثبيت فؤاد الرسول – صلى الله عليه وسلم؛ إذ إن الرسول سيصادف المتاعب والصعاب في دعوته[٢].

مما يوجب الذكر فيما يتعلق بالصفات والأسماء، أن رأي المفسر جاء بالحكم الشرعي؛ للتفريق بين الفعل الذي هو في أصله مشتق من اسم من أسماء الله الحسنى، وبين الفعل الذي ليس أصله اسمًا لله تعالى، وليس لنا أن نشتق من صفاته أسماء، فأسماؤه تعالى هو من سمى بها نفسه.

أما قيمة التلطف فتجنى من خطاب الله تعالى للرسول – صلى الله عليه وسلم، فالله يقص القصص على نبيه وما هو بقاص – تعالى عن ذلك – إنما كان هذا حبّا وخصوصية له؛ إذ هو

---

[١] انظر، ابن منظور، مادة نبأ.

[٢] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج١١، ص٦٧٧٣.

المنبئ له بما كان من أخبار الرسل السابقين له، ثم يسوق له الأسباب، فقص القصص، إما أن يكون تثبيتا لفؤاده، أو حقا يعلمه به – إعجاز بالإخبارعن الغيب– أو موعظة له، هذا ما يتعلق به –صلى الله عليه وسلم، أما للمؤمنين فالقصص ذكرى وموعظة، والمتأمل للأسباب التي ساقها الحق، يجد علم الله المطلق بأحوال رسوله – صلى الله عليه وسلم، وما يطرأ عليه من حالات فإذا كان فؤاده مضطربا فهي تثبيت له، وإن كان الحال يقتضي سوق الأدلة مع المكذبين فهي كذلك، وإن كان الحال حيرة فهي موعظة له بالصبر والتحمل، أما للمؤمنين فهي ذكرى في كل الأحوال؛ إذ إن من آمن وسلم لا يحتاجها إلا للعلم والتذكير، أي لسبب واحد، أما الرسول – صلى الله عليه وسلم – فيحتاجها لأسباب تعلق به والدعوة؛ إذ إنه الرسول المبلّغ الموكول إليه المهمة – مهمة إبلاغ الرسالة – ولما علم الله أن سيمر به خلال هذه المهمة من الصعوبات والعنت والتكذيب ما يمس منه الفؤاد والجسد والفكر، قص عليه هذه القصص لتتناسب مع ما سيلاقيه في مهمته.

أما الفؤاد فهو وعاء العقائد، بمعنى أن المخ يستقبل من الحواس التي هي وسائل الإدراك، فتتولد المعلومات التي يصنفها المخ ويرتبها لتصبح قضايا عقلية، هذه القضايا العقلية يناقشها المخ حتى تصح صحة لا يأتي بعدها ما ينقضها، فتسقط في الفؤاد، لتصير عقيدة لا تطفو بعدها إلى العقل لتناقش مرة أخرى؛ لذلك تسمى عقدة لا تتذبذب ولا تتبدل، ثم يسقط الفؤاد ما انعقد به على القلب ليدير حركة القلب على مقتضاه[١].

في اختيار الحق لكلمة "فؤاد" تلطف خاص، فالقلب وعاء صُفّي به ما خلص العقل من نقاشه، والإيمان مكانه فؤاد النبي – صلى الله عليه وسلم، فهو أمر معقود لا شبهة فيه ولا نقاش،

---

[١] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج١١، ص٦٧٧٣.

وهنا إشارة تلطفية أن قص القصص ليس لأنه متشكك أو مضطرب، إنما فقط لتثبيت ما هو ثابت أساسا في فؤاده، ولو كان غير ثابت لما كان مكانه الفؤاد، فاستعملت هذه اللفظة دون غيرها لأن الإيمان بالله قد انعقد وتم وأرسي ووصل ليكون مكانه فؤاده – صلى الله عليه وسلم.

أما التلطف في التراكيب فيجنى من قوله "كلا": مفعول به مقدم[١]، للفعل نقص، قدم المفعول للأهمية؛ إذ إن القصص القرآني إنما قص لهذا المقصد، نقص: مضارع دال على الاستمرارية، فاعله مستتر تقديره نحن، والمقصود هو الله تعالى، عليك: على: الاستعلاء مجازي، فالقصص من الله الأعلى منزلة ومقصوصة على الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي ارتفعت مكانته بأن اقترن ضمير خطابه (الكاف) بجار متعلق بفعل، والفعل فاعله الله تعالى، "من أنباء الرسل" من: تفيد التبعيض؛ إذ ذكر في القرآن الكريم بعض من الرسل لا كلهم، أنباء: جمع للتكثير، فما قص عليك من أخبارهم ما هو إلا بعضها وهي مشمولة بكل واحد هو هدف القصص القرآني، الرسل: معرفة لأن القصص عنهم إنما كانت بذكرهم في القرآن الكريم فبذلك أصبحوا معرفة، فهم معرفة وأنباؤهم نكرة، إذ لم تذكر في الكتاب كامل حياتهم وسيرهم، بل جانب فقط هو الجانب الذي يعكس صبرهم وتحملهم، وتجربتهم التي يريد الله تعالى أن يربي رسوله ويعلمه بها.

نثبت: مضارع مضعف، مفعوله محذوف مقدر بـ(تثبيتا عظيما) أي نقص عليك ما يضمن تحقيق الفائدة وهي تثبيت الفؤاد ليسكن في موضعه فلا يضيق؛ إذ إن المشاركة في الأمور الصعبة تجعلها هينة[٢]، به: جار ومجرور، والباء للاستعانة.

---

[١] الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٣، ص ٣٠٨، والسمين، الدر المصون، ج٦، ص٢٢٧-٢٢٨، الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، ج٤، ص٤٤٦.

[٢] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٣، ص٣٠٨.

فؤادك: المعارف الإلهية لا بد لها من قابل ومن موجب، والقابل هو القلب فإن لم يكن في كامل الاستعداد لم يحصل الانتفاع بسماع الدلائل، فلهذا قدم القلب فلما ذكر صلاح حال القلب أردفه بذكر الموجب وهو مجيء هذه السورة التي تشتمل على الحق والموعظة، وهذا الترتيب في غاية الشرف والجلالة[١] وجاءك: فعل ماض يفيد تحقق الأمر وانتهائه، ومفعول متقدم لأهمية المخاطب فالمقصود هو أنت يا محمد لا النبأ.

في: تفيد الظرفية، هذه: أي السورة، وما بها من أخبار لا مرية فيها[٢] وقيل هي الأنباء[٣].

الحق: فاعل مؤخر، فإن قلت لم وصفت هذه السورة بأنها حق والقرآن كله حق، فبهذا رأي مفاده التهديد والوعيد للكفار، قياسا لما يقال عند الشدائد "جاءك الحق"[٤] والرأي الآخر مفاده أنه مخصوص للرسول – صلى الله عليه وسلم- الكريم وإرشاده. وموعظة: عاطف ومعطوف على كلمة الحق، وذكرى: عاطف ومعطوف على كلمة موعظة، للمؤمنين: جار يفيد الاختصاص، ومجرور.

أما تعريف كلمة الحق، وتنكير موعظة وذكرى؛ فلأن الأولى مخصوصة لإرشاد الرسول – صلى الله عليه وسلم، وتنكير الأخريين؛ لأنهما لعامة المسلمين[٥]، أما الترتيب فله قيمة، فلا موعظة أو ذكرى قبل وجود الحق وثباته، من هنا سيعلم الرسول – صلى الله عليه وسلم- أن التكليف له تشريف وأمان، فالرسول مثبت القلب ليستقبل باقي الأمر بقوة وثبات، أما

---

[١] انظر، الفخرالرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج١٨، ص٨١.

[٢] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٣، ص٣٠٨.

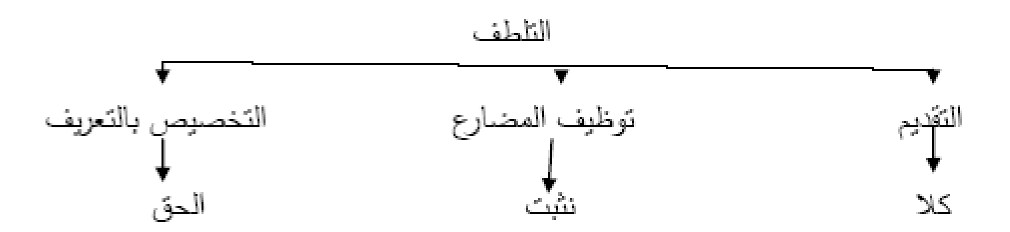
[٣] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج١٢، ص١٩٧.

[٤] الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٣، ص ٣٠٨.

[٥] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج١٢، ص١٩٧.

المؤمنون فهم مذكرون موعوظون.

يجنى التلطف من إصابة الله تعالى لهدف هو تثبيت فؤاد الرسول – صلى الله عليه وسلم، وفي ذكره من المراعاة ما فيه؛ إذ إنه ليراعي اضطراب فؤاده أو ضعفه، فيسوق له من القصص ما يثبت به فؤاده ويعينه على أداء الرسالة، فالله تعالى رب رحيم لطيف خبير، خبر فؤاد رسوله وداواه بالعلاج الشافي، بل إن من هذا العلاج ما لا ينفد ولا يتلف، فالقرآن الكريم معلومة أسراره وطاقاته العلاجية للجسد والروح.



الخطاب بكاف الخطاب المتصلة بفعل.

الشاهد الأول:

أريناك، وردت في موضع واحد في القرآن الكريم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴾الإسراء: ٦٠.

إذ قلنا لك: أي أعلمناك وأخبرناك، إن ربك أحاط بالناس: أي أن النصر حليفك، والمقصود واقعة بدر، فإن الرسول كان يقول حين ورد ماء بدر "والله لكأني أنظر إلى مصارع

القوم، وهو يومئ إلى الأرض، ويقول هذا مصرع فلان، هذا مصرع فلان[١]، فتسامعت قريش بما أوحي فكانوا يضحكون ويهزؤون[٢].

يطمئن الله تعالى رسوله – صلى الله عليه وسلم، بأن يبشره بالنصر قبل مجيئه، فأنت يا محمد في حفظ الله وعنايته، أما الرؤيا فأمر مختلف فيه يذهب الزمخشري إلى أن المقصود بها القصة السابقة قبيل واقعة بدر، وذهب معه وروى بروايته أبو حيان الأندلسي وقال ربما هي فتح مكة[٣]، وذهب غير واحد من المفسرين إلى أن المقصود بالرؤيا: معجزة الإسراء والمعراج، أو فتح مكة، أو رؤيا الرسول في المنام لأبناء أمية على المنابر، وقد كـره هـذه الرؤيـا[٤]، زاد الشعراوي على ما سبق: إن الإحاطة تكون بالعلم والقدرة، أحاط: أي ألمّ وعلم وقدر، فقد علم الله بأمرهم وقدر عليهم، فاطمئن؛ إذ باطمئنانك يطمئن المؤمنون، والإحاطة هنا بالناس جميعا مـن آدم إلى قيام الساعة، أما إحاطة الله تعالى فهي على وجهين: الأول إحاطة بالمؤمنين ورأسـهم رسولهم الكريم، إحاطة عناية وحفظ ورعاية، والوجه الثاني: إحاطة بالكفار ورأسـهم صـناديد الكفر، فإحاطة حصار وضيق وشر، فاعلم يا محمد، إذا ما أحاط بك العـدو، فـإن الله محـيط بالناس، فأنت في حفظه وهم في حصاره[٥].

يفرق الشعراوي بين نوعين من الإحاطة، إحاطة حفـظ وهـي متعلقـة برسـول الله وبالمؤمنين، وإحاطة حصار وضيق، فالناس كلهم غثهم وسمينهم بيد الله ، فهو خالقهم المـتمكن

---

[١] البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، ص ٨٩٣، رقم٣٦٣٢.

[٢] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص ٤٩٥-٤٩٦.

[٣] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٦، ص٥٢-٥٥.

[٤] انظر، أبو حيان الأندلسي، المرجع السابق، والفخر الرازي، التفسير الكبير ج٢٠، ص٢٣٨-٢٣٩، والبقاعي، نظم الدرر، ج١١، ص٤٥٧-٤٦٠، والسيوطي، الـدر المنثـور، ج٩، ص٣٨٨-٣٩٤، والألوسـي، روح المعاني، ج١٥، ص ١٠٧-١٠٨ الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج١٣، ص٨٦٣٩-٨٦٥٦.

[٥] الشعراوي، المرجع السابق، ج١٣، ص ٨٦٣٩-٨٦٥٦.

منهم العالم بهم والقاطع بأمرهم .

ومن قيوميته تعالى أن قال الفلاسفة: الله زاول سلطانه في الكون مرة واحدة، وخلق النواميس (القوانين) التي تعمل في الكون، والرد بسيط إن كانت النواميس تحكم فلماذا الشذوذ؟ ولماذا لم تحرق النار إبراهيم -عليه السلام-؟ إن الله أراد بهذه المعجزة خرق النواميس، فالله مكنهم أولا من الإمساك به - ولو شاء ما مكنهم منه- ثم مكنهم من إشعال النار - ولو شاء لأرسل سحابة تطفئ نارهم- ثم سلب من النار خاصية الإحراق، كذا كانت معجزة الإسراء والمعراج خارقة لنواميس الكون، فاختلف في تفسيرها هل هي منامية أم بصرية؟ وهل زمن حدوثها مقبول عقلا؟ فالإعجاز في زمن حدوثها، ولكن ما الحكمة من أن تكون هذه المعجزة فتنة؟ إن الحكمة تكمن في تمييز الخبيث من الطيب[١].

إن المفسر قد رجح تفسير الرؤيا بأنها معجزة الإسراء والمعراج لما بها من خرق للنواميس والقوانين الكونية، مستأنسا بتفسير ما لحق بذكرها من ذكر الشجرة الملعونة في القرآن استقبال عقل فمن صدّق بك وصدّق بربك يقبل كل أمر خارق للعادة لإيمانه بأن الله رب النواميس ورب ما يخرقها، كذلك يستأنس بأن هذه السورة مكية، وحادثة بدر والحديبية وقعتا وهو في مكة، والسورة تتحدث في مطلعها عن الإسراء والمعراج.

أما الشجرة الملعونة: فهي شجرة الزقوم، قال الكفار: محمد يقول إن الجحيم تحرق الحجارة، ثم يقول ينبت بها شجرة، أما أبو جهل فيقول هازئا: محمد يتوعدكم، ونحن نعرف أن الزقوم هو تمر بالزبد، فأمر جارية وقال: زقموني[٢]، أما لعنها فهو لعن لطاعميها[٣]، أما عطفها

---

[١] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج١٣، ص٨٦٣٩-٨٦٥٦.

[٢] انظر، السيوطي، الدر المنثور، ج٩، ص٣٨٨-٣٩٤، الألوسي، روح المعاني، ج١٥، ص ١٠٧-١٠٨ والشعراوي، المرجع السابق، ج١٣، ص ٨٦٣٩-٨٦٥٦، والثعالبي، الجواهر الحسان، ج٣، ص ٣٠٨.

[٣] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص ٤٩٥-٤٩٦.

فعلى الرؤيا؛ إذ إنها هي أيضا فتنة؛ فالإسراء والمعراج تثبيت للمـؤمنين، والشـجرة تخويـف للكفار[١] فما يزيدهم الأمر إلا طغيانا.

يجنى التلطف من التراكيب التي خوطب بها الرسول - صلى الله عليـه وسـلم، وإذ: ظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر[٢]، أما حذف فعل الأمر لئلا يستشعر الرسول - صـلى الله عليه وسلم - حدة في الخطاب، فالأمر به تكليف وشدة والسياق في الآية الكريمة سياق طمأنة، قلنا: فعل وفاعل، ضمير الفاعل بصيغة الجمع لأن القول إنما صدر من عظـيم الشـأن ربـك سبحانه، والقول منه حق نافذ لا محالة، لك: جار ومجرور مخصوص بك؛ إذ إن القـول لـك؛ لتطمئن وترتاح وبراحتك يطمئن المؤمنون، إنّ: حرف توكيد ونصب، ربك: اسم إن مضـاف، والضمير: مضاف إليه، والإضافة هنا تلطف يخدم سياق الطمأنة، فالرب هو الحـافظ الراعـي بالعناية، فإضافة رب إلى كاف المخاطب، إلصاق حفظ وقرب يوحي بقرب حافظك لك ومراقبته إياك، وهو ربك الله تعالى، أحاط: فعل وفاعل هي خبر لإن، والإحاطة هي الإلمام بالشيء -كما تقدم- أما استخدام الماضي ليعبر به عن المستقبل ليدل على نفاذ الأمر ووقوعه[٣]، والمعنى أنك محفوظ من الله فلا تخف، بالناس: جار ومجرور دالان على شمول الإحاطة، فكلمة الناس: اسم للجمع من بني آدم[٤]، فهي مفردة دالة على الجميع المؤمن والكافر الصالح والفاجر، وما: الواو عاطفة، وما: نافية للحصر، جعلنا: فعل وفاعل: أما ضمير المتكلم (نا) فمتناسب مـع الضـمير السابق في الفعل قلنا؛ ذلك أن صاحب القول هو صاحب الجعل، أما الرؤيا: فأمر مختلـف فيـه والراجح بين آراء المفسرين أنها واقعة الإسراء والمعراج، أما تسميتها رؤيا لا رؤية، مع أنهـا

---

[١] البقاعي، نظم الدرر، ج١١، ص٤٥٧-٤٦٠.

[٢] انظر، الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، ج٥، ص٢٦٤-٢٦٥.

[٣] انظر، أبو حيان الأندلسي البحر المحيط، ج٦، ص٥٢-٥٥.

[٤] انظر، ابن منظور، مادة أنس.

رؤية بصرية لا منامية؛ فلما وقع بها من أمور مخالفة لنواميس الكون وقوانينه، ههنا دقة في النظم القرآني، فالإعجاز ليس في الذهاب إلى بيت المقدس، بل في زمن الذهاب[١]، التي: اسم موصول هي صفة، أريناك: فعل وفاعل ومفعول، جملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، إلا: أداة للحصر، فتنة: مفعول ثان للفعل جعلنا، الفاعل هو (نا) ضمير بصيغة الجمع ليناسب معنى التعظيم، هو ذات الضمير الموظف في الأفعال السابقة: قلنا، جعلنا، للناس: جار ومجرور، مكرر فمن أحاطك الله منهم هم الآن في موضع امتحان واختبار، فالفتنة هي تمحيص لقلوب من حولك لتعلم صدق من آمن بك ممن لم يؤمن، والشجرة: عاطف ومعطوف على الرؤيا[٢] والجملة بها تقديم وتأخير، فالأصل وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة إلا فتنة[٣].

قيل: مرفوعة على الابتداء وخبرها محذوف تقديره فتنة[٤] الملعونة: صفة، في القرآن: الوارد ذكرها في القرآن الكريم، ونخوفهم: التخويف نعمة لأنه يحذرهم[٥] لكنه هنا ما يزيدهم إلا طغيانا، الطغيان: التجاوز[٦].

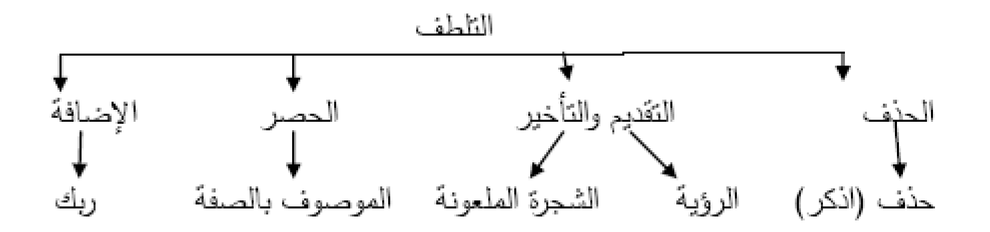
إن التلطف باد في ذكر حادثة الإسراء والمعراج، فهي معجزة بها محص الله قلوب من حول الرسول – صلى الله عليه وسلم، ثم الطمأنة بالإحاطة والبشرى بالنصر في بدر، أما الرؤيا على تعدد تفاسيرها فسببها أن تكون امتحاناً لمن هم حولك، ومن حفظ الله أنه يخوف

---

[١] انظر، الشعراوي خواطر حول القرآن، ج١٣، ص٨٦٣٩-٨٦٥٦.
[٢] البقاعي، نظم الدرر، ج١١، ص٤٥٧-٤٦٠، الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، ج٥، ص٢٦٤-٢٦٥.
[٣] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج٢٠، ص ٢٣٨-٢٣٩.
[٤] السمين، الدر المصون، ج٧، ص ٣٧٧-٣٧٨.
[٥] الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج١٣، ص٨٦٣٩-٨٦٥٦.
[٦] انظر، ابن منظور، مادة طغى.

أعداء الدين بذكر عذابهم في الآخرة، وهم مستفزون مخذولون بنصرة الله لرسوله فـــي الــدنيا، والتفكير بما سيكون لهم من عذاب، وما تفكيرهم هذا إلا لأن قلوبهم مصدقة وألسنتهم في كفــر، ونفوسهم في كبر.

والتلطف في التراكيب، من توجيه الخطاب لك، فهو خطاب مخصوص يشـــي بـــالقرب والخصوصية، وبإضافة الرب إلى كاف المخاطب، فكأن الله تعالى وهو رب كــل شـــيء، رب الرسول – صلى الله عليه وسلم– وحده يكلؤه ويحميه ويحيط به من كل مكان، والتلطف باد من التركيب، وما جعلنا الرؤيا التي أريناك، فالرؤيا جميلة وبها تسرية عن فؤاد الرسول – صلى الله عليه وسلم، لذلك وصفها بـــ"التي أريناك" وأخّر الشجرة الملعونة، لأن الله أخبر رسوله عنها ولم يره إيّاها، وكيف يريها له وهي في النار، والرسول – صلى الله عليه وسلم– حاشا أن يراها – مكانه في الجنات العلى، قيل: والتقديم يمثل سياقا في مسائل الوعد والضمان[١].



الشاهد الثاني:

فسيكفيكهم ، ورد الخطاب به في موضع واحد.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾البقرة: ١٣٧.

---

[١] انظر، عبد المطلب، البلاغة الأسلوبية، ص٣٣٢.

إن آمنوا بالذي آمنتم به من الشهادة بالله والرسل، فقد اهتدوا إلى سبيل الحق، وإن أعرضوا فهم في شقاق، الشقاق: المعاندة والمناوأة، وفي اللسان: العداوة والخلاف[١]، وهذا من باب التبكيت؛ إذ إن دين الحق واحد وقيل هو الاعتقاد والتصديق فإن صدقوا مثل تصديقكم فقد آمنوا، وقيل هو إيجاد شيء مساو لما آمن به المسلمون، عندها وجب عليهم الإيمان به، ولا شيء مثيل لما آمنوا به، فهم في شقاق مستول عليهم ومحيط بهم، فسيكفيكهم: ضمان من الله تعالى بإظهار رسوله – صلى الله عليه وسلم- عليهم، وكفايته إياهم إذ سيترتب على شقاقهم محاربة ومعاداة، فالله يسري عن قلب نبيه ويعده بالغلبة، وهو السميع العليم: تهديد ووعيد لهم فهو يسمع ما ينطقون به، ويعلم ما يضمرون، وربما كان الخطاب للرسول – صلى الله عليه وسلم، أي أن الله يسمع ما تدعو به قومك ويعلم نيتك وما تريد إظهاره فهو المستجيب لك والموصل لمرادك، وفي هذا إخبار ضمان من الله، فالكفاية بمن يهدي الله من المهتدين، ومن يفرق من المشاقين، أو بإهلاكهم وإذلالهم، السميع العليم، تتناسب مع الإيمان وضده وما يترتب عليه من أقوال وأعمال، فهو السميع لأقوالكم العالم بنواياكم[٢]، قيل: يلتقون في الكفر ويختلفون في أسبابه[٣].

إن شرط تحقق الإيمان واحد؛ إذ إن طريق الحق واحدة، فإن تحقق منهم إيمان فهم مهتدون إلى الخير، وإن أعرضوا عما جاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم – فهم في اتجاهات عديدة؛ إذ إن طرق الكفر كثيرة، والله حافظ رسوله منهم وكافيه إياهم في كل أحوالهم،

---

[١] انظر، ابن منظور، مادة شقق.

[٢] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج١، ص١٩٣، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج١، ص٥٨١-٥٨٢، والثعالبي، الجواهر الحسان، ج١، ص٣٢٤، الألوسي، روح المعاني، ج١، ص٣٩٦-٣٩٧، والشعراوي، خواطر حول القرآن، ج١، ص٦١٠-٦١١.

[٣] انظر، الشعراوي، المرجع السابق.

بل وفي كل أنماط شقاقاتهم إما بإهلاكهم أو بإظهاره عليهم أو بإذلالهم.

يجنى التلطف في المعاني من طمأنة الله تعالى رسوله – صلى الله عليه وسلم، بتأكيد كفايته ومنعته ممن عادوه، ووعده بالحفظ والظهور، أما سوق هذه المعاني فقد كان محمولا في قوله تعالى "فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به" أما الفاء فللاستئناف، والجملة شرطية، أي أن إيمانهم موقوف مشروط بأن يؤمنوا بالذي آمنتم به، والمعنى يفضي إلى التشكيك[١]، وفعل الشرط ماض مبني على الضم في محل جزم، أما صيغة الماضي فللدلالة على وقوع الشيء ومضيه وتوظيفه ههنا زيادة في التشكك بأمرهم، فالماضي موظف ليعطي معنى المضارعة، والباء: تفيد الاستعانة[٢]، أي فإن دخلوا الإسلام بشهادة مثل شهادتكم، فهم مؤمنون، أما كلمة مثل: فزائدة[٣]، والمقصود أن يؤمنوا بالذي آمنتم به.

ما: موصولة، وما اسم مبهم، سيق الإبهام هنا لأن ما آمنتم به أمر جليل، يفوق كل معرفة، آمنتم به: صلة الموصول، والذي آمنتم به ليس له مثل – كما تقدم– فقد اهتدوا جواب الشرط، الفاء: واقعة في جواب الشرط، وقد: تفيد التحقيق، تحقيق وصولهم إلى الهداية.

اهتدوا: عبر بفعل المطاوعة لأن الإيمان يوافق الفطرة[٤] أما الشرط وجوابه فموجودان لأن الهداية لم تقع بعد وإن كانت بصيغة الماضي[٥].

وإن تولوا: جملة معطوفة على فإن آمنوا، وتوظيف صيغة تفعّل؛لأن الكفر لا يكون إلا

---

[١] انظر، السمين، الدر المصون، ج١، ص ١٤٠-١٤١.
[٢] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٢، ص١٩١-١٩٣.
[٣] انظر، السيوطي، الدر المنثور، ج١، ص٧٢٨، والسمين، الدر المصون، ج١، ص١٤٠-١٤١.
[٤] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٢، ص١٩١-١٩٣.
[٥] انظر، السمين، الدر المصون، ج١، ص ١٤٠-١٤١.

بعد إعراض عن الإيمان[١] فإنما هم في شقاق: الفاء: واقعة في جواب الشـرط، إنمـا: كافـة ومكفوفة، هم: ضمير متصل في محل رفع مبتدأ، وتخصيصهم بالضمير هـم المغيـب، تلطفـا بالرسول – صلى الله عليه وسلم؛ إذ إنهم في شقاق واختلاف، وأنتم في وحدة وائتلاف، والشق: هو الخلاف والعداوة الناجمة عن الخلاف، والشين والقاف إذا اجتمعتا في كلمة فإنهما تدلان على هذا المعنى؛ أي الصدع والاشتقاق شق الكلام، والشقاق ملازم للمكايدة والمعانـدة[٢]، وتفصـيل الخطاب دال على تفصيل الكيان، فعرف أن فيهم من آمن وفيهم من أعرض[٣].

الجملة الاسمية، إنما: إن وما أداة حصر: لتفيد تقييدهم بالكفر، وحصرهم فـي الشـقاق والنزاع، هم: ضمير الغائب عائد على واو الجماعة في آمنوا، والمقصود كل من خالفك، فـي: تفيد الظرفية، تتناسب مع وقوعهم في الشقاق، والجملة اسمية للدلالة على الاستمرارية والثبات.

وجعل الخبر ظرفا للدلالة على أن الشقاق مستول عليهم محيط بهم[٤].

فسيكفيكهم: الفاء عاطفة تفيد الترتيب والتعقيب، فالكفاية عقب الشقاق، السين دون سوف لأنها أقرب زمانا، هي دالة على حتمية الكفاية لك يامحمد، والمضارع: دلالـة الاسـتمرارية، الكاف: مفعول أول، والهاء: مفعول ثان، الله: فاعل[٥]، والمراد الكفاية من كيدهم وشـقاقهم لأن الكفاية لا تتعلق بالأعيان بل بالأفعال والخطاب مخصص للرسول الكـريم – صـلى الله عليـه وسلم؛ إذ إنه سلك حبات قلوب المؤمنين فالله تعالى تولى كفايته بنفسه تعالى بل إن كفايته لاحقة

---

[١] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٢، ص١٩١-١٩٣.

[٢] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج١، ص١٩٥.

[٣] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج١، ٣٩٦-٣٩٧.

[٤] أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج١، ص ٥٨١-٥٨٢.

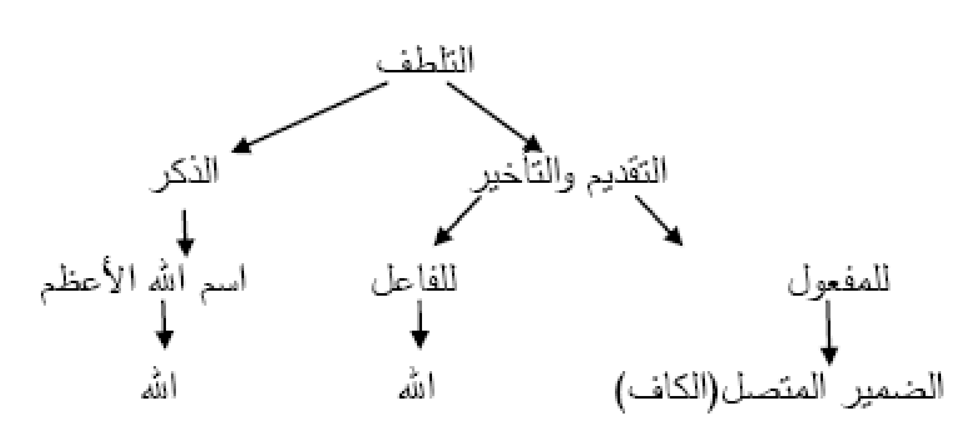
[٥] انظر، الدرويش، إعراب القرآن، ج١، ص ١٩٥.

عاقبة لشقاقهم[١]، قيل: الذوات لا تكفى إنما تكفى أفعالها، والمكفي به محذوف تقديره بمن يهـده الله، أو بتفريقه كلمتهم[٢]، وهو السميع العليم: جملة اسمية مبتدأ وخبران، قال ابن هشام "يجـوز أن يخبر عن المبتدأ بخبر واحد، وهو الأصـل، أو بـأكثر، كقولـه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ البروج: ١٤[٣]. وأما تقدم السمع فلأنه ظاهر، أما العلم فبما يضمرون وهو أمر مخفي باطن وهو سبب كل قول منهم، فحظكم منهم مقصور على أذى في القول وسوء في الضمير، وحظهم منكم القهر والاستيلاء[٤].

والتلطف في لفظة "فسيكفيكهم" السين مؤكد دال على الحتمية، يكفيك: مضارع دال على ديمومة الكفاية، والتقديم للمفعول المقصود به الرسول – صلى الله عليه وسلم – تلطفا به، قيل: إن تقديم المفعول لازم للتخصيص، وقيل التقديم للأهمية والتبرك والاستلذاذ، والاهتمام تابع لسر التخصيص، كون المقدم مما يعنى بشأنه وعزازة مكانته[٥]. وقيل: يتقدم المفعول على الفاعل إذا كان الغرض معرفة على من وقع الفعل[٦]، فقد قدم ذكره على ذكر اسمه تعالى، والتقديم مفـاده أن الله يقدم كفايته على كل شيء، بل ويقدم ذكره وحفظه على ذكر اسمه، ثـم يقـدم المفعـول الثاني، لأن الله تعالى حافظ رسوله منهم، وتأخير الفاعل، وذكر اسم الله الأعظم "الله" الجامع لكل الصفات، لبث الطمأنينة في فؤاد الرسول – صلى الله عليه وسلم، فالله تعالى المتصف بصـفات الكمال، الجامع لكل قوة وعظمة هو كافيك منهم.

---

[١] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج١، ص ٣٩٦-٣٩٧.
[٢] انظر، السمين، الدر المصون، ج٢، ص١٤٠-١٤٢.
[٣] انظر، ابن هشام، شرح قطر الندى وبل الصدى، ص٩٧.
[٤] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٢، ص١٩١-١٩٣.
[٥] انظر، طاهر، ظاهرة الحصر والقصر، ص١١٥.
[٦] انظر، الصعيدي، بغية الإيضاح، ج١، ص٢٣١.



كاف الخطاب المتصلة بالحروف الناسخة.

(لعلك) ورد في أربعة مواضع.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾هود: ١٢.

كان الكفار يقترحون على النبي – صلى الله عليه وسلم – آيات تعنتا لا استرشادا، فلو أنهم كانوا مسترشدين لكفتهم آية واحدة، وكانوا يتهاونون بالقرآن وبغيره من البينات، فكان يضيق صدر الرسول – صلى الله عليه وسلم– أن يلقي إليهم بما لا يقبلون به، فحض الله رسوله –صلى الله عليه وسلم– على أداء الرسالة وترك المبالاة بهم، "لعلك تارك بعض ما يوحى إليك" أي لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة تهاونهم به، ضائق به صدرك: أن تتلوه عليهم، أن يقولوا: مخافة أن يقولوا، لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك، أي هلا أنزل عليه ما اقترحنا، كنز أو ملك، ولمَ أنزل عليه ما لم نقترح، إنما أنت نذير: أي ليس عليك إلا أن تنذرهم، والله على كل شيء وكيل، أي يحفظ ما يقولون فتوكل عليه وبلغ ما عليك بصدر منشرح غير

ملتفت إلى استكبارهم وتهاونهم[١]، وقيل: إن كفار مكة طلبوا إليه أن يقرأ عليهم غير هذا القرآن؛ إذ إن به آيات تذكر أصنامهم وتسخر منها وتسفه أحلام آبائهم، فخاطبه الله تعالى رادا على أقوالهم ومبطلا لها، فلم يكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليترك شيئا مما أوحي إليه، إنما كان يضيق صدره بما يقولون وبما يفعلون[٢]. إن الله تعالى يوجه رسوله–صلى الله عليه وسلم– ويحركه إلى التبليغ دون الاكتراث إلى قبول الكفار أو إعراضهم؛ إذ إنه موكل إليه أمر التبليغ لا أمر الهداية، وتبليغهم الرسالة كما هي لا كما يتناسب مع أهوائهم المتعارضة المتعددة، فهم متفاوتون في طلب شروط منه للتصديق، فمنهم من طلب كنز، ومنهم من طلب إليه أن يأتي معه ملك ومنهم من أخذته العزة بآلهته إثما، فلا يريد أن يسمع آيات تعيب آلهتهم وتقلل من شأنها ، فطلب منه أن يجيء بقرآن غير هذا، وهذا ما لايستطيعه الرسول– صلى الله عليه وسلم، فما هو إلا نذير، ينذر الناس ويحذرهم ويبلغهم ما هو موحى له من ربه، أما أمر الهداية أو الكفر فأمر لا يستطيعه؛ لذلك توكل به الله تعالى الذي هو على كل شيء وكيل، وهذا من تلطفه تعالى برسوله– صلى الله عليه وسلم؛ إذ لا يكل إليه ما لا يستطيعه، بل ويسري عن فؤاده بعد أن استشعر ضيقه من موقف الكفار وإعراضهم، فيذكره بأنه منذر فحسب وغير محاسب على كفرهم أو إيمانهم.

قالوا أنزل ولم يقولوا أعطي بغية التعجيز فالكنوز في الأرض، والله يبعث الأنبياء بأدلة النظر والاستدلال لا بأدلة الاضطرار، ولم يجعل آية الاضطرار إلا للأمة التي أراد تعذيبها لكفرها، أما الملك فكيف لهم أن يتعرفوا إليه؛ إذ سينزل على هيئة إنسان مثلهم، فالهدف التعجيز

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص ٢٥١، والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج١٧، ص٢٠٠-٢٠٢. وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٥، ص ٢٠٧-٢٠٨ .

[٢] أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٥، ص ٢٥١، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٣، ص ٢٧٤-٢٧٥، والبقاعي، نظم الدرر، ج٩، ص٢٤٥-٢٤٧.

لك، فأنت تؤكد لهم أنك بشر ولست إلها وهم يلحون عليك أن تخالف النـواميس وتـأتيهم بمـا يقترحون، فإياك أن يضيق صدرك فلا تبلغهم شيئا مما أوكل إليك؛ إذ إن الـبلاغ هـو الحجـة عليهم[١].

يتلطف الله تعالى برسوله؛ إذ علم بضيق صدره وعلم بسبب هذا الضيق، فمن حفظه إياه أن حضه على تبليغ الرسالة تذكيرا وتحديدا لمهمته وهي النذارة، ودعوته إياه لترك المبالاة بمن أعرضوا وباستهزائهم به وبالقرآن الكريم، ثم يطمئنه بأنه المتوكل به وبهم بل وبكل شيء، بعد أن أخبره ببعض ما كانوا يقترحون عليه من آيات، كنوز أو ملك مقللا من شأنهم ومن شأن مـا يقترحون، فلم تكن الآيات التي اقترحوها إلا متوافقة مع آمالهم وقيمهم المادية **(كنـز)** أو غيـر موافقة لعقل **(ملك)**.

ثم يجنى التلطف من التراكيب بقوله "لعلك" وهي حرف يفيد الاسـتفهام فـي معـرض النهي، يحمل معنى الرجاء؛ إذ توظف للنهي عن الأمر دون تصريح بفعل من فعل الأمر المنهي عنه، فإذا أردت توضيح أمر لأحد – ولله المثل الأعلى– تجدك تقول له إذا أخفـق: لعلـك لـم تتحضر للأمر جيدا، ورأيك الحقيقي أنه لم يتحضر جيدا للأمر[٢]، ولعلك: للترجي وترجي الأمر يقضي توقعه ولا يلزم وقوعه، وقيل هي للتبعيد[٣] وقيل للإشفاق، فالرسول – صلى الله عليـه وسلم – أهلك نفسه حسرة على كفر قومه وإعراضهم، أما التبعيد فتفسيره أن الرسول– صلى الله عليه وسلم – قد أجهد نفسه في تبليغ الرسالة حتى ظن الكفار أنه سيتركها[٤]، والراجح بين هذه

---

[١] انظر، أبو حيان الأندلسي، المرجع السابق، ج٥، ص ٢٥١، والشعراوي، خواطر حول القـرآن، ج١٠، ص ٦٣٦٣-٦٣٧١.

[٢] الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج١٠، ص ٦٣٦٣-٣٦٧١.

[٣] الألوسي، روح المعاني، ج١٢، ص١٨-٢٠.

[٤] الدرويش، ج١، ص٣٢٤-٣٢٥.

الآراء أنها للتبعيد؛ إذ إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا يليق بمقامه الكريم أن يترك شيئا مما أوحي إليه، كما أنه إن كان تاركا لبعض ما أوحي إليه مما لا يناسب أهواء الكفار فلماذا بعد ذلك ضاق صدره؟

ولعل ناسخة، أما الكاف فضمير متصل في محل نصب اسمها، تارك: خبر لعل مرفوع، وهو اسم فاعل للدلالة على أن الحدث عارض، موقوف على حدث عارض، واسم الفاعل منون عامل نصب مفعول، هو بعض، وبعض الشيء: طائفة منه[١]، مما يوجب الذكر أن كلمة بعض تطلق على جزء الشيء وكله، لتوظف متناسبة مع المعنى المراد فتركك بعض ما أوحي إليك كتركك إياه كله، وهي مضافة إلى نكرة مبهمة، هي (ما) إلا أن ما يوحى إلى النبي – صلى الله عليه وسلم– معلوم ضرورة، ولما كانت الآية الكريمة في سياق الإرشاد للرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– سيق هذا التركيب تلطفا به للتنبيه له من ترك تبليغ بعض ما يوحى إليه، وهذا ما لم يكن من الرسول – صلى الله عليه وسلم – كما تقدم – يوحى: وظفت صيغة المبني للمجهول؛ لأن صاحب الوحي تعالى غني عن أي تعريف، وليس غيره موح لرسله وأنبيائه، إليك:جار ومجرور متعلق بك، إلى: حرف جر يفيد انتهاء الغاية، وانتهاؤها عندك، فالخطاب مخصوص لك، مؤكد على مكانتك؛ فأنت من اصطفاه الله تعالى لتكون انتهاء الغاية عنده.

وضائق: اسم فاعل لتناسب تارك تدل صيغة اسم الفاعل على آنية الأمر وعرضيته؛ لأن رسولنا الكريم عرف عنه البشاشة والحلم وفساحة الصدر، أما ضيق صدره فعارض بعرضية الحدث، وهو خبر مقدم أما التقديم فلمناسبة تارك أولا، ثم للأهمية؛ إذ إن الإرشاد وقع لإزاحة الضيق عن فؤاد الرسول – صلى الله عليه وسلم، به: الباء تفيد السببية، والهاء: عائدة على ما

---

[١] انظر، ابن منظور، مادة بعض.

يوحى إليك.

صدرك: فاعل لاسم الفاعل[١]، والصدر مسكن القلب(٢)، فالله تعالى يستشعر ضيق قلب الرسول – صلى الله عليه وسلم، ويتلطف به؛ إذ علم أن لن يصدر منه مخالفة لأمره تعالى، لكنه لا يريد له الضيق والعنت، فالله تعالى يداوي قلب رسوله ويؤنسه بأنه عالم لكل شيء ويـــذكره بقربه منه وحفظه له.

أن يقولوا: مضارع منصوب، والمضارع دال على استمرارية الحدث، فهم في طلبـــات مستمرة وذلك لتباين أهوائهم واختلافها وتعددها، لولا: حرف تحضيض، والمقصود هلا أنـــزل عليه من الآيات غير هذا القرآن، أنزل: توظيف صيغة المبني للمجهـــول؛ إذ إنهـــم لا يزالـــون منكرون لوجود الله –عز وجل– فهو تعالى مبهم بالنسبة لهم.

عليه: استعلاء لأن النزول من أعلى إلى أسفل، والمقصود تعجيز الرسول – صـــلى الله عليه وسلم – فالكنوز في الأرض ولا تنزل من السماء[٣].

كنز: المال المجموع[٤] هي نائب فاعل، أو حرف عطف يفيد التخيير، جاء معه، تبـــاين في توظيف أشباه الجمل، أنزل عليه، جاء معه، مختلفة باختلاف نائب الفاعل، عليه للكنز، معه للملك، والتباين متناسب مع تباين الأهواء وفي كل الأحوال هم كافرون لذلك يتفنون في عرض المعجزات التي يريدونها شرطا لإيمانهم مع يقين في قلوبهم أنهم لن يصدقوا ولن يؤمنوا.

إنما أنت نذير: إنما للحصر، والجملة اسمية: للتوكيد فأنت يا محمد نذير في كل مرحلة

---

[١] انظر، السمين، الدر المصون، ج٦، ص ٢٩٣–٢٩٤.

[٢] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٩، ص ٢٤٥–٢٤٧.

[٣] الألوسي، روح المعاني، ج١٢، ص ١٨–٢٠.

[٤] انظر، ابن منظور، مادة كنز.

من مراحل الدعوة وفي كل حدث وعارض، والصفة المشبهة نذير: دلالة على الاتصاف الدائم، على عكس تارك وضائق والتي هي اسم فاعل دال على عارض.

الله: مبتدأ، على كل شيء: جار ومجرور، وشبه الجملة دالة على الاستعلاء، كل: تمام الإحاطة، شيء: كلمة مبهمة شاملة واسعة لما علم وما لم يعلم، وكيل: خبر المبتدأ، والجملة اسمية دلالة الثبوت، فالله يتلطف بالرسول – صلى الله عليه وسلم – ويطمئنه أنه متوكل بكل شيء فلا يضيق ولا يحزن، لأنه قد تولى أمر الوكالة بنفسه، وهذا أدعى لرفع الضيق عن صدره.

والتلطف في توظيف "لعلك" فهي حرف ناسخ، وهي للتمني[١]، وهي للترجي، وهو طلب المحبوب المستقرب حصوله، أو للإشفاق، وهو توقع المكروه[٢]، والمعنى الثاني هو المراد، ولعل الله تعالى يشفق على رسوله من أن يضيق صدره بكلام الكفار، فيكره تبليغهم – حاشا أن يكون.

والتلطف في أسلوب التبكيت، والتبكيت: أسلوب بلاغي، وهو الغلبة بالحجة وإلزام الخصم بها وإفحامه[٣]، وله أساليب، منها الجملة الاسمية[٤]، وأسلوب التبكيت الموجه للرسول – صلى الله عليه وسلم– أسلوب يخلو من التعنيف بل فيه ما فيه من الإشفاق والتلطف والتعطف.

والتلطف في توظيف اسم الفاعل، تارك، ضائق، للدلالة على العرضية، وتوظيف الصفة المشبهة، نذير، للدلالة على الديمومة، يقول الزمخشري "عدل عن ضيق إلى ضائق؛ لأنه

---

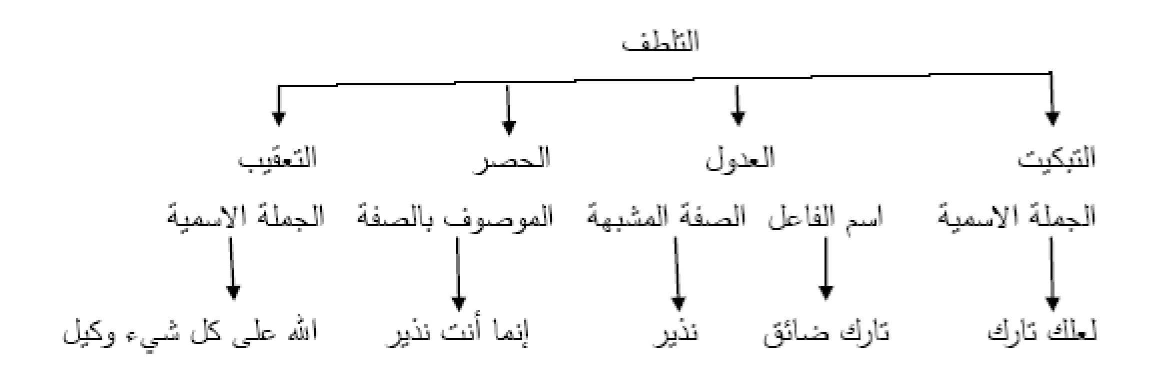
[١] انظر، مغالسة، محمود حسني، النحو الشافي، دار البشير، ط١، س١٩٩١، ص٢٢٩.

[٢] انظر، ابن هشام، شرح قطر الندى وبل الصدى، ص ١٢٠.

[٣] انظر، عباس، أ. م. د، سهام جاسم، التبكيت وأساليبه النحوية، المقدمة، ١١٠. www.iasj.net

[٤] المرجع السابق، ص١٣٧.

عارض"[١] والعدول الميل عن الشيء، وقد يكون من التعديل والإقامة، وهو من صيغة إلى صيغة قصد التوقف والتنبه[٢].



الشاهد الثاني:

الحرف إنّك، ورد في واحد وعشرين موضعا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾المنافقون: ١.

شهادة واطأت قلوبهم بها ألسنتهم، فقال الله تعالى قالوا ذلك وهو يعلم أن الأمر كما هو قولهم، إنك لرسوله، والله يشهد إنهم لكاذبون في قولهم نشهد؛ لأن الشهادة تجري مجرى اليمين، وأصل الشهادة أن يواطئ القلب اللسان هذا بالنطق وهذا بالاعتقاد فكذبهم الله وفضحهم بقوله "والله يشهد إن المنافقين لكاذبون" وجاء بين شهادتهم وتكذيبهم قول الله تعالى "والله يعلم أنك لرسوله" إيذانا من الله أن الأمر كما لفظوا به من كونه رسول الله حقا، إلا أن التوسط لهذه

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٢٥١.

[٢] انظر، فياض، حسن حميد، بحث بعنوان "العدول في السياق القرآني"، جامعة الكوفة، قسم اللغة العربية، ص٥-١٠.

الجملة كان لرفع الإبهام فقولهم حق لكن شهادتهم بألسنهم لا تواطئ باطنهم وهذا هو الكذب[١].

إن الآية تتحدث عن حال المنافقين الذين كانوا يشهدون بألسنتهم أن محمدًا رسول الله؛ إذ إن الإسلام لا يكون إلا بلفظ الشهادتين، لكن الله يكشف أمرهم ويوضحه لرسوله –صلى الله عليه وسلم؛ إذ إن شهادتهم لم تتجاوز حد اللسان ولم تكن إعلانا وتصديقا نابعا من القلب؛ لذلك كذبهم الله وصدق رسوله بقوله "والله يعلم إنك لرسوله" فهذا أمر كائن متحقق سواء شهدوا بـه أم لـم يشهدوا وسواء علموا به أم لم يعلموا.

إن المنافقين هم العريقون في وصف النفاق، وهو إسلام الظاهر وكفر الباطن وأغلـبهم من اليهود، قالوا: مؤكدين لأجل استشعارهم لتكذيب من يسمعهم لما عندهم من الارتياب، نشهد: أي نقسم، إنك لرسول الله، فوافقوا الحق بظاهر أحوالهم وخالفوه بقلوبهم وأفعـالهم، والشـهادة تكون بإخبار اليقين فصدق الله المشهود به وكذبهم في الإقسام بالشهادة ومواطأة قلوبهم ألسنتهم، فصدقهم الله في الأول وكذبهم في الثاني فصاروا بنفاقهم أسفل حالا من اليهود[٢].

إن التكذيب إنما كان لقولهم الذي قالوه غير مصدقين به، ولم يكن الأمر مسلمًا به وهـو أن محمدا رسول الله، ومن دقة النظم القرآني أن جيء بجملة لترفع التوهم واللبس قبل حدوثـه، بل ولتؤكد صدق رسول الله بشهادة من الله على ذلك.

التعبير في هذه الآية دقيق به احتياط، فإن الله يبادر إلى تثبيت الرسالة قبل تكذيب مقالة

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص٤٥٧، الفخرالرازي، التفسير الكبير ومفاتيح لغيب، ج٣٠، ص١٢، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص ٢٦٧، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٥، ص ٤٣٤، والبقاعي، نظم الدرر، ج٢٢، ص٧٤–٧٦، والألوسي، روح المعاني، ج٢٨، ص١٠٨–١٠٩.

[٢] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٢٢، ص٧٤–٧٦.

المنافقين[١].

قيل في تفسير هذه الآية: إنها نزلت في عبدالله بن أبي وأصحابه؛ إذ قالوا ليخرجن الأعز منها الأذل، وعندما سألهم الرسول – صلى الله عليه وسلم- أنكروا وشهدوا عكس ذلك، فنزلت الآية الكريمة لتدل على كذبهم ولتفضح أمرهم[٢].

مما تقدم تخلص الباحثة أن التلطف في هذه الآية يجنى من جانبين، أولهما: فضح أمر المنافقين للرسول – صلى الله عليه وسلم؛ ليحذر منهم من جهة وليتعرف من معه من رجال، غثهم من سمينهم من أخرى، وثانيهما: في شهادة الله تعالى لرسوله –صلى الله عليه وسلم- أنه رسوله، وهو صاحب العلم الكامل التام الغيب والعلن، فأيّ شهادة تساوي شهادة الله تعالى لرسوله- صلى الله عليه وسلم؟

ولأن المعاني تحمل على مفردات وتراكيب، فقد ظهرت معاني التلطف بـ:

إذا: شرطية ظرفية لما يستقبل من الزمان[٣] في هذا استباق لما سيكون من الأحداث، ربما يود الله تعالى إنباء رسوله بأمرهم قبل مجيئهم تحذيرا وتنبيها له، وهذا من تلطفه تعالى برسوله – صلى الله عليه وسلم؛ إذ ينبئه بأمرهم قبل مجيئهم.

جاءك: الصياغة بالماضي والمعنى الاستقبال، استدلالا بـ(إذا)، قيل: إن جعل المتوقع الذي لابد من وقوعه بمنزلة الواقع، تنبيها على تحقق وقوعه وإنه للواقع كالواقع[٤]، والكاف: مفعول به مقدم؛ إذ إن المقصود سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وهو الأعلى شأنا فاستحق

---

[١] انظر، قطب، في ظلال القرآن، ج٨، ص ١٠٦-١٠٧.

[٢] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٢٨، ص١٠٨-١٠٩، والسيوطي، ج١٤، ص٤٩١-٤٩٥.

[٣] انظر، الدرويش، ج١٠، ص ٩٦.

[٤] انظر، الصعيدي، بغية الإيضاح، ج١، ص ١٦٢.

أن يكون الأسبق ذكرا، المنافقون: فاعل مؤخر تأخير تقليل وتحقير،تحقير لهم من جهة، وتأخير وتحقير لموضوعهم من أخرى، فالهدف ليس وصفهم بل الهدف تحذير الرسول – صلى الله عليه وسلم– منهم.

قالوا: جواب الشرط، وتوظيف الفعل قالوا، سخرية منهم، ودلالة أن المسألة عندهم قول لا أكثر؛ لذلك لم يقل شهدوا، لأن الشهادة بمعناها لا تتوافق مع حالهم، فقد قالوا ولم يشهدوا.

نشهد إنك لرسول الله: المضارع وإن واسمها وخبرها، جملة مقولة القول[١]، فهذا ما قالوه ونطقوا به؛ إذ إن شرط الإيمان النطق بالشهادتين، التأكيد بأن واللام لازم فائدة الخبر فهذا يدل على ادعائهم المواطأة، وإن كانت في ذاتها حق[٢]، فهم يسوقون المؤكدات: نشهد أي نقسم، ثم إن، ثم لام الابتداء؛ ذلك حتى يدفعوا عن أنفسهم التهمة بالتكذيب، لكن الله كاشفهم بالرغم من قسمهم ومؤكداتهم.

والله يعلم إنك لرسوله: الواو للاعتراض والجملة معترضة لإزالة الإبهام[٣]، الله: لفظ الجلالة مبتدأ، يعلم: مضارع مستمر، خبر للمبتدأ، والمضارعة ديمومة واستمرار، والفاعل: مستتر عائد على لفظ الجلالة، فعلم الله بأمرك دائم، إنك لرسوله، ثم تساق المؤكدات: إن ولام الابتداء، هذه المؤكدات جعلها الله شرطا للإيمان، فالنطق بالشهادتين بصيغتهما أول ركن من أركان الإيمان، وهذا من تلطف الله تعالى بالرسول – صلى الله عليه وسلم – بأن جعل شرط الإيمان إيماناً مقروناً بشهادة تنص اعترافا بأن "لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله" فالله تعالى جعل شرط قبول الإيمان به إيماناً بالرسول – صلى الله عليه وسلم– ومن شهد بواحدة دون

---

(١) انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج١٠، ص٩٦.
(٢) انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٢٨، ص١٠٨–١٠٩.
(٣) انظر، السمين، ج١٠، ص ٣٣٥–٣٣٦.

الأخرى فقد رد عليه إيمانه، أما موقع هذه الجملة فأمر يعترض حدوث التوهم -كما تقدم-.

والله يشهد: جملة اسمية وهذا النوع من التتميم لطيف المسلك[١]، فكما أن الله يعلم إنك لرسوله، يشهد إنهم لكاذبون، لكن شهادة الله تعالى تختلف عن شهادة المنافقين، فشهادة الله تعالى عليهم بالكذب، شهادة تحذير وفضح وكشف بما علم من أمرهم وخفي على نبيه، أما شهادتهم فنطق قد كذبه الله لأنه لم يوافق اعتقاد قلوبهم، فقد نطقوا بما لا يعتقدون به ولا يصدقونه وإن كان حقا، الله: مبتدأ، يشهد: جملة فعلية، في محل رفع خبر، إن: مؤكد، المنافقين:اسم إن، ولام الابتداء المقترنة بخبر إن، كاذبون: خبر إن مرفوع.

الجمل الاسمية متساوية في الوزن وهذا من دقة النظم القرآني، إنك لرسول الله، إنك لرسوله، إن المنافقين لكاذبون، ثلاث جمل اسمية متساوية وزنا، لتدل على الثبات من جهة ولتحكم الرد فلكل جزء موجود، جزء للرد عليه، وأما أن هذه الجمل الثلاث جاءت مؤكدة فلكل واحدة هدف فالأولى: ليدفع المنافقون الشبهة عن أنفسهم، والثانية: شهادة من الله على صدق الرسول – صلى الله عليه وسلم – تؤكد الخبر، والثالثة: شهادة مساوية من الله على كذبهم، أما جملة "الله يعلم": ففي سياق حديث الله عن نفسه وهذا ما لا يحتاج إلى توكيد.

والتلطف باد من الجملة المعترضة، وهي التي تعترض بين شيئين متلازمين[٢] وفي هذا الاعتراض إصابة لهدف هو رفع الإيهام، عن أن يكون التكذيب للرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم، وفيها ما يسمى بالتتميم. التتميم: هو تقييد الكلام بفضلة قصد المبالغة، أو للصيانة

---

[١] الألوسي، روح المعاني، ج٢٨، ص ١٠٨-١٠٩.

[٢] انظر، مغالسة، النحو الشافي، ص٥٤٨-٥٤٩.

عن وقوع خطأ، أو لتقويم الوزن[١].

وهو عند صاحب المصباح ضربان، أولهما: تتميم المعاني، ويقول بهذا المعنى بالقول السابق، والثاني: تتميم الألفاظ، حشو: وهو ما يقوم به الوزن ولا يحتاج إليه المعنى[٢]. وسماه آخر "التمام": وهو الإتيان في الكلام نظما كان أو نثرا بكلمة أو جملة إذا خرجت منه نقص حسنه ومعناه، مثل قوله تعالى ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾الإنسان: ٨ الضمير في حبه للطعام على حبه والاحتياج إليه، فإن الإطعام أبلغ، ولو طرح نقص واختل حسن التركيب[٣]. وسماه آخر "الاعتراض": وهو من محاسن الكلام، في الشعر والنثر، وهو أن يعترض المتحدث بكلامه كلاما آخر قبل أن يتمم المعنى، ثم يعود إلى إتمامه[٤].

في ظل ما سبق إن للتلطف أسلوبًا جديدًا وهو التتميم، وقد ظهر في الآية الكريمة غرض الصون من الخطأ.

وفي الآية وجود لمؤكدات، وتخريج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر، فالله يعلم أن الرسول – صلى الله عليه وسلم– رسوله لكنه يسوق المؤكدات للمنكرين عليه أن يكون رسولا لله، فقد أنزلهم منزلة المنكرين على شهادتهم اللسانية فقط أنه رسول الله، هذا الخروج ما هو إلا تحقير لهم بتكذيبهم فهم منكرون للرسالة، وهو تلطف بالرسول – صلى الله عليه وسلم – ليعلم

---

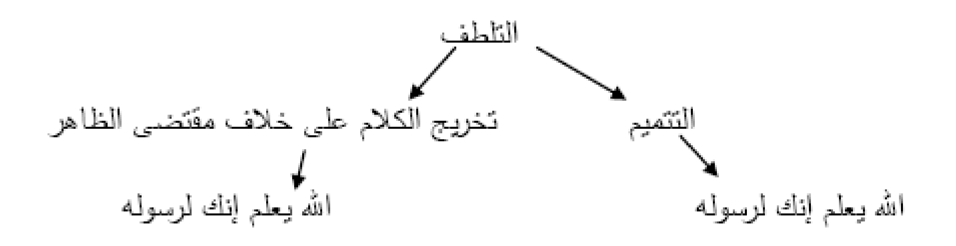
[١] انظر، العلوي، الطراز، ج٣، ص ١٠٤–١٠٥.

[٢] انظر، ابن الناظر، بدر الدين بن مالك، المصباح في المعاني والبيان والبديع، حققه وشرحه ووضع فهارسه: حسين عبد الجليل يوسف، مصر، مكتبة الآداب، د.ط، د.س، ص٢١٠–٢١١.

[٣] ابن معصوم، السيد علي صدر الدين المدني (ت ١١٢٠هـ) أنوار الربيع في انواع البديع، حققه وترجم لشعراءه: شاكر هادي شكر، العراق، مكتبة العرفان، ط١، د.س، ج٣، ص ٥٢.

[٤] ابن المعتز، عبد الله، أبو العباس (ت ٣٩٩هـ) البديع، حققه وشرحه: عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، س ٢٠١٢م، ص ١٠٨.

مدى كفرهم ونفاقهم، فهم أبعد ما يكون من التصديق والإيمان.



كاف الخطاب المتصلة بالظروف وبالحروف.

الشاهد الأول:

الظرف "حولك"، وقد ورد في موضع واحد.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾آل عمران: ١٥٩

والفظّ: خشن الكلام[١]، والمقصود سيء الخلق، أما الغليظ: فهو الشديد[٢] والمقصود الذي لا يرق قلبه ولا يتأثر بشيء، والمقصود من البعثة تبليغ الدعوة، وهذا المقصود لن يتم إلا إذا مالت قلوب الناس إليك ولن يتم لك هذا إلا إذا كنت رحيما كريما تتجاوز وتعفو، فاعف عنهم واستغفرلهم وشاورهم في الأمر، ومن كمال الرحمة الإلهية أن عفا عنهم ثم أمر رسوله بالعفو عنهم، ثم أمر بمشاورتهم إعلاء من شأنهم وتأكيدا لصفاء قلبه تجاههم، "فإذا عزمت فتوكل على الله": المقصود إذا حصل الرأي المتأكد بالمشورة فلا يجب أن يقع الاعتماد عليه بل الاعتماد

---

[١] انظر، ابن منظور، مادة فظظ.

[٢] انظر، المرجع السابق، مادة غلظ.

على إعانة الله وتسديده[١].

إن الرسول – صلى الله عليه وسلم– إنما استقبل تصرفات المسلمين باللين والرفق من أدب أدبه به ربه؛ إذ اصطفاه ليكون المحتمل لمشاق الرسالة، لما علم أن سيكون منهم المخطئ والغافل، فوضع به من السجايا والأخلاق ما يناسب قدر هذه المهمة، وهذا من لطف الله به؛ إذ حباه بصفات كانت له ولم تكن لغيره.

والأمر بالعفو واجب على الرسول وللناس ندبة[٢]، والرحمة: رباطة الجأش وتوفيقه للرفق بهم[٣]، بل حتى واساهم بما أصابهم من غم، لمخالفتهم أمره وانهزامهم وتفرقهم عنه، بل أمر بالعفو عنهم، هذه فيما يختص بأمره، ثم أمر بالاستغفار لهم، وهذه فيما يختص بحق الله، وإتماما للشفقة عليهم أمره بمشاورتهم في أمور الحرب أو فيما لم ينزل عليه به وحي، وليس للرسول – صلى الله عليه وسلم– في مشورتهم حاجة وإنما لتكون سنة[٤]، زاد أبو حيان: إن ثمرة اللين الإجماع والمحبة، وخلافها من الجفوة والخشونة مؤد إلى التفرقة، والمعنى أن لو شافههم لتفرقوا من حوله مهابة وحياء، وهذا سبب للتفرق في هذا الدين، والعفو يكون فيما لم يفض إلى حق من حقوق الله[٥]، وفي هذا التدرج حكمة، معالجة النفس بالعفو، ثم سلوك متعلق بجنب الله تعالى هو الاستغفار، وسلوك متعلق بأمور المجتمع وهو المشورة في أمور الحرب[٦].

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج١، ص ٣٩٣-٣٩٤، والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٩، ص٦٢-٧٠، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٣، ص١٠٣-١٠٥.

[٢] انظر، الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج٩، ٦٠-٧٠.

[٣] انظر، ابن منظور، مادة رحم.

[٤] الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٣٩٣-٣٩٤، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٣، ص١٠٣-١٠٥، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٢، ص١٣١-١٣٣، البقاعي، نظم الدرر، ج٥، ص١٠٦-١٠٩.

[٥] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٣، ص ١٠٣-١٠٥.

[٦] انظر، أبو حيان الأندلسي، المرجع السابق، ج٣، ص١٠٣-١٠٥ والسيوطي، الدر المنثور، ج٤، =

خص الله تعالى نبيه الكريم – عليه الصلاة والسلام– بأداة يستميل بها قلوب الناس، فيدخلهم بها في دين الله ويبلغهم الرسالة التي هي قصد بعثته، هذه الأداة هي رحمة في قلبه تلين جانبه مع الناس، هذه الرحمة العظيمة جعلته يعفو عن المسلمين الذين خالفوا أمره، بل بمخالفتهم أمره تسببوا في هزيمة المسلمين في أحد، ولو أن النبي – صلى الله عليه وسلم– كان فظا في قوله معهم أو لاقاهم بملامة لتفرقوا عنه بعد اجتماعهم على كلمته، ثم امتدح الله تعالى نبيه؛ إذ عفا عن المسلمين، ولأنه علم صدق إيمانهم أمر نبيه أمر وجوب بالعفو عنهم لأنه تعالى قد عفا عنهم، بل وأمره بالاستغفار لهم ومشاورتهم حتى تطمئن نفوسهم بتحقق العفو عنهم من الله ونبيه، والشورى مبدأ من مبادئ الإسلام ثابت، فإذا اتضحت الرؤية لما فيه خير لك وللمسلمين، فليكن توكلك على الله؛ إذ إنه يحب المتوكلين عليه.

شرح الشعراوي ظروف المخالفة، فقد كانت في تخلف ابن أبيّ بثلث الجيش، ثم كانت في نزول الرماة عن الجبل وقد أمروا بالبقاء، ثم كانت بتولي الناس وفرارهم بعد أن أشيع خبر مقتل الرسول – صلى الله عليه وسلم– فتركوه مع نفر قليل من المسلمين فجرح وناله ما ناله من الأذى، فوقع ذلك في نفسه أن تخلوا عنه، فأمره الله بالعفو عنهم؛ إذ ألفوا منه العفو والرفق واللين، والعفو: التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه والأمر بمحو الذنب من نفسك أولا، وليس هو ككظم الغيظ، فالكظم: كف الجوارح مع بقاء المسألة في النفس، ثم أمره بالاستغفار لهم لئلا يعذبهم الله بما بدر منهم في حقك، ويأمره بمشورتهم تأكيدا لمبدأ الشورى، رغم أن معركة أحد كانت بعد مشورة وقد خسروا، فالله يأمره باستمرارية الشورى حتى بعد الخسارة تأكيدا لهذا المبدأ، كما يأمره بالتوكل عليه بعد الأخذ بالأسباب، لما بالتوكل من إظهار للعجز والحاجة إلى

=ص ١٠٦-١٠٩.

الله بعد أن تستنفد جميع أسبابك[١] .

صنيع المسلمين قد أصاب نفس الرسول – صلى الله عليه وسلم؛ إذ أدى إلى خسارة المسلمين من جهة، وشعر بتخليهم عنه من أخرى، فأراد الله أن يتلطف برسوله – صلى الله عليه وسلم– فبدأ بتذكير رسوله ببعض صفاته الكريمة، التي بها نال مكانته العظيمة، بل ويمتدحه بحسن خلقه، فأي رحمة بك أوجدت حتى تلين لهم؟ ثم تدرج الله في أمر نبيه بالعفو أولا لمعالجة النفس، ثم أمره بالاستغفار لهم حتى لا يعذبهم الله بمخالفتم إياه –ولو لم يستغفر لهم لعذبهم– فأمر بذلك بعد أن علم الله بندمهم وصدق إيمانهم، ثم أمر بمشاورتهم، هذا تصرف وسلوك ظاهر ليعلن عفوه وعفو الله عنهم.

أما التلطف في الخطاب فيجنى من قوله "فبم رحمة"، أما الفاء فللترتيب، وما: نكرة سيقت للإبهام والتعظيم، وظفت رحمة منكرة، والشيء إذا نكر عظم[٢]، وقيل: ما مزيدة للتأكيد، أو استفهام بمعنى التعجب[٣]، قيل: الاستفهام بما يفيد التعجب والتعظيم[٤]، لتفيد أن الرحمة في قلب الرسول – صلى الله عليه وسلم– لا حدود لها، فأي رحمة تلك التي في قلبك حتى تتمكن من العفو عن كل هذه المخالفات، لنت: سهلت أخلاقك وكثر احتمالك، ولنت، لا تعني أنك لم تكن لينا بل تعني لينك لهم في هذا الموضع، لهم: ولم يقل عليهم؛ إذ إن الرسول لم يكن مستعليا يوما، فما هو بملك، ولا حاكم، بل نبي رسول بعث منهم؛ ليكون فيهم، ولأجلهم، لينجيهم من ظلمات

---

[١] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج٣، ص ١٨٣٥-١٨٤٢.

[٢] انظر، المرجع السابق، ج٣، ص ١٨٣٥-١٨٤٢.

[٣] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٤، ص ١٠٦-١٠٨، والسمين، الدر المصون، ج٣، ص٤٦٠-٤٦٤.

[٤] انظر، البلخي، محمد إبراهيم محمد شريف، أساليب الاستفهام في البحث البلاغي وأسرارها في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه، إشراف: د. محمد عبد السلام أحمد شرف الدين، الجامعة الإسلامية العالمية، الباكستان– إسلام آباد، س٢٠٠٧، ص ٣١٤.

الكفر ويخرجهم إلى الحق والنور.

والاستفهام الوارد في القرآن الكريم من الله تعالى لا يمكن أن يكون طلبـا للإفهـام أو الإخبار، فهو إما نقلا على كلام البشر، أو خارجا لمعان أخرى[١]، ومن التلطف والمدح للرسول – صلى الله عليه وسلم– أن الأخلاق التي خص بها هي سبب رباطة الجأش عنده؛ لأن من ملك نفسه عند الغضب كامل الشجاعة، فهو شجاع لين[٢]، صفتان لا تجتمعان إلا بعظيم خلـق، لـو كنت فظا غليظ القلب: لو حرف امتناع لامتناع، وهذه من التلطف بالرسول – صلى الله عليـه وسلم، فما كان الرسول – صلى الله عليه وسلم– فظا ولا غليظ القلب، بل هو أفسح الخلق صدرًا وأكثر الناس صفحًا وأرق العالمين طبعًا، فعندما امتنعت عنه هذه الصفات غير المحمودة، امتنع تفرقهم وانفضاضهم عنه، فالله يمتدح نبيه؛ إذ جمعهم حول كلمته بالرحمة واللين، كنت: مـاض دال على حدثية مخصوصة، والتاء ضمير متصل هي اسمها، والمخاطب هو الرسول – صـلى الله عليه وسلم.

أما الترتيب فلتدرج مقصود؛ إذ إن الفظاظة أمر ملموس ظاهر أما غلظة القلـب فـأمر باطن وهو مسبب للفظاظة في القول[٣]، فظا: صفة مشبهة، هي خبر لكان، غليظ: صفة مشبهة، هي خبر ثان لكان وهي مضافة إلى القلب؛ إذ إن الغلظة تكون في القلب، لانفضوا: اللام واقعة في جواب الشرط، بعدها فعل وفاعل، جواب الشرط حصيلة كونك فظا غليظ القلب، ولم تكـن بالرسول – صلى الله عليه وسلم – هذه الصفات؛ لذلك فهم مجتمعون حوله لـم يتفرقـوا عـن

---

[١] انظر، الخالدي، كريم حسين ناصح، نظرية المعنى في الدراسات النحوية، مكتبة المجمع العربي، عمان، دار صفاء، ط١، س٢٠٠٦م، ص ٤٠٢.

[٢] انظر، الألوسي، ج٤، ص ١٠٦–١٠٨، والسمين، ج٣، ص٤٦٠–٤٦٤.

[٣] انظر، الألوسي، المرجع السابق، ج٤، ص ١٠٦–١٠٨، وأبـو حيـان الأندلسـي، البحـر المحـيط، ج٣، ص١٠٣–١٠٥.

كلمته، من حولك، من: جار يفيد ابتداء الغاية المكانية، حولك:أي محيطون بك مجتمعون على رأيك ومحبتك، وهذا حالهم، ثم تتالت أفعال الأمر، فالله يحب من نبيه -عليه الصلاة والسلام- ذي الدرجة الرفيعة أن يعفو، بأن يتجاوز ويترك العقوبة مبتدءا بالنفس، أما العفو فمسح ومحو من الخاطر والنفس[١]، والفاء تفيد الترتيب والتعقيب،أي اجعل عفوك عقب صنيعهم ولا تؤخره حتى لا تتفرقوا، واستغفر: عطف يراعي التدرج وظفت الواو للدلالة على المشاركة، فلا يكفي صفحك بل واستغفر الله لهم لئلا يعذبوا بمخالفتهم إياك، ولو لم تتحقق الأولى ما تحققت الثانية، واوقع عليهم العذاب بهذه المخالفة؛ فالله يراعي حق رسوله -صلى الله عليه وسلم- ويتلطف به فيعالج منه النفس قبل السلوك، أما الترتيب فظاهر في قوله تعالى: وشاورهم، أي استمر بمشاورتهم في الأمور التي لم ينزل بها وحي، وسوق هذه الأفعال الثلاثة تعالج الأحوال كلها، أما في حق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فالعفو، وأما في حق الله تعالى فالاستغفار، وأما في حق المسلمين فتأديبهم وتربيتهم بتثبيت مبدأ الشورى، وتعليمهم اللين والرحمة والعفو، بل حتى إنها عالجت جانب المخالفين فمشورتهم إعلاء من شأنهم، وإيصال رسالة طمأنينة إلى قلوبهم، أن الله تعالى ورسوله -صلى الله عليه وسلم- قد عفوا عنكم، ثم يكمل الله تعالى تعليم نبيه -عليه الصلاة والسلام- "فإذا عزمت": إذا لما يستقبل من الزمان، عزمت: أخذت القرار وقطعته بعد التشاور، توكل على الله.

ذكر الظاهر مكان الضمير له مقصدية، فقوله تعالى "توكل على الله" ولم يقل توكل علي، إنما كان قصد تقوية داعي الرسول - صلى الله عليه وسلم، يقول الصعيدي: إن العدول إلى

---

[١] انظر، ابن منظور، مادة عفو.

الظاهر عن الضمير يكون لتقوية داعي المأمور[١].

أي اجعل توكلك لا على رأيك ومشورتك بل على توفيق الله[٢] وهنا خطاب للرسول – صلى الله عليه وسلم– على الالتفات[٣]، وقد قدم المشورة على التوكل لأن التوكل لا يعني التواكل[٤]، وهنا أيضا ترتيب بلاغي مقصود فإن التوكل لا يأتي إلا بعد الأخذ بالأسباب، والشورى هي أخذ بالأسباب، إن الله يحب المتوكلين: جملة اسمية مؤكدة لتؤكد حب الله ونصرته لمن توكل عليه، ومن لا يريد محبة الله ونصرته؟هذه الجملة سيقت لتحبب للناس التوكل على الله، وقيل: هي تعليلية[٥].

تعرض الآيات أسلوبا جديدا للتلطف ينضاف إلى سائر الأساليب، وهو التلطف بالتكميل، والتكميل: هو أن يأتي المتكلم بمعنى تام في فن من الفنون فيرى الاقتصار عليه ناقصا فيكمله بمعنى آخر في غير ذلك الفضل الذي أتى به أولا، كمن مدح إنسانا بالحلم فيرى الاقتصار عليه دون مدحه بالبأس ناقصا فيكمله بذكره[٦] والتكميل: هو أن يؤتى بكلام في فن فيرى ناقصا فيتمم بكلام آخر، منه قوله قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ المائدة: ٥٤.

وهو عند العسكري الإطناب، فيقول "والإطناب إذا لم يكن منه بد إيجاز، وهو في المواعظ خاصة محمود[٧]، وهو ظاهر بالآية الكريمة إذ يفصل الله في أخلاق الرسول – صلى

---

[١] انظر، الصعيدي، بغية الإيضاح، ج١، ص١٥٠.

[٢] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٤، ص١٠٦–١٠٨، والشعراوي، خواطر حول القرآن، ج٣، ص٤٦٠–٤٦٤.

[٣] انظر، السمين، الدر المصون، ج٣، ص٤٦٠–٤٦٤.

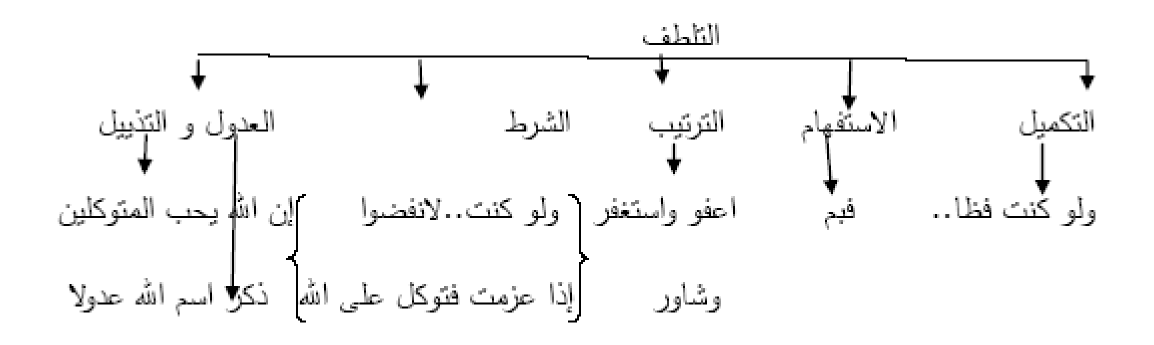
[٤] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٢، ص٨٨.

[٥] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٢، ص٨٨.

[٦] المدني، أنوار الربيع، ج٥، ص ١٨٥.

[٧] أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص ١٩٢.

الله عليه وسلم، فيتعجب من رحمته بمن خالفه، ثم يكمل ويطنب في تفسير هذه الصفات بأنه رقيق القلب حسن المعاملة، ولو كان غير ذلك لما اجتمعوا حوله، وإن الناس مجتمعون حوله ليس فقط في زمانه فكل من سمع بخلقه اهتدى بهديه، فكم من كتابي وكم من كافر، أسلم واهتدى، وكان سبب هدايته أخلاق الرسول- صلى الله عليه وسلم.



الشاهد الثاني:

الحرف عليك، ورد في ستة وثلاثين موضعا

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾طه: ١ – ٢.

طه: أصلها طأ، لما روي عن الرسول – صلى الله عليه وسلم- أنه كان يتهجد على رجل واحدة، فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معا، والأصل طأ، وقلبت الهمزة هاء، وتفسيرها الثاني أنها بمعنى رجل، في لغة عك، وتفسيرها الثالث أنها تعداد أسماء حروف، ورابع تفاسيرها أنها اسم للسورة، والمقصود لم ننزل عليك القرآن لتتعب بفرط تأسفك على الكافرين وعلى كفرهم، أما الشقاء فهو التعب، وأنت عليك التبليغ ولم يكتب عليك أن يؤمنوا، وقيل إن أبا جهل قال له: قد شقيت بترك دين آبائك، وقيل إنه تهجد حتى اسمغدّت قدماه، فقال له جبريل: أبق على نفسك

فما أنزلناه عليك لتهلك نفسك، بل هو تذكرة[١].

إن طه، من الحروف المقطعة التي كثر الخوض في تفاسيرها، والراجح في تفسيرها التفسير الثالث؛ إذ إنه يتناسب مع الآية الكريمة اللاحقة، فما كان القرآن إلا طريق سعادة وهداية، بل هو منهج وسبيل تصل به إلى الإيمان الذي هو سعادة الدنيا، ومفتاح جنة الآخرة.

يرجح الشعراوي – مستندا إلى قراءة القراء– أن طه: اسم من أسماء الرسول؛ إذ إنها لو كانت حروفا مقطعة لنطقت وفق تقطيعها طاء، هاء؛ ذلك أن القرآن مبني على الوصل إلا في الحروف المقطعة وهذا من إعجازه، ثم يربط المفسر الآية الكريمة بمنهج حياتي هو الربط بين الغاية والوسيلة، فالوسيلة منهج رباني شاق والغاية هي الجنة، أما المؤمن فيربط بين الوسيلة والغاية بل يفرح بالوسيلة التي توصله إلى الجنة، أما الكافر فيفصل الغاية عن الوسيلة، ويرى في منهج الله مشقة وتعبا؛ لذلك اتخذ الكفار آلهة لهم من حجارة لا مطالب لها ولا تكاليف، يعبدونها على هواهم[٢].

معنى الشقاء المذكور في الآية الكريمة، لا يكون للمؤمن، بل الشقاء بالقرآن وبالمنهج الذي جاء به إنما يكون للكافر، أما المؤمن فيجد به سعادته؛ إذ إنه قد وجد الوسيلة التي توصله لغاية الغايات، ألا وهي الجنة.

أما تلطف الله تعالى فيجنى من حفظه نبيه الكريم؛ إذ يذكره بسبب إنزال القرآن الكريم عليه فقد أنزل عليه ليكون سعادة له وللناس وليكون تذكرة لهم وما عليك إلا تبليغه، أما الرسول

---

[١] انظر، الزمخشري، ج٣، ص٥٤٥-٥٤٦، والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٢، ص٢-٤، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٦، ص٢١١-٢١٣، السيوطي، الدر المنثور، ج١٠، ص١٥٣-١٥٨، الألوسي، روح المعاني، ج١٦، ص ١٤٣-١٥٠.

[٢] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج١٥، ص٩٢٠٩-٩٢١٥.

– صلى الله عليه وسلم – فقد كان يشقيه إعراض الناس وعدم دخولهم في دين الله؛ والسبب في ذلك حرص النبي – صلى الله عليه وسلم– على إبلاغ الناس وهدايتهم.

أما التلطف في الخطاب والتراكيب فيجنى من مناداة الله تعالى نبيه بأسماء خاصة – إن كان المقصود هو تسمية للرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– طه، وقد حـذفت أداة النـداء لقربه من الله ومكانته عنده، فحذفت الأداة إشارة إلى قربه وإعلاء من شأنه.

وقد تكون قسما وجوابه جملة ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى[١]، أي أن الله يقسم بنبيه ولا يقسم الله تعالى إلا بعظيم. ما أنزلنا: ما نافية، أنزلنا: الفعل الماضي يـدل علـى تمـام الأمـر وانقضائه، والقرآن لا يزال ينزل على الرسول – صلى الله عليه وسلم، فلماذا وظفـت صـيغة الماضي المنفي؟ أما النفي فهو لنفي الشقاء عن سببية نزول القرآن على الرسول – صـلى الله عليه وسلم، وأما الماضي لأن نفي الشقاء كائن واقع على ما نزل عليك من القرآن وعلـى مـا سينزل، فالقرآن ما نزل منه وما سينزل لن يكون شقاء لك، بل سعادة وخيـرا، وهـذا الواقـع الحتمي حكمه كحكم الماضي الذي تم وانتهى؛ ولهذا كان التصريف ماضـيا لا مضـارعا ولا أمرا، بل ربما لو كان مضارعا، ننزل عليك القرآن لكان المعنى عن آية مخصوصة واحدة، نا: ضمير الفاعل وهو الله تعالى، صيغة الجمع تعظيم للمنزل والمنزَل .

عليك: الجار والمجرور متعلقان بأنزلنا[٢]، أما على فتفيد الاستعلاء، والكاف في محـل جر، وتعود على الرسول – صلى الله عليه وسلم – ضمير مخصوص فقد أنزل القرآن عليـك ولم ينزل على غيرك، فلو قيل: ما أنزلنا القرآن لتشقى، لأفادت أن القرآن نزل على الرسول –

---

[١] انظر، السمين، الدر المصون، ج٨، ص٥–٧.

[٢] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٦، ص ١٦٣.

صلى الله عليه وسلم – وعلى غيره، أما بوجود شبه الجملة، عليك: أفادت التخصيص بأنه لـم ينزل إلا عليك.

القرآن: مفعول به تأخر ذكره، فقد ذكر بعد فعل وفاعل وشبه جملة (أنزلنا عليك القرآن) قد تأخر لأن المقصدية من الخطاب هي رسول الله الكريم ولم يكن القرآن مقصودا بالحديث، فلو قيل: ما أنزلنا القرآن عليك لكان القرآن هو المقصود من الخطاب، بل لتضمنت معنـى انتفـاء نزول القرآن عليه وهذا معنى بعيد مرفوض، فالتأخير للقرآن تأخير للقصد من الآيـة والتقـديم للرسول – صلى الله عليه وسلم– تقديم للقصد من الآية، وهو التخفيف عن الرسول وعدم إهلاكه نفسه سواء بالعبادات أو بتبليغ الدعوة.

لتشقى، قيل: عدي باللام لاختلاف الفاعل[١]، واللام لام تعليل ناصبة، والعلـة منفيـة، فليس إنزال القرآن لشقائك، والفعل مضارع منصوب، وظفت صيغة المضـارع لتـدل علـى الاستمرارية، فأنت لا زلت في مرحلة التبليغ ولا يزال عليك الكثير فلا تشقى بمن كفـر ومـن سيكفر، ومما يذكر أن هذه السورة الكريمة سورة مكية، أي أنها أنزلت في المرحلة الأولى مـن الدعوة، فلا تجعل من كفرهم وإعراضهم سببا في شقائك، فما عليك إلا التبليغ والفاعل تقـديره أنت، ظهر الفاعل بضمير المتكلمين، أنزلنا لأن الفاعل هوالله تعالى، واستتر الفاعل في لتشقى: لأن الفاعل هو رسول الله، وقد ذكر سابقا في قوله، عليك: لهذا استتر.

التلطف في الحذف باد، فحذف أداة النداء للقرب المعنوي، وقيـل: حـذف أداة النـداء للتعظيم[٢]، وهو في التقديم والتأخير، تقديم ذكر الرسول – صلى الله عليه وسلم– علـى ذكـر

---

[١] انظر، السمين، الدر المصون، ج٨، ص ٥-٧.

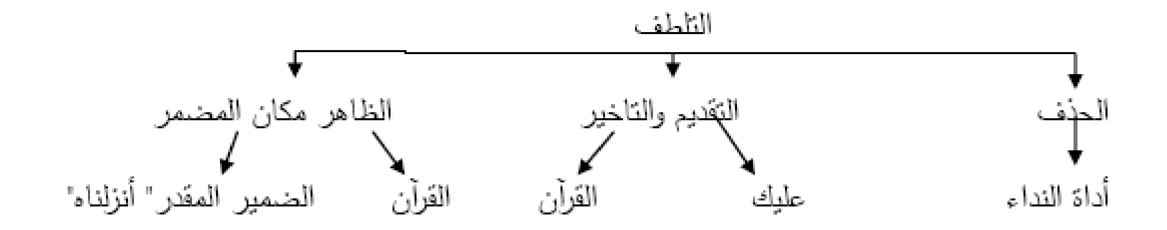
[٢] انظر، أبو شادي، الحذف البلاغي، ص١٠٥.

القرآن؛ لأنه مقصد الحديث وهدفه، فقوله "ما أنزلنا عليك القرآن" مختلف بالقصد والهدف، فلو قيل: ما أنزلنا القرآن عليك، لاختلف المعنى، ففي الأخيرة معنى الإنزال عامة على الأرض والخليقة، أما الأول وهو الأبلغ، فيقصد إلى تخصيص الإنزال على الرسول – صلى الله عليه وسلم– فهو المعني بالكلام ألاّ يشقى، لا إنزال القرآن الكريم عامة.

قيل: "إن التقديم والتأخير على قسمين، الأول: تقديم على نية التأخير مثل تقديم المفعول على الفاعل، والخبر على المبتدأ، والثاني: تقديم ما ليس على نية التأخير"[١]، والأول هو القسم الوارد، إذ إن الجار والمجرور تقدما على المفعول للتخصيص.

يقول الزركشي "تقدم الجار والمجرور ليؤذن بالاختصاص"[٢].

ومنه ورود الظاهر مكان الضمير، طه، قرآن، واسم للسورة، ثم قال "ما أنزلنا عليك القرآن" القرآن، ولم يقل أنزلناه عليك[٣]. والغرض من إنزال المظهر مكان الضمير لزيادة التمكين[٤]، أي أنه تعالى أورد ذكر القرآن الكريم بدلا من ذكر الضمير الدال عليه حتى يتمكن المعنى ويقوى في ذهن الرسول – صلى الله عليه وسلم– فهو لإسعادك لا لشقائك.



---

[١] انظر، عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفنانها في علم المعاني، دار الفرقان، ط٢، س١٩٨٩م، ص٢٠٩.

[٢] انظر، الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار التراث، دار التراث، ط٣، ص١٩٨٤م، ص١٤٤.

[٣] انظر، السمين، الدر المصون، ج٨، ص٥–٧.

[٤] انظر، الصعيدي، بغية الإيضاح، ج١، ص ١٤٩.

ضمائر الخطاب المتصلة بالمثنى والجمع.

لم يرد خطاب الرسول –صلى الله عليه وسلم- بصيغة المثنى إلا في موضع واحد، تناولته إذ لا غيره، كما ورد خطابه بصيغة الجمع في أربعة وخمسين موضعا، تخيرت منها شاهدا واحدا.

الشاهد الأول:

الخطاب بضمير المخاطب المتصل بالمثنى (تحاوركما).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾المجادلة: ١

نزلت الآية الكريمة في خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت؛ إذ ظاهر زوجها منها فجاءت رسول الله تجادل وتشتكي، قد سمع: قد تفيد التوقع؛ لأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والمرأة المجادلة كانا يتوقعان نزول أمر، فجادلت الرسول - صلى الله عليه وسلم- قائلة: يا رسول الله قد تزوجني وأنا شابة مرغوب بي، فلما خلا سني ونثرت له بطني – بمعنى كثر ولدي- جعلني عليه كأمه، وروي أيضا أنها قالت: يا رسول الله، إن لي صبية صغارًا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلي جاعوا، فقال لها:"ما عندي في أمرك شيء"، وقال لها: "حرمت عليه"، فقالت: يا رسول الله، ما ذكر طلاقا وإنما هو أبو ولدي وأحب الناس إلي، فقال: "حرمت عليه"، فقالت: "أشكو إلى الله فاقتي ووجدي، فكانت تجادل وكلما قال لها الرسول – صلى الله عليه وسلم- قد حرمت، هتفت وشكت إلى الله، في زوجها، "إن الله سميع بصير" يسمع

كل مسموع ويبصر كل مبصر[١].

حاور الرسول – صلى الله عليه وسلم– المرأة التي جاءت تسأل وتجادل في أمر زوجها، والظاهر أن الحكم الشرعي في مسألة الظهار لم يكن قد نزل بعد، بل إنه نزل على إثر هذه الواقعة، والظهار: هو أن يقول الرجل لامرأته "أنت علي كظهر أمي"، وكانت العرب تطلق نساءها بهذه الكلمة، فكان الظهار طلاقا في الجاهلية ولما جاء الإسلام نهى عنه وأمر بكفارة[٢]، فالله محيط سمعه بكل شيء شامل بصره على كل شيء، فقد سمع جدالها في أمر زوجها الذي ظاهرها، كما سمع حوارها مع الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومدافعتها لحكم تحريمها على زوجها، كما سمع شكواها واستجاب لها بإنزال ما تقر به نفسها.

الظهار كان من أشد طلاق الجاهلية؛ لأنه في التحريم أوكد ما يمكن، والدليل أن الرسول – صلى الله عليه وسلم– قال لها: حرمت، أي أنه كان شرعا، وهذه الواقعة تدل على أن من انقطع رجاؤه إلى خالقه كفاه الله[٣].

إن الرسول – صلى الله عليه وسلم– قد قطع في الأمر، ولا يكون قطعه إلا بوحي، والراجح في الأمر أن حكم الظهار الطلاق، إلا أنه نسخ بعد هذه الواقعة ليصبح يمينا تكفر.

كان الظهار من إيمان أهل الجاهلية خاصة دون سائر الأمم، فذكر الأمر على وجه

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص٤١٤، والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٩، ٢٥٠-٢٥١، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص٢٣٠-٢٣١، والثعالبي، الجواهر الحسان، ج٥، ص٣٩٧-٣٩٨، البقاعي، نظم الدرر، ج١٩، ص ٣٣٢-٣٤٢، والسيوطي، ج١٤، ص ٢٩٨-٣٠٤، والألوسي، روح المعاني، ج٢٨، ص ٢-٤، والشعراوي، خواطر حول القرآن، ج٢٤، ص ١٤٩٧٩-١٤٩٨٣.

[٢] انظر، ابن منظور، مادة ظهر.

[٣] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير، ومفاتيح الغيب، ج٢٩، ص ٢٥٠-٢٥١، والثعالبي، الجواهر الحسان، ج٥، ص ٣٩٧-٣٩٨.

التوبيخ[١].

إن الظهار يمين كان يجري مجرى الطلاق عند العرب؛ إذ به يفارقها ويتجنبها، وهو يمين خاص عندهم، إلا أن الإسلام قطع به بعد هذه الواقعة فهو يمين يكفر عنه لا طلاق يفرق به. أما قيمة التلطف فتجنى من الخطاب بـ:

قد سمع: قد تفيد التوقع، فالله يعلم أن رسوله -صلى الله عليه وسلم- ينتظر القطع بالأمر منه[٢]، أما الماضي فهو لتمام سمعه الذي وسع كل شيء، فقد تم الأمر وانقضى، ولو قيل قد يسمع: لأفادت التشكيك -معاذ الله، الله: لفظ الجلالة، فاعل مذكور بالاسم الصريح تعظيما للرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم- فالله قد سمع جدال هذه المرأة وحوارها معك، ولو قيل: قد سُمعت، لدلت على تحقق فعل السماع دون معنى التعظيم للرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم، فمن سمعك هو الله تعالى، ومن استشعر توقعك هو الله ومن استجاب لك هو الله.

قول التي: مفعول به للفعل سمع مضاف إلى الاسم الموصول، تجادلك: المضارع دال على استمرارية الجدل منها، فهي لن تكف حتى ينزل الحكم من الله، والجدل: هو مقابلة الحجة بالحجة والمجادلة: المناظرة[٣]، وهذه اللفظة متناسبة مع موقفها من رسول الله، فكانت تسوق الحجج؛ إذ قالت "لم يطلق" ثم تراوغ في إقناع الرسول - صلى الله عليه وسلم - مثل قولها: لي صبية منه ...الخ، وقيل الهدف من تلك المجادلة الشكوى[٤] في زوجها: في للظرفية المجازية والمقصود في شأن زوجها، فالجدال كان في هذا الشأن تحديدا، وتشتكي: الواو عاطفة، العطف

---

[١] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص ٢٣٠-٢٣١.

[٢] انظر، السمين، الدر المصون، ج١٠، ص١٦١.

[٣] انظر، ابن منظور، مادة جدل.

[٤] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج١٩، ص ٣٣٢-٣٤٢.

على الفعل تجادل والشكوى: الإخبار بأمر مكروه[١]، هي جملة عطف وقد تكون جملة حال على تقدير وهي تشتكي[٢]، والمماثلة في المضارعة والعطف تعني المماثلة في المعنى، واشتكاؤها: إظهار بثها وما انطوت عليه نفسها من الغم والهم[٣]، إلى الله: إلى جار يفيد انتهاء الغاية، فإلى الله ترجع الأمور صغيرها وكبيرها، أما المخالفة في الضمائر المتصلة بالأفعال فيلحقها اختلاف في المعاني، تجادلك: إلحاق ضمير المفعول بالفعل لقربك منها ومباشرة وقوع الفعل عليك، وتشتكي إلى الله، المقصود وتشتكي حالها إلى الله، فالجدال في أمر الزوج مسموع من الرسول – صلى الله عليه وسلم، أما الشكوى فلله وحده، هذه لا يسمعها ولا يعلمها إلا الله، الذي وسع سمعه وعلمه كل شي، والله يسمع: جملة اسمية في محل نصب حال، أي أن السمع حال مستمرة طوال مدة تحاوركما، بل وقبله وبعده .

تحاوركما: مفعول به، والحوار: مراجعة الكلام بين طرفين أو أكثر دون وجود خصومة[٤]، ومن تلطف الله تعالى برسوله – صلى الله عليه وسلم – أن وظفت كلمة حوار دون الجدال؛ لأن محبة المؤمنين للرسول – صلى الله عليه وسلم– تمنعهم جداله.

إن الله سميع بصير: إن مؤكد بلاغي، الله: اسم إن، سميع بصير: خبران لإن، وهي جملة تعليل بطريقة التحقيق[٥]، ورود لفظ الجلالة في هذه الآية الكريمة أربع مرات، إنما كان لإضافة معنى مختلف في كل موضع، أما الموضع الأول: سمع الله: فاعل دال على أن السماع حاصل من الله، والله سميع عليم بكل ما هو كائن وبكل ما سيكون، فالذكر لاسم الله هنا كان

---

[١] انظر، ابن منظور، مادة شكو.

[٢] انظر، الدرويش، ج١، ص٦، السمين، ج ١٠، ص ٢٦١.

[٣] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج١٤، ص٢٩٨-٣٠٤.

[٤] انظر، ابن منظور، مادة حور.

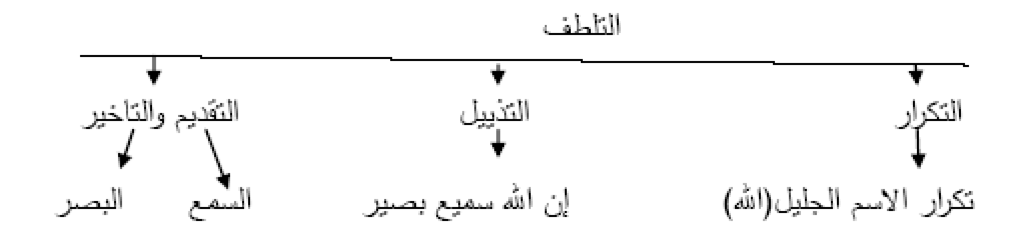
[٥] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج١٤، ص٢٩٨-٣٠٤. والدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج١٠، ص٦.

لتوكيد أهمية الأمر، والسماع مجاز من القبول والإجابة[١]، والثانية: وتشتكي إلى الله: فالشكوى علمها الله وهي خافية عليك، من تمام سمع وعلم، والثالثة: الله يسمع تحاوركما: مبتدأ لجملة اسمية دالة على مطلق الزمن، فالسماع متحقق قبلا وبعدا وأثناء، والرابعة: إن الله سميع بصير: اسم لجملة اسمية دالة على مطلق الزمانية وهذه مؤكدة للأولى.

يجنى التلطف من تكرار الاسم الجليل "الله" لأربع مرات في آية واحدة في حكم سئل الرسول – صلى الله عليه وسلم– فيه، والاسم الجليل الله، اسم جامع لكل صفاته تعالى، وروده بهذا العدد إنما جاء توكيدا لإحاطة الله عز وجل بالرسول – صلى الله عليه وسلم– بأتم الإحاطة وبأوفاها، يقول الفخر الرازي "إله، اسم لكل ما يعبد، والله اسم اختص به وحده"[٢].

والتكرير عند الصعيدي، يكون لنكتة (فائدة) أو لزيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول[٣]، وفي التكرار للاسم الجليل إشارة إلى العناية واللطف.

في الآية الكريمة، تذييل، والتذييل: أن يورد الناظم كلاما تم وحسن السكوت عليه، ثم يأتي بجملة تؤكده على وجه التحقيق[٤]. والتذييل ضد الإشارة، وهو: إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد حتى يظهر عند من لم يفهمه ويتأكد من فهمه[٥].



---

[١] انظر، الألوسي، ج١٤، ص٢٩٨–٣٠٤.
[٢] الفخر الرازي، التفسير الكبير، ومفاتيح الغيب، ج٢٩، ص ٢٥٠–٢٥١.
[٣] انظر، الصعيدي، بغية الإيضاح، ج٢، ص ١٣٦–١٣٧.
[٤] انظر، مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية، ص ١٢٢.
[٥] انظر، الحنفي، حسن، التوصل إلى صناعة الترسل، ص ٧٠.

الشاهد الثاني:

الخطاب بضمير الجمع (لتدخلن).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾الفتح: ٢٧

رأى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة، آمنين وقد حلقوا وقصروا، فقص الرؤيا على أصحابه، ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم، وقالوا: إن رؤيا الرسول حق، فلما تأخر ذلك، قالوا: "والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام" فنزلت الآية "قد صدق الله رسوله الرؤيا" أي صدقه في رؤياه ولم يكذبه – تعالى الله عن كل كذب وكل قبيح– فحذف الجار وأوصل بالفعل، أي صدقه فيما رأى، أو في كونه وحصوله صدقا ملتبسا بالحق، أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة، وذلك ما فيه ابتلاء وتمييز بين المؤمن المخلص وبين من كان في قلبه مرض، "بالحق" أي قسما بالحق وهو اسم من أسماء الله الحسنى، لتدخلن: جواب قسم لفعل القسم المحذوف، إن شاء الله: أما تفسيرها فله وجوه: تعليق عدته بالمشيئة تعليما للعباد، أو أن المقصود دخولكم ولم يمت منكم أحد، أو أن القول كان على لسان ملك فأدخل الملك "إن شاء الله" فعلم ما لم تعلموا: من الحكمة والصواب في تأخير فتح مكة فجعل من دون ذلك فتحا: فتح خيبر، وقيل فتح الحديبية، لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود[١].

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص٢٩٨–٢٩٩، والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٨، ص ١٠٤–١٠٥، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص٩٩–١٠٠، والبقاعي، نظم الدرر، ج١٨، ص ٣٣٣–٣٣٥، والسيوطي، الدر المنثور، ج١٣، ص٥١١–٥١٧، والثعالبي، ج٥، ص ٢٦٠–٢٦١،=

يراعي الله تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- ويدافع عنه بعد أن واجهه المنـــافقون، واتهموه وسخروا منه بعد أن حدثهم عن رؤياه التي تأخر تحققها بدخول المسجد الحرام، فنزلت الآية لتصدق قوله في شأن الرؤيا، ثم يقسم الله على تحقيق رؤيا رسوله وفق مشيئته هو، بـــأن يدخلوا المسجد الحرام بأمن وسلام؛ إذ أحاط علمه بما لم يعلموا من خير ومصلحة عامة، بـــأن جعل فتح خيبر سابقا لفتح مكة، وهذا من حكمته وإرادته.

زيد فيها: صدق الله تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- في الكلام؛ لأن الرؤيا كانـــت كلاما، أو صدقه تحقيقا بأن يقع دخولهم لبيت الله الحرام، محلقين، والداخل لا يكون إلا محرما، آمنين، متمكنين من أن تتموا الحج، لا تخافون، بمعنى آمنين فلماذا كان التكرار؟ الفائدة هي تمام الأمن؛ لأن الإنسان بعد الحلق يخرج عن الإحرام فلا يحرم قتاله، وكان عند أهل مكة يحرم قتال من أحرم ومن دخل الحرم،أي تدخلون آمنين وتحلقون، ويبقى أمنكم بعد خروجكم عن الإحرام، فعلم من المصلحة العامة المتجددة ما لم تعلموا، وكان الله بكل شيء عليما، يفيد سبق علمه العام لكل علم محدث[1].

وعد الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- بدخول بيته الحرام وعد مرتبط بأمن، ولـــو أن المسلمين دخلوا مكة في عامهم هذا لوقع ماوقع من معارك؛ إذ إن قريشا لم تكن قـــد رضـــيت بدخولهم، فوعد الله تعالى نبيه بدخولهم آمنين لم يكن محددا بوقت بل الوقـــت معلـــق بمشـــيئته وإرادته.

=والألوســـي، روح المعـــاني، ج٢٦، ص ١٢٠-١٢٢، والشـــعراوي، خـــواطر حـــول القـــرآن، ج ٢٣، ص١٤٤٠٧-١٤٤١٣.

[1] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٨، ص١٠٤-١٠٥، وأبو حيان الأندلســـي، البحـــر المحيط، ج٨، ص ٩٩-١٠٠.

زاد الشعراوي: إن المؤمنين في حالة شوق إلى مكة التي أخرجوا منها، بعـد الرؤيـا اطمأنوا إلى دخولهم وأداء العمرة، فلما أمروا بالصلح والرجوع خاب أملهم، لا سيما أن شروط هذا الصلح كانت قاسية بالنسبة للمسلمين لما بها من تنازلات، فرضي الرسول – صلى الله عليه وسلم– بالصلح؛ لأن دخول المسلمين مكة دون رضا قريش سيؤدي إلى نشوب المعارك، هـذه المعارك ستصيب جماعة من المسلمين لم يعلنوا إسلامهم، علمهم الله ولم تعلموهم أنتم، كما علم من المصالح ما لم تعلموا من تحقيق هذا، فبه صالحوا قريشا وأمنوا شرها، مما أتاح الفرصـة أمام المسلمين لنشر الدعوة خارج مكة، وبه ظهرت قوة المسلمين حتى اعترفت قـريش بهـم، وأعلنت أنهم قوة تصالح وتهادن[١].

من علم الله تعالى أن أخفى الحكمة من الصلح مع قريش، فقد نزل الأمر دون إيضـاح للحكمة منه، وذلك ليمتحن قلوب الناس وليميز غثهم من سمينهم، وليحفظ المؤمنين الـذين لـم يعلنوا إيمانهم في مكة.

تجنى قيمة التلطف من دفاع الله تعالى عن رسوله، بأن صدقه وصدق رؤياه بآية كريمة، تدفع عنه تكذيب واستهزاء المنافقين، ثم يقسم الله تعالى على تحقيق رؤيا نبيه؛ إذ إنها وعد منه –والله لا يخلف الميعاد– بل ويحفظه ويؤمنه من الخوف ومن الشرور المتوقعة مـن قـريش، وبالفعل صدقت رؤيا الرسول – صلى الله عليه وسلم– وتحقق فتح مكة ليكـون أعظـم فـتح وأشرف وعد.

أما التلطف الذي يرصد في التراكيب فيظهر بـ: لقد صدق: قد تفيد التحقيق؛ إذ إن أمر فتح مكة وعد من الله والله لا يخلف الميعاد، هذه الأداة مسبوقة بلام وهي مؤكد بلاغي يزيد في

---

[١] انظر، الشعروي، خواطر حول القرآن الكريم، ج٢٣، ص ١٤٤٠٧-١٤٤١٣.

مفهوم التوكيد، وقيل: هي موطئة للقسم[١]، صدق: ماض يفيد وقوع الوعد وانقضائه، والصدق نقيض الباطل[٢]، والفعل متعد لمفعولين: رسوله والرؤيا.

الله: لفظ الجلالة فاعل، ذكر اسم الله صريحا إعلانا بعظمة الواعد والوعد والموعود، فالواعد: هو الله والوعد: هو فتح مكة، والموعود: هو الرسول - صلى الله عليه وسلم. رسوله الرؤيا: مفعولي صدق، أما تقديم الأول فتلطفا بالرسول - صلى الله عليه وسلم، فالتصديق جاء لك من الله، قيل: حذف الجار واوصل الفعل[٣]، وقيل منصوب بنزع الخافض[٤]، وما كان هذا الحذف إلى لتعجيل تصديقه – صلى الله عليه وسلم- وظفت كلمة رسول لا نبي؛ لأن الحديث فيه تبليغ وهذه من تكاليف الرسل، والرسول: مأمور بتبليغ الرسالة لمن خالف الله، أما النبي - صلى الله عليه وسلم- فيوحى له من الله ليعلم الناس تعاليم الدين لكونهم مؤمنين[٥]، أما الرؤيا فمحذوف جارها، والأصل بالرؤيا، حذف الجار لأن الأمر طارئ وهودفع الأمر عن الرسول - صلى الله عليه وسلم، فالتصديق كائن من الله تعالى للرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم- أولا في كل الجوانب، ثم خص جانب التصديق هنا في مسألة الرؤيا.

بالحق: جار ومجرور فإن عدت قسما، فجملة "لتدخلن المسجد ...الخ" هي الجواب، والقسم محذوف أي بالحق أقسم، وإن عدت حالا فهي متعلقة بالتصديق، أو صفة لمصدر محذوف، أي صدقه صدقا ملتبسا، والحق: نقيض الباطل، أو اسم من أسماء الله الحسنى، وقيل بها تقديم وتأخير، فلو قيل "صدق الله رسوله بالحق الرؤيا" أي أن الرسول رسول الله بالحق فلا

---

[١] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ص٢٥٢.

[٢] انظر، ابن منظور، مادة صدق.

[٣] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص٢٩٨-٢٩٩.

[٤] انظر، إعراب القرآن الكريم، ج٩، ص ٢٥٢.

[٥] انظر، البطاقة التعريفية، في الجزء السابق من البحث، مادة رسل.

يرى في منامه الباطل، وإن تأخرت فهي قسم كما تقدم[١].

لتدخلن: لام، واقعة في جواب القسم، للمضارع الواقع في جواب القسم، والخطاب هنا للرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– ولمن آمن معه، فالله واف بوعده لرسوله –صلى الله عليه وسلم– وفاء مؤكدا محتما إكراما له ولمن ثبت وآمن؛ ذلك أن في هذه الرؤيا تمحيص لقلوب المؤمنين وامتحان لها، فبعد ذلك استحقوا الوعد واستحقوا الوفاء به، ثم نون التوكيد الثقيلة لتزيد في توكيد الفعل، ثم واو الجماعة ضمير متصل في محل رفع فاعل – حذف منعا لالتقاء الساكنين– والنون محذوفة لتوالي الأمثال، أما حكمه فهو الرفع، وهو من الأفعال الخمسة[٢]، المسجد: مفعول به، ذكر المسجد لأنه المكان الذي يطاف به ولا يكون دخوله إلا بعد دخول الحرم[٣]، الحرام: صفة، إن شاء الله: جملة شرطية، أداة وفعل الشرط "شاء" والفاعل "الله" وجوابها محذوف تقديره "تدخلون" دل عليه السياق، أما إن، فقد فسرت إنها بمعنى إذ، أي عند تحقق المشيئة[٤]، آمنين: متمكنين من إتمام الحج، وهي حال أولى منصوبة عائدة على واو الجماعة في تدخلون، وهي شرط الدخول ووقته، فالوعد بدخول مكة مشروط بتحقق الأمن، فمتى تحقق الأمن وقع الوعد بالدخول.

محلقين رؤوسكم: حال ثانية مضافة إلى رؤوسكم، فالحلق للرأس، وقيل هي حال،

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٢٩٨–٢٩٩، والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٨، ص١٠٤–١٠٥، والبقاعي، نظم الدرر، ج١٨، ص٩٩–١٠٠، والألوسي، روح المعاني، ج ٢٦، ص ١٢٠١٢٢، والسمين، الدر المصون، ج٩، ص٧١٩–٧٢٠.

[٢] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٩، ص١٢٥٢.

[٣] انظر، البقاعي، ج١٨، ص ٣٣٣–٣٣٥.

[٤] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج ٩، ص ١٢٥٢، والألوسي، روح المعاني، ج٢٦، ص١٢٠–١٢٢.

ورؤوسكم: مفعول به لاسم الفاعل[١]، لا تخافون: لا النافية، والمضارع المنفي: حال رابعة.

والتلطف في التدرج في إيراد الأحوال: آمنين أولا وهي حال مقارنة، عندما تدخلون المسجد الحرام، ثم محلقين ومقصرين ثانيا وثالثا وهذه من أمور الإحرام أي حال مقدرة، فالداخل لا يكون إلا محرما، فالدخول في حال الإحرام لا في حال الحلق والتقصير، لا تخافون رابعا بعد إنهائكم شعائركم[٢]، فالأمن أولا واللاخوف آخرا، فالأمن متكامل وهذا يتناسب مع موقف قريش التي لاتتعدى على المحرم أو الداخل للحرم، فإن فرغ من المناسك اعتدت عليه، والله يريد حفظهم وتأمينهم من بداية دخولهم لأداء شعائرهم حتى إنهائهم وإتمامهم لها.

فعلم مالم تعلموا: فعلم: فاء عاطفة على صدق، وتفيد التعقيب والجملة تعليلية؛ لأن الله علم من أسباب الفتح وموانعه وبنائه على الحكمة البالغة "ما لم تعلموا" ما: موصولة، في محل نصب مفعول به، وظفت ما؛ لأنها نكرة مغرقة في التنكير، فعلم الله لاحدود له، لم تعلموا: الجازم والمضارع المجزوم وضمير الفاعل، جملة صلة الموصول، والمعنى أن الله يعلم أمرا قد غيب عنكم، هو حكمة تاخير هذا الدخول[٣]، فجعل: الفاء للتعقيب، والماضي المعقب هو فتح خيبر، وقيل الحديبية، والفاعل مستتر عائد على الله تعالى .

من دون ذلك: جار ومجرور ومضاف إليه، توسطت شبه الجملة بين الفعل والمفاعيل للأهمية؛ إذ إن رؤيا الرسول – صلى الله عليه وسلم– بدخول مكة هي سبب نزول الآية لا البشارة بفتح خيبر، ذلك، إشارة لفتح مكة، فتحا: مفعول جعل مؤخرا قريبا: صفة منصوبة.

إشارة التلطف في الآية الكريمة بارزة بالتقديم والتأخير، فقد قدم ذكر الرسول على

---

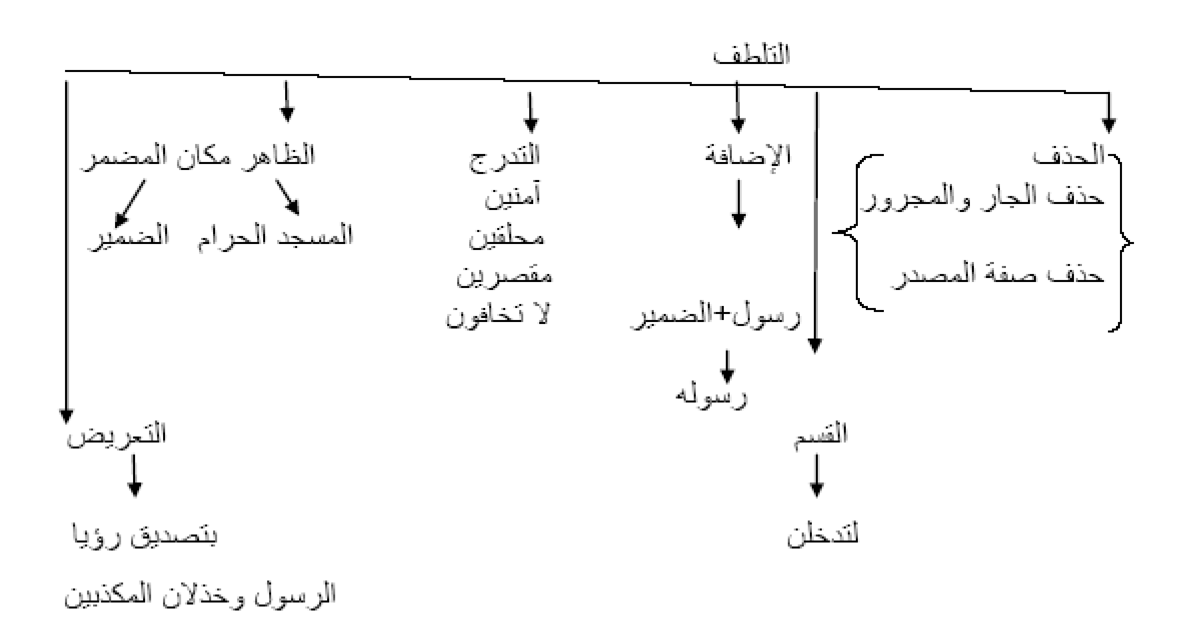
[١] انظر، الدرويش، المرجع السابق، ج٩، ص ١٢٥٢.

[٢] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٩، ص ١٢٠–١٢٢.

[٣] الألوسي، روح المعاني، ج٢٦، ص ١٢٠–١٢٢، والبقاعي، نظم الدرر، ج١٨، ص٣٣٣–٣٣٥.

الرؤيا، كما يجنى من حذف الجار والمجرور، قيل في حذف الجار والمجرور معنى الاشــتمال، كقوله تعالى ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾الصف: ١٣ والتقدير بالجنة، قد حذف لأن لتناول البشرى كل محبوب[١]، والتلطف كذلك يجنى من التضايف بين كلمة رسول والضمير الهاء، العائد على الله تعالى، فبقوله "قد صدق رسوله" ولم يقل رسول الله، لأن في نســبته إليــه مزيدا من معاني القرب والدفاع عنه والحماية له، فكأن الله تعالى قد وضع رسوله فــي جهتــه وجنبه أمام فريق المكذبين المشركين، وبهذا يحقق له الطمأنينة بالمساندة والكفالة.

ومن أساليب التلطف الواضحة في الآية إحلال الظاهر مكان المضمر، بقولــه "لتــدخلن المسجد الحرام" ولم يقل لتدخلنه؛ قصد التعريض والإنكار لسلوك من كذب الرسول – صلى الله عليه وسلم في رؤياه[٢]. وإن الإظهار مكان الإضمار والتعريض لوسيلتين بلاغيتين يتوسل بهما لتحقيق التلطف.



---

[١] انظر، أبو شادي، الحذف البلاغي، ص٩٦.

[٢] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٢٦، ص١٢٠-١٢٢.

خطاب النداء "يا أيها".

ورد الخطاب بأداة النداء "يا أيها" في ثمانية عشر موضعا، تخيرت منها شاهدا بصفة الرسالة، وآخر بصفة النبوة.

الشاهد الأول:

الخطاب بـ(يا أيها الرسول).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾المائدة: ٦٧

بلغ ما أنزل إليك: أي جميع ما أنزل إليك غير مراقب في تبليغه أحدا ولا خائف أن ينالك مكروه، وإن لم تفعل: وإن لم تبلغ جميعه كما أمرت، فما بلغت رسالته: فلم تبلغ ما كلفت به من أداء الرسالات ولم تؤد منها شيئا؛ ذلك أن بعضها ليس أولى بالأداء من بعض، وإن لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعا، فأنت إن لم تبلغ أدنى شيء وإن كان كلمة واحدة، فأنت كمن كتمها كلها، والله يعصمك من الناس: عدة من الله بالحفظ والكلاءة، يضمن الله لك العصمة من أعدائك فما عذرك في مراقبتهم؟ والعصمة من القتل وعليك أن تحتمل كل ما دون النفس في ذات الله، فما أشد تكليف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إن الله لا يهدي القوم الكفرين: لا يمكنهم مما يريدون من إنزال الهلاك بك[١].

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٥٧٨-٥٧٩، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج١٢، ص،٥١-٥٣، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٣، ص٥٣٨-٥٣٤٠، والثعالبي، الجواهر الحسان، ج٢، ص٤٠٣-٤٠٥، والبقاعي، نظم الدرر، ج٦، ص ٢٢٩-٢٣٨، والسيوطي، الدر المنثور، ج٥، ص ٣٨٢-٣٨٩، والألوسي، ج ٦، ص ١٩٧-١٩٩.

الخطاب كان بأشرف الصفات "يا أيها الرسول"، والرسول: هو الذي بعث لأمة الكفـــر، ليهديهم إلى وجود الله، أما النبي: فهو الذي بعث لأمة مؤمنة إما ليذكرهم بالـــدين، أو لـــيعلمهم أمور دنياهم، ومحمد – صلى الله عليه وسلم- بعث في أمة كافرة ليهدي الناس إلى وجـــود الله تعالى؛ لذلك كان الخطاب بـــ"يا أيها الرسول" ثم أمر بتبليغ الرسالة وافية تامة كما أنزلت عليـــه دون خوف أو تردد؛ إذ إن الله تعالى عاصمه من الناس، والنـــاس هنـــا – حســـب مـــا يجـــد المفسرون- هم اليهود والنصارى.

هذا أمر من الله لتنبيه محمد بإبلاغ اليهود والنصارى من أهل الكتابين، الذين قـــص الله قصصهم وذكر معايبهم في هذه السورة ، وأنهم قد حرفوا أحكاما متعلقة بالقصاص والرجم، أو أمر زواج زينب بنت جحش، وقيل هو الجهاد، وأن لا يشعر في نفسه حذرا منهم ولا جزعا من عددهم وقلة من معه، فإن الله كافيه كل أحد من خلقه ودافع عنه كل مكروه، وأعلمه تعالى أنـــه إن قصر عن إبلاغ شيء مما أنزل إليه، فهو في تركه تبليغ ذلك – وإن قل- فهو في عظيم مـــا ركب بذلك من الذنب بمنزلة من لم يبلغ من تنزيله شيئا(١).

ويقول غير واحد من المفسرين: إنهم الكفار وذلك بالاستدلال بقولـــه تعـــالى "إن الله لا يهدي القوم الكافرين"(٢).

الواضح أن المقصود هم الكفار وكذلك اليهود والنصـــارى، بالاســـتدلال بقولـــه "والله يعصمك من الناس"، وهو اسم جامع لكلا الطرفين والله يحث نبيه، ويأمره بتبليغ ما أنزل عليه، وإن كان فيما أنزل عليه ذكر لمعايبهم ومثالبهم، التي لن يحبوا ذكرها، والرسالة تبليغ مـــن الله

---

(١) انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٣، ص٥٣٨-٥٤٠.

(٢) انظر، الزمخشري، الكشاف، ج١، ص ٥٧٨-٥٧٩، والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج١٢، ص٥١٥٣.

ليس فيها محاباة ولا مراعاة، بلغهم وإن لم يعجبهم، فما أنت إلا رسول يوحى إليك من الله، وتبلغ الناس بما أوحي إليك لا بما يريدون ويحبون سماعه.

ذكر الله تعالى الرسل بنداء أسـماءهم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ ﴾البقرة: ٣٣ كذلك قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾القصص: ٣٠، كـذلك قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَـٰمٍ ﴾هود: ٤٨.

يناديهم بالاسم المشخص للذات بصرف النظر عن أي صفة، لكن الرسول – صـلى الله عليه وسلم– ناداه الحق بالمشخص للوصف "يا أيها الرسول" فكأنك يارسول الله قد اجتمعت فيك كل مسائل الرسالة لأنك صاحب الدين الذي سينتهي العالم عنده ولا يكون لله بعد ذلك رسالة، إلا فهم يؤتيه الله لأحد في كتابه، وما دام الخطاب للرسول – صلى الله عليه وسلم– فهذا يعني أنـه رسول مرسل من قبل الله بمنهج للخلق يبلغه لهم، وكيف يقول الحق لرسوله "بلغ" وهو يعلـم أن مهمة الرسول البلاغ؟ الجواب: أنه أراد إخبار الناس أنه إن بلغهم بما يكره بعضهم فهـو يبلـغ التزاما بأمر الله، ويورد الحق سبحانه ذلك حتى إذا بلغ الرسول حكما من الأحكـام فعلـيهم أن يستقبلوا الحكم على أنه قادم من الله وسبحانه يعلم أن رسوله لا يكتم البلاغ، ولكن ليجعل لرسوله العذر عند البشر ممن يخاطبهم بشيء يكرهونه[١].

لم يختر الله تعالى لتبليغ الرسالات السماوية إلا كل صادق أمين صبور من البشر، فكيف يأمر بالتبليغ من اختاره أصلا لهذه المهمة، إلا أن الأمر هنا إنما هو إيجاد المبرر والعذر لـه، وهذا من تلطفه برسوله – صلى الله عليه وسلم، فقد أمر بالتبليغ وفق ما أوحي إليه لا وفق مـا

---

[١] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج٥، ص٣٢٨٤-٣٢٩١.

يشتهون، وإن جاء بأمر أو حكم لا يوافق الأهواء، فعليهم بتلقيه تلقي قبول ورضا؛ إذ إنه من عند الله تعالى لا من عند محمد – صلى الله عليه وسلم – بل تجد الباحثة في هذا الأمر إثبات لصدقه – صلى الله عليه وسلم – وهذه أيضا من تلطفه به، فلو أن الدعوة كانت لإرضاء الناس وموافقة رغباتهم لتناقضت وتباينت واختلفت باختلاف النفوس والرغبات، لكنها من عند خالق النفوس الذي هو أدرى بما خلق فشرع لها من المنهج ما يناسبها ويحفظها ويراعي احتياجاتها لا رغباتها وأهواءها التي قد تكون مهلكة لها.

أما التلطف في التراكيب فيجنى من قوله تعالى بـ: يا أيها الرسول: يا أداة نداء للبعيد والمراد التعظيم، أي: منادى مبني على الضم في محل نصب، والهاء للتنبيه الرسول: بدل مرفوع، والرسول: نداء بالصفة الشريفة التي هي أشرف أوصاف الجنس الإنساني[١]، خوطب الرسول – صلى الله عليه وسلم – بنداء البعيد إعلاء من شأنه، وتتالي أدوات النداء يوحي بالتعظيم والمكانة الرفيعة له عند ربه سبحانه، ثم نودي بأهم صفة هي له وهي الرسول ولم يخاطب غيره من الأنبياء والرسل بهذه الصفة؛ إذ إنه خاتم النبيين – صلى الله عليه وسلم– والرسل، بل إن الله اصطفاه برسالة للبشر كافة لا لأمة بعينها، هذه الخصوصية في الخطاب تتناسب مع الاصطفاء المخصوص له لأنه بعث للناس كافة.

بلغ ما أنزل إليك: كلام مستأنف سيق للتسرية عنه – صلى الله عليه وسلم– لما كان يلاقي من مشاق في تبليغه للرسالة[٢]، والأمر هنا تكليف وتشريف له من الله الذي علم صدقه في التبليغ قبل أن يصطفيه له، وما الأمر هنا إلا لإيجاد العذر له، و ليعرف الناس أن ما يأتي به

---

[١] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٣، ص٥٨٣-٥٤٠، والألوسي، روح المعاني، ج٦، ص ١٩٧-١٩٩.

[٢] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٢، ص٥٢٣.

إنما هو بأمر من الله لا من عنده، وليس عليه أن يراعي أو يحابي أحدا، وربما الأمر هنا لـــيس لأمر قد وقع، بل إن المعنى المستقبل من الزمان، بأن الله سينزل عليك من الرسالة ما لا يعجب الكفار ولا يرضيهم، فما عليك إلا االبلاغ غير خائف ولا مراقب أحدا.

ما: موصولة، وهي نكرة مبهمة وتنكيرها هنا لملاءمة معنى الشمول لجل ما يوحى إليك من عند الله، سواء القرآن الكريم أو الأحاديث القدسية، أوما سوى ذلك من أحكام وتشـــريعات، أنزل: ماض مبني للمجهول، والماضي لما انقضى وتم حكمه إلا أن الإنزال مســـتمر؛ ذلـــك أن حكم ما ينزل كحكم ما نزل وتم، فعليكم تقبله تقبل أمر حكم وانقضى، والبنـــاء للمجهـــول لأن المنزل والمنزَل معروف غني عن الذكر، إليك: جار ومجرور يفيد انتهاء الغاية عنـــدك؛ إذ إن الجار مضاف إلى كاف المخاطب، من ربك: الجار والمجرور يبين ابتداء الغاية، قدم الله ذكـــر انتهاء الغاية على ابتدائها موافقة للغرض من هذه الآية الكريمة وهو إيجاد العذر للرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم، فقدمت آية ذكر الرسول وهو انتهاء الغاية على ذكر الله تعـــالى وهـــو ابتداء كل غاية، وهذه من تلطفه تعالى برسوله – صلى الله عليه وسلم–، أما قوله تعالى "ربـــك" فلمناسبة معنى الحفظ والرعاية والكلاءة الوارد في هذه الآية.

وإن لم تفعل: أداة شرط وجازم وفعل شرط مجزوم، محذوف مفعوله، والتقدير التبليـــغ، والحذف هنا لأن الأمر مفهوم قبحه منزه رسول الله عنه، ولأن الهدف والغايـــة لـــيس تحـــذير الرسول بل إفهام الخلق، أن ما يأتي به الرسول من عند ربه مأمور بتبليغه، أما الرسول فمنـــزه عن التقصير بعيد عن عدم التبليغ، فما بلغت رسالته: الفاء رابطة لجواب الشرط، مـــا: نافيـــة، بلغت: ماض مضعف ليفيد معنى التكثير، والتاء: ضمير الفاعل، رسالته: مفعول به ذكر مضافا إلى ضمير يذكر صاحب الرسالة وهو الله تعالى لمناسبة القضية؛ لأن الرسالة من عند الله لا من

عند الرسول – صلى الله عليه وسلم، وقد حذف المفعول سابقا وذكر هنا لمناسبة نسبة الرسالة إلى صاحبها، والمقصود هنا أن كتمان البعض كمن كتم الكل فعليك التبليغ على الكمال والاستيفاء، قيل: الجواب محذوف تقديره لنجازينك، ولكنه كنى بالسبب عن المسبب إجلالا له وإفادة لأن المؤاخذة تقع على الكل ولأنه ينتفي بانتفاء الخبر[١]، وهذه أيضا من تلطفه برسوله – صلى الله عليه وسلم؛ إذ لم يذكر مفردة تحتمل معنى الجزاء أو العقوبة مع ذكره، قيل: عدم تكرار اللفظ في قوله تعالى في الأولى "بلغ" وفي الثانية: "وإن لم تفعل" المقصود لم تبلغ، لم يكرر الفعل بذات لفظه بل كرره بمعناه، وهذا أحسن رونقا واظهر طلاوة من التكرار، فوضع السبب مكان المسبب[٢].

أما في اتحاد الشرط مع الجواب فسر بديع؛ ذلك أن الجزاء يجب أن يغاير الشرط، وإلا اختل المعنى، إلا أن في اتحادهما بيان لعظمة الأمر وأهميته، فأمر كتمان الرسالة أمر مفهوم قبحه وشناعته، وزيادة في تقبيح الأمر أن جعل الجزاء عين الشرط[٣] والله يعصمك من الناس: الواو للاستئناف، الله: مبتدأ مرفوع، والجملة الفعلية في محل رفع خبر، والمضارع لاستمرارية الحفظ ودوامه دوام نزول الرسالة وتبليغها، أما العصمة فمن القتل لا من الأذى فعليه التحمل والصبرعلى كل ما دون ذلك إن الله لا يهدي القوم الكفرين: إن: مؤكد، الله: اسمها، لا يهدي: جملة فعلية فعلها مضارع منفي لديمومة نفي الهداية عن القوم المتصفين بالكفرعلى الدوام، قيل: هي تسرية عن الرسول – صلى الله عليه وسلم؛ إذ إن عليه التبليغ لا الهداية[٤].

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٥٧٨-٥٧٩، البقاعي، نظم الدرر، ج٦، ص ٢٢٩-٢٣٨، والألوسي، روح المعاني، ج٦، ١٩٧-١٩٩.

[٢] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٦، ص ١٩٧-١٩٩، والسمين، الدر المصون، ج ٤، ص٣٤٩-٣٥٣.

[٣] انظر، إعراب القرآن الكريم، ج٢، ص ٢٢٤.

[٤] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٣، ص ٥٣٨-٥٤٠. والألوسي، روح المعاني، ج٦، =

إن خطاب الرسول – صلى الله عليه وسلم– ب،"يا أيها الرسول" كان بموضعين، أمـــا نداءه بـــ"يا أيها النبي" كان في ثلاثة عشر موضعا[١]، أما الخطاب الأول فقد جاء مع ذكر الكفار والرسول يبعث إلى أمة الكفر، أما الخطاب الثاني فقد كان مع الأحكـــام والتشـــريعات بعـــد أن استوى الإيمان في قلوب الناس والنبي – صلى الله عليه وسلم– يبعث لأمة الإيمان ليعلم ويذكر ويستوفي أمور الدين، ومحمد – صلى الله عليه وسلم – رسول في المرحلة الأولى من الـــدعوة بعث في قريش وهي أمة كفر، نبي في المرحلة الثانية من الدعوة في أمة مسلمة ليعلمهم أمـــور الدين وأحكامه.

يجنى التلطف من النداء بصيغة البعيد القريب، إعلاء من شأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – "يا أيها" قيل: النداء طلب إقبال[٢]، وإنزال القريب منزلة البعيد؛ لأن المنادى رفيع القدر عظيم الشأن[٣]، كما يجنى من خطابه خطاب مدح "يا أيها الرسول" وهو خطـــاب فـــي العمـــوم والخصوص، فهو خاص به يريد أمرا مخصصا، وإن لم يفعل فكأنه لم يبلغ من الرسالة شـــيئا، حكمه حكم من لم يبلغ[٤].

كما يجنى التلطف من الكناية بذكر السبب مكان المسبب، والكناية من أساليب التلطـــف التي قال بها المتقدمون والمتأخرون، قيل: كنى بالسبب مكان المسبب والتقدير فـــإن لـــم تفعـــل لنجازينك، لكنه تعالى عدل عن ذكر الجزاء الذي هو بمعنى العقاب في سياق خطابه للرســـول

=ص١٩٧-١٩٩.

[١] انظر، خضر، محمد زكي، معجم ذكر الرسول، ص٦٨.

[٢] انظر، عباس، البلاغة العربية فنونها وأفنانها، ص١٦٣.

[٣] انظر، المرجع السابق، ص١٦٥.

[٤] انظر، الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٢٢٤.

الكريم – صلى الله عليه وسلم[١].

كما يجنى من توظيف المضارع "يعصمك" للدلالة على استمرارية العصمة.

ويجنى من الذكر والحذف، في قوله "وإن لم تفعل" المفعول محذوف، وحذف المفعول يراد به إثبات الفعل لفاعله[٢]، وتقديره وإن لم تفعل الأمر المطلوب منك وهو تبليغ الرسالة، ثم يردفها بجملة "فما بلغت رسالته"، والتلطف كذلك في التكنية عن فعل التبليغ بقوله "وإن لم تفعل" ولم يصرح أن الفعل المراد هو التبليغ، فقد عدل عن المعنى الحقيقي إلى معنى آخر متضمن له ولغيره من الأمور، لئلا يكون في القرآن آية تتحدث عن أن الرسول – صلى الله عليه وسلم– لم يبلغ.

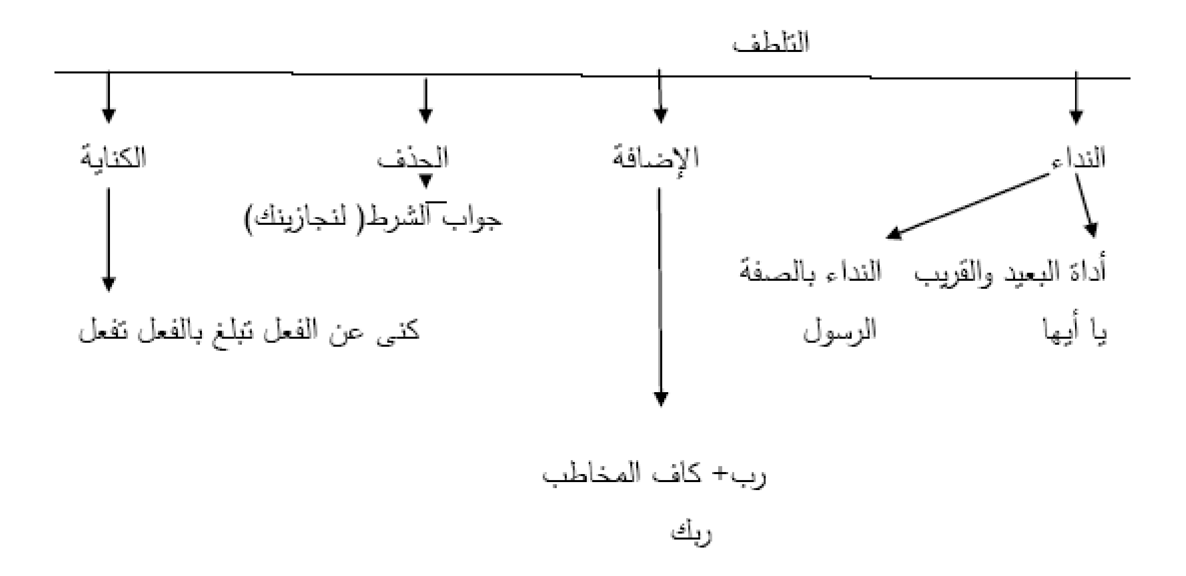
ومما يذكر في التلطف في هذه الآية الكريمة رأي مضمونه: إن سبب العدول هو الالتفات، والهدف من العدول في هذه الآية هو الاهتمام الكبير بشأن تبليغ الرسالة، الذي هو مهمة الرسول – صلى الله عليه وسلم، ففي المعاني، أن هذه الآية توجه خطابا للرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم، في حين أن الآيات السابقة لها واللاحقة تتحدث عن أهل الكتاب وعدم اكتراثهم بكتبهم[٣]. إن صاحب البحث يرى العدول في الآية الكريمة ربطا بالسياق العام للسورة الكريمة، وهنا إشارة اخرى للتلطف، فالكتابيون غير مكترثين بكتبهم، أما الرسول – صلى الله عليه وسلم– فمأمور بالتبليغ لكل كلمة أنزلت إليه من ربه، وليس هو بالمبلغ فحسب بل إنه لمهلك نفسه في سبيل الرسالة وتبليغها، لولا عصمة الله له.

---

[١] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٦، ص ١٩٧-١٩٩.

[٢] انظر، أبو شادي، الحذف البلاغي، ص٢٠.

[٣] انظر، فياض، العدول في السياق القرآني، ص١٤-١٧.



الشاهد الثاني:

(يا أيها النبي).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾التوبة: ٧٣

قَالَ تَعَالَى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ التحريم: ٩

جاهد الكفار بالسيف والمنافقين بالاحتجاج واستعمل الغلظة والخشونة على الفريقين فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة، وقيل بإقامة الحدود عليهم، وقيل بإفشاء أسرارهم، فهذا حكم ثابت، فليغلظ عليهم بما أمكن بيده أو لسانه، أو يكفهر في وجهه، أو بقلبه، أو الكراهة والبغضاء والتبرؤ منهم[١].

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص١٧٨، الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٦، ص١٣٧، والبقاعي،=

إن الآية الكريمة تأمر بالجهاد لكلا الفريقين فريق الكفار وفريق المنافقين، أما الكافرون فجهادهم بالسيف؛ إذ علم كفرهم، وأما المنافقون فجهادهم بالحجج والإقناع وإقامة الأدلة عليهم؛ ذلك أنهم يخفون كفرهم ويعلنون إيمانهم، إما خوفا من المسلمين – وهذا دليل قوة المسلمين– وإما من باب المكر والخداع حتى يتمكنوا من المسلمين بمعرفة أخبارهم ونقاط ضعفهم وقوتهم، فيعينون أعداءهم بما عرفوا عليهم، فيظهر عدم صدق إيمانهم على شكل أسئلة يسألون بها ليولدوا الفتن والشك عند من استقر الإيمان في قلبه.

نودي بـ"يا أيها النبي" إعلاء من شأنه ورفعا لمقامه عند ربه، خاطبه بوصفه هو النبي لا باسمه كما خوطب بقية الأنبياء والرسل، ليدل على فضله عليهم[1]، فالإسلام المتمثل بالرسول والمسلمين جهة في مواجهة الكفار والمنافقين، وقد تقدم ذكر الكفار على المنافقين لأن الصدام كان معهم في أول الدعوة ولم يكن صنف المنافقين موجودا بعد بل كان الأمر بين المؤمنين والكافرين، وجهاد الكفار على مراحل أولها الحجة؛ إذ لم يكن المؤمنون أقوياء بل ضعفاء لا يملكون إلا الإقناع العقلي والحجج والبراهين، مثل:من خلق الكون؟ ومن خلق الشمس؟ فلو كان الرسول مدعيا لقال: أنا من خلقها، لكن دعوته محسومة بأن الله هو خالق السموات والأرض، وإذا وصلنا إلى الإقناع بأن الله هو الخالق إذن فهو واضع المنهج الذي يستحق الاتباع، فمن صنع الشيء أدرى به وأدرى بما ينفعه، وما يفسده، أما إذا فشلنا في جهاد الحجة فعلينا بجهاد الغلظة، أي أنذرهم بالعذاب الرهيب الذي ينتظرهم ولا تأخذك بهم رأفة لأن الرأفة تغري بالذنب، أما المنافقون الذين كانوا يحلفون كذبا للرسول – صلى الله عليه وسلم– بعد ارتكابهم

=نظم الدرر، ج٨، ص ٥٤٧، السيوطي، الدر المنثور، ج٧، ص ٤٤٢–٤٤٣، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٥، ص٧٢–٧٣، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٣، ص ١٩٦.

[1] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٨، ص ٥٤٧، والشعراوي، خواطر حول القرآن، ج٩، ص ٥٣٢٧–٥٣٤٠.

الإثم وكان يصفح عنهم، فالله يؤكد إنهم مفضوحون ومأواهم جهنم[١].

يعلي الله تعالى من شأن نبيه بأن يناديه بصفة النبوة وهي أشرف صفاته – صلى الله عليه وسلم– ثم يأمره بالجهاد وفقا للمرحلة والفئة التي يجاهدها، ففي المرحلة الأولى جهاد حجة وإقناع، وجهاد المرحلة الثانية جهاد سيف وقوة، أما الفئات التي يجاهد فكفار معلومون، ومنافقون مستخفون، والله كاشفهم، ثم يبين الله تعالى مصيرهم فلو عفوت عنهم ونجوا من عقوبة الدنيا فلن يصفح الله عنهم، ولن ينجيهم من عذاب الآخرة الدائم المستمر.

زاد الرازي: الآية تدل على وجوب جهاد الكفار وهذا معلوم، أما مجاهدة المنافق – وهو الذي يستر كفره وينكره بلسانه– فلا تجوز محاربته إلا بإظهار الحجة أو بترك الرفق واللين أو بالانتهار[٢]. وقيل: بلغ الرفق مداه؛ لذلك أمر الله نبيه بجهادهم بل إن يغلظ عليهم بإقامة الحدود[٣]، وقيل: اللين إنما يكون لأهل الله وهو من تمام عقلك وفضلك وخوفك من الله، وقد أمر الله نبيه باللين في أول الأمر لإزالة أعذارهم فلما بلغ الرفق مداه جازه إلى الغلظة، اغلظ: كن شديدا بالقول والفعل بالتوبيخ والزجر والهجر، ومأواهم جهنم وبئس المصير: جزاؤهم بسبب ما قدموا من ذنوب وإساءة إلى أولياء الله[٤].

إن إجماع المفسرين كان على أن جهاد المنافقين بالحجة والبرهان وجهاد الكفار بالسيف، ومما يوجب الذكر هنا، أن الجهاد بالسيف لا يكون إلا لمن جاهر بالكفر والإيمان، أما من استتر كفره فله حكم آخر من تدرج في الحجج والشدة حتى يصفو أمره فإما أن يكون مؤمنا حقا فيعامل

---

[١] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج٩، ص ٥٣٢٧-٥٣٤٠.

[٢] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج١٦، ص ١٣٧.

[٣] انظر، السيوطي، الدر المنثور، ج٧، ص ٤٤٢-٤٤٣.

[٤] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٨، ص ٥٤٧.

باللين والرفق، وإما أن يكشف أمر كفره فيصبح عدوا يستحق القتال، وهذا من تلطفه تعالى بنبيه الكريم أن بين له مواضع الرفق واللين كما بين له مواضع الشدة والغلظة.

ومن تلطفه كذلك أن حذره من وجود فئة جديدة هي فئة المنافقن وبين له كيفية كشف هذه الفئة، اما التلطف في التراكيب فيجنى من قوله"يا أيها: أداة نداء للبعيد، ثم للقريب، ثم أداة تنبيه، إعلاء من شأن النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم، وقيل: مناديا بأداة التوسط إسماعا للأمة الوسطى، تنبيها على أنهم هم المنادون[١] النبي: النبي– صلى الله عليه وسلم– يرسل لأمة مؤمنة، والرسول– صلى الله عليه وسلم – رسول في أول دعوته نبي في آخرها – كما تقدم في الشاهد السابق –أما مناداته بالصفة "النبي" فهذا مما خص به الرسول – صلى الله عليه وسلم دون غيره من الرسل والأنبياء.

ومن تلطفه به أن خصه بخطاب له وحده لا يشترك معه غيره إعلاء وتكريما له – صلى الله عليه وسلم– وقيل: إن هذا الوصف دال على الرفعة والغلبة، وأنه لا يتعقبه إلا ما له شأن عظيم ليعلم بأخبار إلهية مبنية على الإحكام والعظمة المثمرة للغلبة، أما وصف الرسالة فيغلب فيه الرحمة فيكثر إقباله على اللين والمسايسة نظرا إلى وصف الربوبية[٢]، جاهد: أمر يفضي إلى التكليف، وصيغته تفيد المشاركة، وهذا متناسب مع حال الكفار والمنافقين فمنك الجهاد ومنهم المقاومة والمحاربة، وكلا الحالين مستمر مشترك، الكفار: مفعول به، والمنافقين: معطوف على الكفار، واغلظ: أمر معطوف على جاهد، أما الفعل" جاهد" فبصيغة المشاركة لأن الجهاد من الرسول – صلى الله عليه وسلم – والمقاومة من الكفار؛ أي أن الأمر باتجاهين، وأما الفعل "اغلظ" فليس مثله لأن الغلظة باتجاه واحد من الرسول – صلى الله عليه وسلم – عليهم،

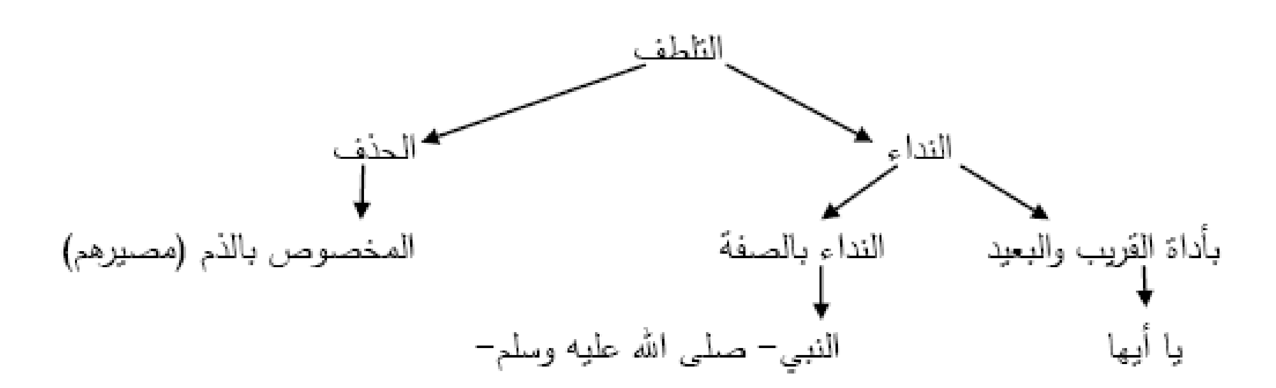
---

[١] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٥٤٧.

[٢] البقاعي، المرجع السابق، ج٨، ص٥٤٧.

عليهم: جار ومجرور يفيد الاستعلاء المجازي، والغلظة عليهم من لينـك لله وخشـيتك منـه[١] ومأواهم: منزلهم في الآخرة، هو جهنم، أما الواو فهي استئناف، أو تنبيه لفعل محذوف تقـديره اعلم[٢]، والجملة اسمية لإطلاق الزمن، لتبين حالهم في الآخرة فهم في ديمومة جزاء ما عملـوا في الدنيا، بئس المصير: واو عطف، ثم فعل وفاعل، والمخصـوص بالـذم محـذوف تقـديره مصيرهم، الحذف هنا تنقيصا من شأنهم، فالحذف وقع لما هو معلوم من السياق، والآية الكريمة من المتشابهات، سورة التوبة وسورة التحريم، أما المفسرون فلم يوردوا تفاسير مختلفة لها فـي كل سورة.

والتلطف يجنى من الخطاب بـ"يا أيها" قيل: خطاب المدح بـ"يا أيها الرسول" أو "يا أيها النبي" فالخطاب بالنبي – صلى الله عليه وسلم– في محل لا يليق به الرسول[٣].



الخطاب بالأفعال: الماضي والمضارع والأمر:

الخطاب بالماضي، خوطب الرسول الكريم بالفعل الماضي في ثلاثة وتسعين موضـعا، تخيرت شاهدا على كل تصريف.

---

[١] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٥٤٧.

[٢] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٤، ص ١٣٥، السمين، الدر المصون، ج٦، ص ٨٦.

[٣] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج٢، ص ٢٢٩.

الشاهد الأول

الخطاب بالماضي (ثبتناك).

قَالَ تَعَالَى:﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾الإسراء: ٧٤

لولا تثبيتنا لك وعصمتنا، لقد كدت تركن إليهم: لقاربت أن تميل إليهم وهذا تهييج من الله وفضل وتثبيت وفي ذلك لطف بالمؤمنين[١]، في هذه الآية الكريمة تعريف للأمة لئلا يركن أحد للمشركين[٢]، وفي الآية إشارة إلى محاولات الكفار في التاثير على الرسول – صلى الله عليه وسلم[٣].

من كمال لطف الله تعالى برسوله – صلى الله عليه وسلم – أن عصمه من الميل إلى المشركين لا سيما أن منهم بعض أهله، فحماه من الركون إليهم أو حتى المقاربة من الميل والركون.

قيل: في هذه الآية دليل على ما خص به الرسول – صلى الله عليه وسلم – من الفضائل، في شرف جوهره وزكاء عنصره، ورجحان عقله؛ لأنها دلت على أنه – صلى الله عليه وسلم – لو وكل إلى نفسه، وما خلق في جبلته من الغرائز الكاملة والأوصاف الفاضلة، لم

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٥٠٢-٥٠٣، الفخر الرازي، ج٢١، ص ٢٢-٢٣، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٦، ص ٦٢، البقاعي، نظم الدرر، ج١١، ص ٤٨٦-٤٨٧، الألوسي، روح المعاني، ج١٥، ص ١٢٨-١٢٩.

[٢] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٦، ص ٦٢.

[٣] انظر، السيوطي، الدر المنثور، ج٩، ص٤٠٦-٤٠٨، جاء المشركون إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم وقالوا له: تمسح بآلهتنا لئلا تمسك بسوء، وقيل: طلبوا إليه أن يتمسح بها ليدخلوا الإسلام، وكان الرسول– صلى الله عليه وسلم محب لدخولهم في دينه، لا سيما أنهم بعض أهله، وقيل: هم ثقيف، قالوا: ندخل في دينك بعد أن يهد إلى الآلهة، فامهلنا عاما. وبكلا القولين عصمة الله لرسوله مانعة.

يتداركه بما منحه من التثبيت زيادة على ذلك حال النبوة، لم يركن إليهم وهم أشد الناس أفكارا وأصفاهم أفهاما وأعلمهم بالخداع، وإنما كان قصارى جهدهم أن يقارب الركون شيئا قليلا، لولا: حرف امتناع لوجود، امتنع الجواب لوجود الشرط، ولولا الشرطية تدخل على جملة اسمية فجملة فعلية لربط امتناع الثانية بوجود الأولى، فامتناع قرب الركون مرتبط بوجود التثبيت، فالتثبيت موجود وقرب انتفاء الركون منتف[١].

إن من لطف الله تعالى برسوله – صلى الله عليه وسلم– أن خصه بصفات خلقية شريفة تدفع عنه خداع المخادعين ومكر الماكرين، زيد عليها تأييد وعصمة من الله تعالى، فلا يستطيع الكفار إمالة قلبه عن وجهة الحق التي هو متوليها، بل حتى ولا يستطيعون مقاربته من الميل أو الركون.

زاد الشعراوي: الآية تحتاط للرسول – صلى الله عليه وسلم– عدة احتياطات، فلم تقل لولا تثبيتنا لك لركنت إليهم، لا بل لقاربت أن تركن فمنعت مجرد المقاربة، أما الركون فأمر بعيد غير متصور من الرسول – صلى الله عليه وسلم[٢].

فمن لطف الله تعالى برسوله – صلى الله عليه وسلم – أن نفى عنه مقاربة الركون إليهم، أما الركون فهو منفي قطعا إن كانت حتى المقاربة منفية، أن: مؤكدة، ثبتناك: ماض مضعف، الماضي للتحقيق والانقضاء لأمر التثبيت، والتضعيف زيادة في التأكيد، نا: ضمير متصل فاعل لفعل التثبيت، بصيغة الجمع؛ إذ إن فاعله هو الله تعالى، والتثبيت صادر من عظيم في حق عظيم؛ لذا جيء بصيغة الجمع، والكاف: ضمير متصل قصد به سيدنا محمد، عقب

---

[١] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج ١١، ص ٤٨٦–٤٨٧، والشعراوي، خواطر حول القرآن، ج١٤، ص٨٦٩٠–٨٦٩١.

[٢] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج١٤، ص ٨٦٩٠–٨٦٩١.

بالضمير لتعقيب التثبيت، المصدر المؤول: مبتدأ خبره محذوف تقديره موجود، لقد: اللام واقعة في جواب الشرط، قد: أداة تحقيق، كدت: من أفعال المقاربة، والتاء اسمها، في توظيف الفعل كاد نفي فكاد فعل مقاربة من الحدوث، لكن الشيء لم يحدث، بل إن الله تعالى تلطفا برسوله ينفي عنه حتى المقاربة، تركن من الركون: هوالميل إلى الشيء والاطمئنان إليه[١]، وقيل: هو أدنى ميل[٢].

شيئا: مصدر مفعول مطلق[٣]، قليلا: نعت منصوب، وقيل: مصدر صفته محذوفة تقديرها شيئا قليلا من الركون[٤]، تأكيد لأن الميل حتى اليسير منه لم يقع، فهو لم يمل ولم يهم بإجابتهم ولم يكد، وقيل إليهم لا إلى إجابتهم ما يدل على أنه بمعزل عن الإجابة في أقصى الغايات؛ لأن عصمة الله تعالى له مثبتة، والعصمة بتوفيق الله ولطفه[٥]، زيد أيضا أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان يأتي على نفسه في دعوته قومه، فالله يخبر أن ما يأتي به محمد مما لا يوافق هواكم هو من عند ربه فاعذروه، ولا ذنب له فيما خالفكم به[٦].

مما تقدم فإن التلطف في توظيف لولا، هي أداة امتناع لوجود، فامتنع الركون لوجود التثبيت، وفي توظيف كاد، وهي فعل مقاربة، وبنفي وقوع الشيء، فالرسول – صلى الله عليه وسلم – قارب من الميل إليهم لرغبته في دخولهم الدين ولم يمل، وفي هذا امتداح لخلقه الكريم وسجاياه الطيبة التي حباه الله تعالى بها، والتلطف في توظيف (إليهم) دون غيرها، قيل: دلالة

---

[١] انظر، لسان العرب، مادة ركن.

[٢] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج١١، ص ٤٨٦-٤٨٧.

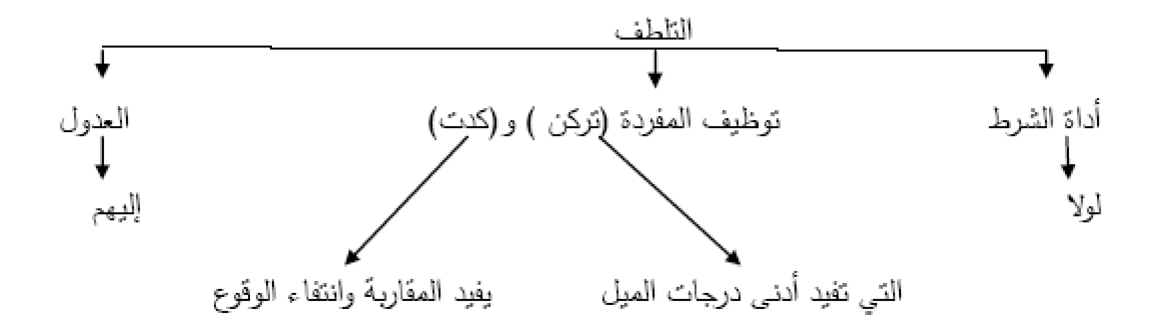
[٣] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٥، ص ٤٧٨.

[٤] انظر، السمين، ج٧، ص ٣٩٣٧.

[٥] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج١٥، ص ١٢٨-١٢٩.

[٦] انظر، اشعراوي، خواطر حول القرآن، ج١٤، ص ٨٦٩٠-٨٦٩١.

على أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – في أقصى الغايات عن الإجابة إليهم[١].



الخطاب بالفعل المضارع:

خوطب بالفعل المضارع في مئتنين وأربعة وتسعين موضعا.

الشاهد بالفعل المضارع (تعلم).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾التوبة: ٤٣

كناية عن الجناية؛ لأن العفو رادف لها ومعناه أخطأت، لم أذنت لهم: بيان لما كنى عنه بالعفو، ومعناه: مالك أذنت لهم بالقعود عن الغزو حين استأذنوك، واعتلوا لك بالعلل، وهلا استأنيت بالإذن حتى يتبين لك من صدق في عذره ممن كذب فيه[٢].

نزلت الآية الكريمة إثر واقعة تبوك، التي تخلف بها ثلاثة من المسلمين، بعد استئذانهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالقعود، والله تعالى ينبه ويوجه رسوله –صلى الله عليه وسلم– إلى أن يتبين صدق أعذارهم قبل إعذارهم.

---

[١] انظر، الألوسي، المرجع السابق، ج١٥، ص١٢٩.

[٢] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص١٦٣-١٦٤.

زيد في تفسيرها: "عفا الله عنك" مبالغة في تعظيم وتوقير الرسول – صلى الله عليه وسلم، فقد أذن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لهم بناء على الاجتهاد، والله تعالى لم يمنعه من الاجتهاد مطلقا عندما خاطبه بـ"لم أذنت لهم" بل قال "حتى يتبين لك" أي أن الحكم ممدود إلى غاية يجب انتهاؤه عندها، وقد تدل هذه الآية على الاحتراز عن العجلة ووجوب التثبت والتأني[١].

تجد الباحثة أن المفسر يحدد اجتهاد الرسول – صلى الله عليه وسلم– بغاية هي تبين الذين صدقوا في عذرهم ممن كذبوا به، والراجح في الأمر أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أذن لهم لحكمة توافق أمر ربه، فالرسول – صلى الله عليه وسلم– في جبلته، من الصفات والسجايا الكاملة ما يمكنه من تمييز خداع المخادعين ومكر الماكرين، وإن خفي عليه أمر أوضحه له الله بوحيه.

إن هذه الآية عتاب للرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم، وحاشاه أن يعاتب، لأن له أن يفعل ولا يفعل ما يشاء مما لم ينزل به وحي، فقد أذن لجماعة من المنافقين تكرما وتفضلا لأنه كان يختار الأيسر من الأمور، ولو لم يأذن لهم لقعدوا دون إذن؛ لأنهم كاذبون في إظهارهم الطاعة والمشورة، فالعفو هنا ليس عفوا عن ذنب، إنما هو إعلام من الله أنه لا يلزمه ترك الإذن لهم[٢]، أما قوله تعالى "عفا الله عنك" فهي افتتاح كلام، أعلم الله رسوله –صلى الله عليه وسلم– ألا حرج عليه فيما فعله من الإذن لهم، لا سيما أن جرت عادة العرب التخاطب مع من يعظمونه ويرفعون قدره، بالدعاء له بالخير كقولك: أصلح الله الأمير، أو أعزك الله[٣].

---

[١] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج ١٦، ص ٧٥-٧٦.

[٢] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٥، ص٤٨-٤٩.

[٣] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٥، ص ٤٨-٤٩، والثعالبي، الجواهر الحسان، ج٣، =

يعظم الله تعالى رسوله – صلى الله عليه وسلم– ويوقره بجملة من جمل تخاطب العرب مع من يعظمون، فمن لطفه به أن عظمه بصيغة مخصوصة معروفة في قومه، أما العفو فلم يكن لذنب قد وقع بل هو تأييد من الله وتعظيم وتوقير، فما كان للرسول – صلى الله عليه وسلم– الكريم الذي علمه الله وأدبه بأدبه أن يخالف أمره.

قدم العفو على العتاب إكراما له، ولم يكن له ذنب، فقد أذن لهم ولو لم يأذن لهم لقعدوا؛ إذ إنهم كانوا قد أضمروا أن سيقعدون إن أذن لهم أو لم يأذن، "وتعلم الكذبين" بأن لو لم يأذن لقعدوا دون اعتبار أو إذن فيتبين كذبهم[١].

إن للمفسرين آراء وإن اختلفت فإنها تلتقي في نفي وقوع الذنب من الرسول – صلى الله عليه وسلم.

عتاب على لذيذ الخطاب على الاسترسال في اللين لهم والائتلاف وأخذ العفو وترك الخلاف إلى هذا الحد، فقال مؤذنا بأنهم ما تخلفوا إلا بإذن من الرسول – صلى الله عليه وسلم، فقدم الدعاء له لشدة الاعتناء بشأنه واللطف به – صلى الله عليه وسلم – لم أذنت لهم: في التخلف عنك تمسكا بالرفق واللين لما جبلت عليه من محبة الرفق، هذا كان أول الدين أما الآن فأنت مأمور بالإغلاظ على المنافقين بعد أن علا شأن الدين، أما ما فعله الرسول من الإذن لهم فهو حسن موافق لأمر الله[٢].

إن صنيع الرسول لم يكن إلا بما يوافق أمر الله تعالى، بل إن الله تعالى يؤكد ذلك في

=ص ١٨٣-١٨٤، والبقاعي، نظم الدرر، ج٨، ص ٤٨١-٤٨٨، والألوسي، روح المعاني، ص ١٠٧-١٠٩.

[١] انظر، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٣، ص ١٨٣-١٨٤، والبقاعي، نظم الدرر، ج٨، ص ٤٨١-٤٨٨.

[٢] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٨، ص ٤٨١-٤٨٨.

الآية التالية بقوله ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ التوبة: ٤٧؛ أي أن الرسول – صلى الله عليه وسلم– قد أصاب في إذنه لهم بالقعود[١].

عتاب لطيف من اللطيف الخبير سبحانه على ترك الأولى وهو التوقف عن الإذن إلى انجلاء الأمر وانكشاف الحال، فلمَ سارعت إلى الإذن لهم ولم تتوقف حتى انكشاف الأمر، كما هو لائق بشأنك الرفيع[٢]، قيل: الرسول – صلى الله عليه وسلم– معصوم بفطرته، والله تعالى يؤيده بصواب حكمه، لكن كان عليه أن يقدم البيان العقلي للناس لأنه أسوة فلا يأتي أحد بعده ليفتي في أمر الدين دون تبين من القرآن والسنة، فالعفو في شكلية التبيين؛ إذ يتوجب التبيين ثم الإذن، فلو لم يأذن لهم لقعدوا وانكشفوا لكن بإذنه لهم أعطاهم العذر والستر[٣].

لم يذنب الرسول – صلى الله عليه وسلم –على حد قول بعض المفسرين – فمن غير المعقول أن يعفو الله عنه ثم يعاتبه ثم يعود ليؤيده من جديد، بل إن في الآية الكريمة تأييد لرأيه، بل تقديم للعذر والتعليل المؤكد لصواب هذا الرأي، لكن المسألة في توجيه الله تعالى لرسوله – صلى الله عليه وسلم، أن يقدم للناس سببا منطقيا مقنعا لاتخاذه هذا الرأي؛ إذ إن الرسول أذن لهم بفطرته السليمة التي وجهته إلى هذا القرار، وهذا أمر له وحده ولا يكون لغيره، فمن سيكون بنقاء فطرته وصفاء سجاياه ليحكم دون أدلة وبراهين؟ فمن الأولى أن تقدم تفسيرا للناس مبنيًا على أدلة ليكون قدوة، ويكون معلما للناس من بعده.

فالتلطف في المعاني متحقق من توجيه الله لرسوله –صلى الله عليه وسلم– وتأييد قراره الذي أقره بفطرته السليمة، أما التلطف المتحقق في التراكيب فيجنى من قوله "عفا" محا الله عنك،

---

[١] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج ٨، ٥١٤–٥١٥.

[٢] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج١٠، ص ١٠٧–١٠٩، والسيوطي، الدر المنثور، ج٧، ص٣٩١–٣٩٢.

[٣] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج ٨، ٥١٤–٥١٥.

والعفو: المحو والطمس، والعفو: التجاوز عن الذنب وترك العقاب[١]، والماضي لانتهاء الأمـــر وانقضائه، الله: فاعل مرفوع، ذكر لفظ الجلالة تكريما وتلطفا بالرسول – صلى الله عليه وسلم- فقد جاء العفو من عنده، ليبعث في فؤاد الرسول الطمأنينة قبل البدء بالعتاب – إن صح أن فـــي الآية عتابًا- ومن تلطفه أيضا بالرسول – صلى الله عليه وسلم- أن ساق له جملة هـــي عنـــد العرب من الجمل التي يخاطب بها الأمراء والملوك من باب تعظيمهم، فالتلطف من وجهتـــين، الأولى: خطاب التعظيم والتوقير له – صلى الله عليه وسلم – والثانية: أن كلمه ببعض كلامـــه، وهذا يكون في حال قرب المخاطب منك، فإن كان المخاطب حبيبا أو قريبا من نفسك خاطبتـــه بمفرداته هو تحببا.

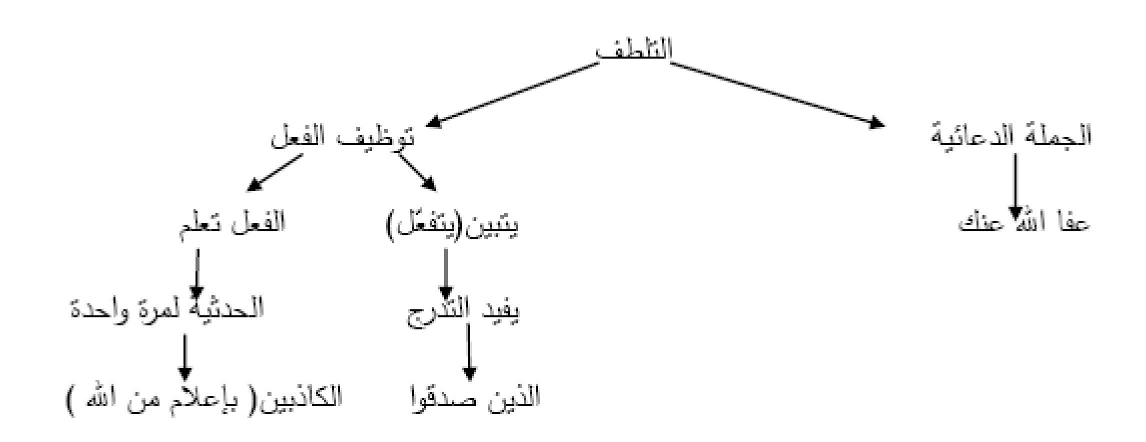
لم أذنت لهم: لام الجر دخلت على ما الاستفهامية وحذفت ألفها، واللام الثانية: للتبليـــغ، والضمير المجرور لجميع من أشير إليه، فقد توجه الإنكار إلى الإذن باعتبار شـــموله للكـــل[٢]، "حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين" حتى: حرف جر يفيد انتهاء غاية، هذه النهاية هـــي التبين والتحقق، الذين صدقوا: عبر عن الفريق الأول باسم موصول، وصلته فعـــل دال علـــى الانقضاء والتمام، أما الفريق الثاني فقد عبر عنه باسم الفاعل المفيد للدوام؛ لأن ما صدر مـــنهم وإن كان كذبا حادثا متعلقا بأمر خاص إلا أنه جار على عادتهم المستمرة، ناشئ عن رســـوخهم في الكذب، أما توظيف الفعل (يتبين) مع الحديث عن الصدق فهو تعبير عن ظهـــور الصـــدق بالتبين، وتوظيف الفعل (تعلم) عند الحديث عن الكذب؛ لأن الخبر صدق أو كذب، أي احتمـــال عقلي، فأسند العلم للرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم- دون المعلومين لأنه علم بهم وآخذهم

---

[١] انظر، ابن منظور، مادة عفو.

[٢] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٤، ص ١٠٤، والألوسي، روح المعاني، ج١٠، ص ١٠٧-١٠٩، والسمين، الدر المصون، ج٦، ص ٥٦-٥٧.

بموجب علمه[١]، فالتبين من جهة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليميز الذين صدقوا في عذرهم وخلصوا في إيمانهم، أما علم أمر الكاذبين فأمر قد علمه الرسول – صلى الله عليه وسلم– بما علمه ربه – لا حاجة فيه إلى توكيد والفئة المعنية هي المنافقون. فالتلطف يجنى من الجملة الدعائية المفضية إلى التعظيم والتوقير والتبجيل.



الخطاب بفعل الأمر المتعلق به: صلوا

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾الأحزاب: ٥٦

المعنى قولوا الصلاة على الرسول والسلام، بمعنى الدعاء بأن يترحم الله عليه ويسلم[٢]. هنا فرار من إشتراك الضمير، فإن الله يصلي على النبي – صلى الله عليه وسلم، والملائكة يصلون، والظاهر وجوب الصلاة عليه كلما جرى ذكره[٣]، والآية تتحدث عن شرف النبي –

---

[١] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج١٠، ص ١٠٧-١٠٩.

[٢] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص ٤٩٦.

[٣] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٧، ص ٢٣٩، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٤، ص ٣٥٧-٣٥٩، الألوسي، روح المعاني، ج٢٥، ص ٧٥-٨٧. والشعراوي، خواطر حول القرآن، ج١٩، ص١٢١٤٢-١٢١٤٩.

صلى الله عليه وسلم- وعظيم منزلته، وتحمل معنى إظهار التشريف للرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم- لما له من صلة بالملك الأعظم بما يوحيه إليه من الأمر عن عالم الغيب والشهادة، وقوله "يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه" بعدم الغفلة عن المبادرة إلى إظهار شرفه في حين من الأحيان، ولما كان المراد من الصلاة إظهار الشرف، كان السلام أظهر معنى في ذلك؛ إذ قال "تسليما" أي أظهروا شرفه بكل ما تصل قدرتكم إليه، والمعنى انقادوا لأوامره[١].

إظهار التشريف للرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم- واجب بالقول والفعل، أما القول فهو الصلاة عليه بقول "اللهم صل على محمد" وهذا واجب عند ذكره، أما الفعل فهو بالانقياد له والسير على منهجة وشريعته.

زيد فيها: صلاة الله عليه: هي رحمة منه وبركة[٢] وقيل: هي الثناء عليه عند الملائكة والمغفرة له[٣] وقيل: هي تعظيم له بإظهار دينه وإبقاء شريعته في الدنيا، وهي في الآخرة بتشفيعه بأمته وإبداء فضله على الأولين وتقديمه على كافة المقربين[٤]، أما صلاة الملائكة: فهي الدعاء، وصلاة المؤمنين: هي الدعاء والتعظيم والاستغفار[٥].

من لطف الله برسوله – صلى الله عليه وسلم- أن خصه بصلاة منه تعالى، هذه الصلاة ما هي إلا صلاة تليق بجلاله الأكرم، تزيد من شرف رسوله، وصلاة من ملائكته الأكرمين، تدل

---

[١] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج١٥، ص٤٠٥-٤٠٩.

[٢] انظر، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٤، ص ٣٥٧-٣٥٩، الألوسي، روح المعاني، ج٢٥، ٧٥-٨٧، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج١٩، ص١٢١٤٢-١٢١٤٩.

[٣] انظر، السيوطي، الدر المنثور، ج١٢، ص ١١٦-١٣٥. والألوسي، روح المعاني، ج٢٥، ص ٧٥-٨٧.

[٤] انظر، الألوسي، المرجع السابق، ج٢٥، ص ٧٥-٨٧.

[٥] انظر، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٤، ص ٣٥٧-٣٥٩، الألوسي، روح المعاني، ج٢٥، ص ٧٥-٨٧ والسيوطي، الدر المنثور، ج١٢، ص ١١٦-١٣٥ الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج١٩، ص١٢١٤٢-١٢١٤٩.

على رفيع مكانته، وقد أمر العباد المؤمنين بصلاة عليه لازمة واجبة كلما ذكر؛ لما له من منزلة عظيمة شريفه عند ربه تبارك وتعالى، ومن كان عظيما عند ربه فهو عظيم عند ملائكته، مأمور عباده بتعظيمه وتوقيره ودوام تذكر فضله بالدعاء له وطلب الصلاة عليه من الله تعالى، أما أن يتحول الاعتراف بفضل الرسول – صلى الله عليه وسلم – على أمته إلى أمر تكليف شرعا فهذا من لطف الله وكراماته التي اختص بها رسوله الأكرم.

يجنى التلطف من المعاني جليا، لكن التراكيب كذلك إنما تساق جريا بما تجـري بـه المعاني، فعلى صعيد التراكيب يجنى التلطف بـ"إن الله وملائكته يصلون على النبي"، إن: مؤكد بلاغي، الله: لفظ الجلالة، في محل نصب اسم إن، ذكر الاسم الجليل تشريفا للرسول الكـريم – صلى الله عليه وسلم– وإعلاء من شأنه وقدره.

والخبر محذوف تقديره (يصلي على النبي) وملائكته: عاطف ومعطوف، أما العطف هنا فله تفصيل؛ إذ إنه جمع بين صلاة الله وصلاة ملائكته وهذا لا يكون إلا لله، وليس لنا أن نجمع مع الله تعالى أحدا[١]، وإضافة الملائكة إلى الله تعالى إشارة إلى عظم قدرهم ومزيد شرفهم وهذا من مستلزمات تعظيمه –عليه الصلاة والسلام– بما يصل إليه منهم، فالعظيم لا يصدر منـه إلا عظيم، وفيها تنبيه إلى كثرتهم، فهم جمع كثير لا يحيط بمنتهاه إلا الله، وصلاتهم واصـلة إليـه على مر الأيام والدهور مع تجددها في كل وقت وحين، وهذا أبلغ تعظـيم وأشـمله وأزكـاه[٢] والتعبير بالجملة الاسمية للدلالة على الاستمرارية والدوام وعدم محدودية الزمان، أما عجزهـا فجملة فعلية إذ يقول "يصلون على النبي" فيكون مفادها استمرار الصلاة وتجددها وقتا فوقتـا[٣]

---

[١] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج١٩، ص١٢١٤٢-١٢١٤٩.

[٢] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٢٥، ص ٧٥-٨٧.

[٣] انظر، الالوسي، المرجع السابق، ج٢٥، ص ٧٥-٨٧.

على: حرف جر يفيد الاستعلاء المجازي، النبي: تكريم للرسول - صلى الله عليــه وســلم- أن خوطب بصفة له هي النبوة، والنبي: هو الذي بعث في أمة الإيمان ليثبت دينها ويقوم شــرعها، وهذا الخطاب خاص بالرسول- صلى الله عليه وسلم- وهذا زيادة في التشريف والتكــريم لــه، وخطابه بصفة النبوة متناسب مع معنى الآية التي تهدي إلى وجوب تكريم النبي- صلى الله عليه وسلم- وتوقيره، فإذا كان التشريف والتوقير للرسول - صلى الله عليه وسلم- الكريم متحققًا من الله تعالى، وهو صاحب الفضل والعطاء، فكيف يكون الحال مــن العبــاد وهــم المفضــولون المغمورون بفضل الله ومنة رسوله الهادي -صلى الله عليه وسلم.

"يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه": أي عظموه لوجوب الاقتداء به تعالى، قيل: إن المؤمنين لما سمعوا أن الله وملائكته يعظمون النبي - صلى الله عليه وسلم، لم يدروا ما اللائق منهم فــي تعظيمه، فسألوه - صلى الله عليه وسلم- فأرشدهم إلى قول "اللهم صل على محمد" وقيل إلــى الصلاة الإبراهيمية[١]، يا: النداء للبعيد يفيد التعظيم لفئة المؤمنين، وتعظيمهم من بــاب تعظــيم الرسول - صلى الله عليه وسلم، الذين: موصول مبهم، والإبهام يفيد التكثيــر، آمنــوا: مــاض متحقق منقض، فمن يوقرون الرسول - صلى الله عليه وسلم - جماعة انعقد الإيمان في قلوبهم وتم، صلوا: أمر يفيد التكليف المستمر على وجه الاستقبال، والواو: ضمير متصل عائد علــى الذين آمنوا، عليه: جار ومجرور، والمجرور ضمير عائد على النبي الكريم - صلى الله عليــه وسلم، أما التعبير بالضمير فلأن الخطاب لجماعة المؤمنين، والنبي- صلى الله عليــه وســلم- يبعث في أمة الإيمان، فهو علم ولا نبي لهم غيره معلوم معروف فالضمير إعــلاء مــن شــأن النبي- صلى الله عليه وسلم- لأنه معلوم ضمنا لجماعة المؤمنين، وإعلاء من شــأن المــؤمنين

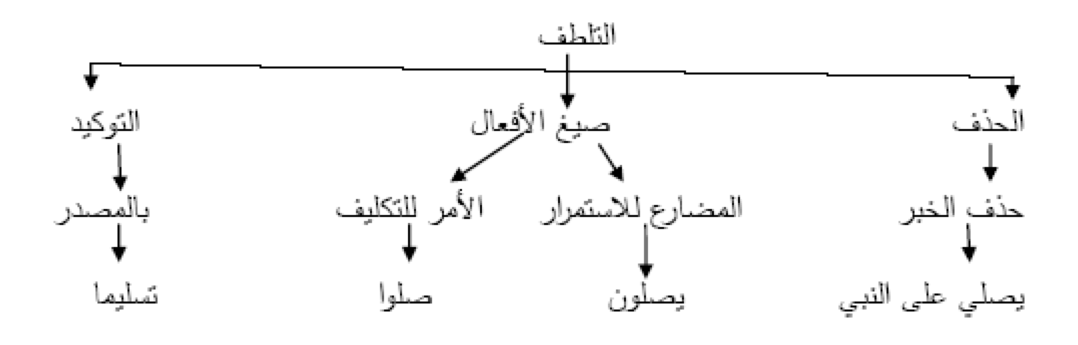
---

[١] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٢٥، ص ٧٥-٨٧.

لأنهم لن يكونوا مؤمنين ما لم يؤمنوا لربهم ولنبيهم.

أما قولنا "اللهم صل على محمد" فطلب من الله أن يصلي عليه، فصلاة العبد عليه ما هي إلا دعاء يتوجه به إلى الله ليصلي عليه، لأنه أعلم بما يليق به، وتسمية العبد مصليا مجاز عن سؤاله الصلاة من الله[١].

وسلموا تسليما: التسليم: الإذعان والانقياد، والسلام: اسم من أسماء الله، أي جعل الله لك وقاية فلا تنال بسوء، أو قولوا: السلام عليك أيها النبي، وهذا في التشهد[٢]. أكد التسليم بالمصدر ولم يؤكد الصلاة؛ لأن الصلاة مؤكدة بإعلامه تعالى أنه يصلي عليه والملائكة يصلون، ولا كذلك التسليم فحسن توكيده بالمصدر؛ إذ ليس ما يقوم مقامه بل وتأكد حتى لا يتوهم قلة أهميته لأنه تأخر[٣]، سلموا: فعل أمر مؤكد بالمصدر (تسليما): هذا مما كلف به المؤمنون، فالصلاة من الله ومن الملائكة، والمؤمنون أمروا بالصلاة عليه، بل ويتعداها إلى التسليم التام الكامل، وهذا للمؤمنين فقط، وليس لله تعالى لأنه هو الخالق الواجب التسليم له، وليس للملائكة المكرمين فهم عباد مكرمون لا يخطئون.



---
[١] انظر، المرجع السابق.
[٢] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج١٩، ص١٢١٤٢-١٢١٤٩.
[٣] انظر، الألوسي، ج٢٥، ص ٧٥-٨٧.

الفصل الثالث:

التلطف في خطاب الرسول محمد- صلى الله عليه وسلم- بصيغ الغائب.

الفصل الثالث:

التلطف في خطاب الرسول محمد- صلى الله عليه وسلم- بصيغ الغائب.

الخطاب بالضمير المنفصل المفرد والمثنى:

ورد الخطاب بالضمير المنفصل (هو) في خمسة مواضع، تخيرت منها شاهدا قرآنيًا، أما الخطاب بضمير المثنى فقد ورد في موضع واحد، تخيرته شاهدا قرآنيا.

الشاهد الأول:

الخطاب بالضمير المنفصل المفرد (هو):

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾الأعراف: ١٨٤

الآية باعثة على التأمل والتدبر في أمر الرسول- صلى الله عليه وسلم، المقصود أولم يتدبروا فيعلموا ما بصاحبهم من جنّة، أي ليس به حالة من الجنون، وكان الكفار ينسبونه إلى الجنون[١] وذلك لسببين أولهما: أن فعله -عليه السلام- مخالف لهم، فهو معرض عن الدنيا مقبل مقبل على الآخرة، وثانيهما: أن الرسول - صلى الله عليه وسلم- كانت تغشاه حالة عجيبة عند نزول الوحي عليه، فيتغير لونه ويصفر، وتعرض له حالة تشبه الغشي، فالجهال كانوا يقولون إنه جنون، والله يبين في هذه الآية أن ليس به نوع من الجنون؛ لأنه كان يدعوهم بالدلائل

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص ٨٦، والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج١٥، ص ٧٩، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٤، ص ٤٢٩، والسيوطي، الدر المنثور، ج٦، ص ٦٩١-٦٩٢ والألوسي، روح المعاني، ج٩، ص ١٢٧-١٢٨، والثعالبي، الجواهر الحسان، ج٣، ص ٩٨، يقال إن الرسول - صلى الله عليه وسلم- علا الصفا فدعاهم فخذا فخذا يحذرهم بأس الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، لأنه بات يصوّت إلى الصباح.

القاطعة والبينات الباهرة، بألفاظ فصيحة عجز الأولون والآخرون عن معارضتها[١].

تتضمن الآية معنى الدفاع عن الرسول – صلى الله عليه وسلم، وذلك بدعوة الكفار إلى التأمل والتفكر في شخصية الرسول – صلى الله عليه وسلم، لا سيما أن قد عاش بينهم وقد عرفوه قبل الرسالة بل هم من الشاهدين على رجاحة عقله وتمام خلقه، والآن يتهم بالجنون لأنه يقول بما لا يتفق مع أهوائهم، فالله يدحض عن رسوله – صلى الله عليه وسلم– هذه التهمة، بأن يوجههم إلى التفكر وإعمال العقل والتروي قبل إصدار الحكم عليه، فليس مثله من يتهم بهذه التهمة.

كان الرسول – صلى الله عليه وسلم– حسن الخلق طيب المعشر مواظبا على أعمال حسنة صار بسببها قدوة للعقلاء، ومثله لا يمكن أن يوصف بالجنون، وإذا ثبت هذا، ظهر أن اجتهاده على الدعوة إنما كان لأنه نذير، أرسله رب العالمين لترهيب الكافرين وترغيب المؤمنين، يقولون: إنه مجنون ويستأمنونه على أموالهم، ويلقبونه بالصادق الأمين، ويقولون: ساحر، فلماذا لم يسحر لسادة قريش فيؤمنون به وبرسالته؟[٢].

الرسول – صلى الله عليه وسلم– معصوم بالخلق الحسن، ومن تلطف الله تعالى به أن جعل في خلقه الكريم حجة بالغة تدحض عنه تهم المتهمين.

أما التلطف في التراكيب فيجنى من قوله: أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة، الهمزة: للاستفهام الإنكاري[٣]، والانكار يفيد التوبيخ[٤]، أما الاستفهام فللتنبيه، وأما الإنكار فلاتهامهم

---

[١] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج١٥، ص ٧٩.

[٢] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج٧، ص ٤٤٩٢–٤٤٩٤.

[٣] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٣، ص ٢٠٥.

[٤] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٩، ص ١٢٧–١٢٨.

الرسول – صلى الله عليه وسلم- بالجنون وأما التوبيخ فلعدم إعمالهم العقل – ولــو باليســير- ليتعرفوا ظلمهم وكذب ادعائهم، لم: حرف نفي وقلب وجزم، يتفكروا: مضارع مجزوم، والواو: ضمير متصل في محل رفع فاعل، أما الإشارة إليهم بالضمير فمن باب تحقيرهم والتقليل مــن شأنهم، والتفكر: هو إعمال الخاطر في الأمر[١] أما صيغة (تفعّل) فتفيــد التــدرج؛ لأن إعمــال الخاطر في الأمر يحتاج وقتا للتفكير في حيثيات الأمر وتقبله تدريجيا، والمعنى الحــث علــى التفكر في شخصية الرسول- صلى الله عليه وسلم، هل يصح اتهامه بهذه التهمــة لا ســيما أن عرفتم عنه ما قد عرفتم من رجاحة العقل والصفات الحميدة التي لا تجتمع مع الجنون في نفس واحدة.

والدفاع عن الرسول – صلى الله عليه وسلم- جاء فيها مستندا إلــى أدلــة الاســتدلال العقلي، والمعنى أو لم يتفكروا فيعلموا، أي أن المعطوف محذوف[٢]. والجملة مضمونها مسبب ذكر سببه[٣]، فتفكرهم سبب ليعلموا، والحذف مفاده وضوح الأمر والســخرية مــنهم، فــالامر واضح لأن الرسول لا تخفى رجاحة عقله على أحد، قيل: الوقف على قوله "أولم يتفكــروا" ثــم الابتداء بالنفي " ا بصاحبهم من جنة"[٤] ما: نافية، بصاحبهم: جار ومجرور في محل نصب خبر ما[٥]، الباء تفيد الظرفية، صاحبهم: المقصود الرسول – صلى الله عليــه وســلم، والصــاحب:

---

[١] انظر، ابن منظور، مادة فكر.

[٢] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج١٥، ص ٧٩، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحــيط، ج٤، ص ٤٢٩.

[٣] انظر، أبو شادي، الحذف البلاغي، ص ١٣٦.

[٤] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٤، ص ٤٢٩، الثعــالبي، الجــواهر الحســان، ج٣، ص ٩٨، الألوسي، روح المعاني، ج٩، ص ١٢٧-١٢٨، والسمين، الدر المصون ، ج ٥، ص ٥٢٥-٥٢٦.

[٥] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٣، ص ٥٠٢.

المعاشر[١]، أما توظيف هذه المفردة دون سواها حتى يكون القصد الذي طالت خبرتهم به؛ لأنه أمتنهم عقلا وأفضلهم شمائل، ولم يقل برسولي[٢]، وتوظيفها منكرة لأن صحبتهم له تطلعهم على نزاهته عن شائبة مما ذكر والتعرض لنفي الجنون عنه[٣]، وإضافة الصاحب إلى الضمير هم لأن الخطاب لهم بالتفكر والتدبر بأدلة الاستدلال العقلي وفق ما عرفوا عنه من طول خبرتهم وعشرتهم له، فالله لا يدفع عنه التهمة بنسبته إليه كأن يقول رسولي أو نبيي، بل يترك الحكم عليه لهم ولعقولهم بالاستناد إلى معرفتهم وصحبتهم له، التي هي كافية وحدها لدحض هذا عنه.

من جنة، من: حرف جر زائد، جنّة: مجرور لفظا مرفوع محلا[٤]، أما توظيف حرف الجر من الذي يفيد بيان الجنس، فلنفي أي نوع من أنواع الجنون، والجنة: طائف من الجن، وجنن: ستر[٥]، والمقصود استتار العقل أو ذهابه.

إن هو إلا نذير مبين، إن: نافية، هو:ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ، أما توظيف الضمير والمقصود به الرسول – صلى الله عليه وسلم– فزيادة في نسبته إليهم وترك الحكم عليه لهم، فكأن الله تعالى متجرد من معرفته له تاركا أمره إليهم، من باب إثبات الأمر فالرسول – صلى الله عليه وسلم– غير محتاج لدليل إلهي أو نسبة إلى ربه لتثبت رجاحة عقله، بل إن الأمر لا يحتاج إلى قوى فوق بشرية لإثبات ذلك، فلأي منكم أن يحكم عليه وإن كانت معرفته به بسيطة، فما بالكم وقد صحبتموه وعرفتموه بعشرة كافية للحكم عليه، فبمجرد التفكير البسيط في أحواله وسلوكياته وأخلاقه الكريمة، تندفع عنه هذه التهم، فتجريد الرسول – صلى الله عليه

---

[١] انظر، ابن منظور، مادة صحب.

[٢] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٨، ص ١٨٠–١٨١.

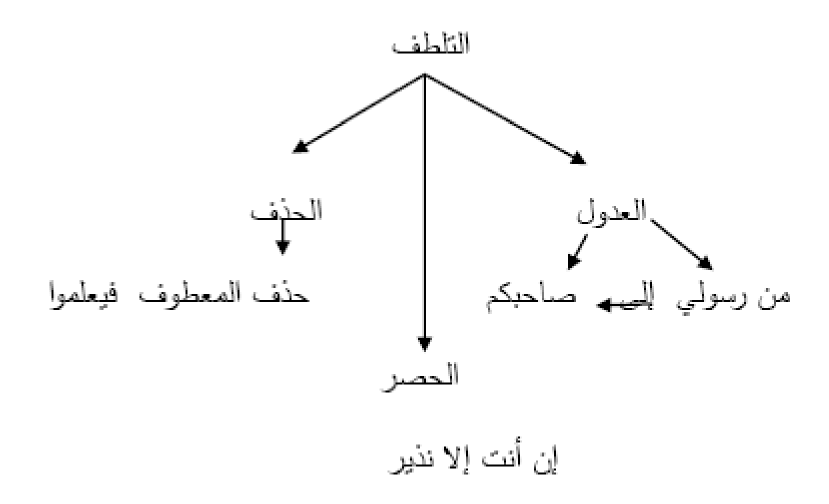
[٣] انظر، الألوسي ، روح المعاني، ج٩، ص ١٢٧–١٢٨.

[٤] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٣، ص ٥٠٢.

[٥] انظر، ابن منظور، مادة جنن.

وسلم- من أي صفة مضافة إلى الله تعالى، أو صفة اتصف بها بعد نزول الوحي في هذه الآيـــة الكريمة ما هو إلا زيادة في الثقة بأن سيكون الحكم عليه صافيا كمـــا أراده الله دون أن يـــذكره بشيء يخص الرسالة وما يتعلق بها.

نذير: مهمة الرسول – صلى الله عليه وسلم، فهو نذير واضـــح جـــاء بالبشـــارة لكـــن الكافرين في غيّهم لا يستحقون البشارة بل يستحقون النذارة[١]، أما صيغة الصفة المشبهة، فلتدل على الديمومة، فالرسول دائم الإنذار للكافرين، مبين: ظاهر واضح في أمر الإنذار، أما صـــيغة اسم المفعول، فلتدل على وقوع الأمر، والمعنى وضوح الإنذار وإظهاره فهـــو مبـــين واضـــح للجميع.



الشاهد الثاني:

الخطاب بضمير الغائب المثنى (هما):

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا

---

[١] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج٧، ص ٤٤٩٢-٤٤٩٤.

﴿فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾التوبة: ٤٠

إلا تنصروه فقد نصره الله، الوجه الأول: إلا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد، فدل القول على أن الله سينصره في المستقبل كما نصره في ذلك الوقت[١]، والوجه الثاني: أنه أوجب له النصرة وجعله منصورا في ذلك الوقت فلن يخذل من بعده[٢]، الآية تحث على نصرة الرسول- صلى الله عليه وسلم، فإن لم يتجدد منكم نصرة له فإن الله سينصره، فهو المتكفل به إذ قد نصره في مواضع القلة والانفراد[٣].

إن الله تعالى يعد بالكفالة والنصرة للرسول الكريم، فإن تخلى عنه الناس فإن الله لا يتخلى عنه بل هو حافظه وناصره، فمن نصره وقت لم يكن معه إلا رجل واحد والمقصود هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم- وصاحبه أبي بكر؛ إذ لم يكن معهما في هجرتهما إلا الله، وكان لهذه الواقعة ما لها من خطورة ودنو أجل إلا أن الله قد نصره بها وحفظه من مخاطرها بل جعل من هذه النصرة في هذه الواقعة آيات دالة على وجود الله وتأييده رسوله - صلى الله عليه وسلم.

إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار، أسند الإخراج إلى الكفار، لأنهم هموا بإخراجه فأذن الله له بالخروج فكأنهم أخرجوه، وثاني اثنين: أحد اثنين هو وأبو

---

[١] انظر الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص ١٦١-١٦٢، والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج١٦، ص ٦٤-٧٠.

[٢] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص ١٦١-١٦٢، والبقاعي، نظم الدرر، ج٨، ص ٤٧٢-٤٧٧.

[٣] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٨، ص ٤٧٢-٤٧٧، والثعالبي، الجواهر الحسان، ج٣، ص ١٨٣.

بكرالصديق، والغار: ثقب أعلى ثور وهو جبل يقع يمين مكة مكثا فيه ثلاثا[١]، وقيل: بتمالئهم عليه فكان ذلك سببا في الإذن له بالخروج[٢]، وقيل أسند الإخراج إليهم تذنيبا لهم وإلا فهو مأمور بالخروج[٣]، وقيل كأنهم أعنتوه فخرج، أما خروجه أمامهم فبعينه نصرة له، فقد أراد الحق أن يثبت لهم أنهم لن ينالوا منه لا بتآمر خفي ولا بتساند علني، ثم نصره الله نصرة وهو في الغار، فقصاص الأثر أخبر الكفار أن آثارهما قد انتهت إلى الغار، وأنهما لم يتجاوزاه إلا أن يكونا قد صعدا إلى السماء أو دخلا في جوف الأرض، ومع هذا لم يدخلوا الغار بل لم يفكروا[٤].

إن الله تعالى يثبت للكفار أنه ناصر رسوله – صلى الله عليه وسلم– أبدا؛ إذ يفصل في أزمنة النصرة، فالنصرة الأولى زمن إخراجه، فقد خرج بعد أن تآمروا عليه وأجمعوا أمرهم على قتله، بل رابطوا على بابه، فما كان من الرسول – صلى الله عليه وسلم– إلا أن خرج وحثا التراب فوق رؤوسهم، وهو في ستر من الله لا يرونه، لهذا كان الأمر الإلهي أن يخرج في وقت محدد كما شاء الله لا كما خططوا ودبروا، فهم أرادوا إخراجه، لكن الله تعالى أراد أن يخرج منصورا قاهرا لهم، بأن أحدث من الأمر ما يجعل من خروجه أمامهم حجة بالغة، بينة قاطعة، على أنه محاط بحفظ إلهي لا يستطيعون معه النيل من الرسول – صلى الله عليه وسلم، ثم تأتي

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص ١٦١–١٦٢ والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج١٦، ص٦٤–٧٠، والبقاعي، نظم الدرر، ج٨، ص ٤٧٢–٤٧٧، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٥، ص ٤٤٠–٤٦٠، والسيوطي، الدر المنثور، ج٧، ص ٣٦٢–٣٦٨، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٣، ص١٨٢، والألوسي، روح المعاني، ج١٠، ص ٩٦–١٠٤، والشعراوي، خواطر حول القرآن، ج٩، ص ٥١٢٣–٥١٣٣.

[٢] انظر، البقاعي، المرجع السابق، ج٨، ص ٤٧٢–٤٧٧.

[٣] انظر، الثعالبي، المرجع السابق، ج٣، ص١٨٢.

[٤] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج٩، ص ٥١٢٣–٥١٣٣.

النصرة الثانية من الله تعالى، فقد مكثا في الغار ثلاثة أيام، فأرسل الله الحمام والعنكبوت جنــودا لحفظ الرسول – صلى الله عليه وسلم – وصاحبه، ومن حفظه له ونصــرته إيــاه أن جعلهــم يصلون إلى باب الغار مع قصاص الأثر، بل يخبرهم أن الأثر قد انتهى عند باب الغار، ثم يغيّب عن أذهانهم أن يدخلوا الغار، مع أن الأولى أن يدخلوه.

إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها، لما حزن أبو بكر قال له الرسول – صلى الله عليه وسلم: ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ ونهــاه عــن الحزن مطلقا وذلك يوجب الدوام، بعدم الحزن البتة قبل الموت وعنده وبعده، ثم أنزل الله علــى قلبه السكينة، وكان قلب الرسول – صلى الله عليه وسلم – آمنا مطمئنا[١]، قيل: السكينة: ما ألقي في قلبه من الأمنة التي سكن عندها وعلم أنهم لا يصلون إليه[٢]، وقيل: نصرة أخرى مــن الله نصر نفسي وذاتي[٣]، أما الجنود فهم الملائكة يوم بدر والأحزاب وحنين[٤] وقيل: هي ملائكــة تحرسهم وهم في الغار[٥] زيد فيها: الحمام والعنكبوت مرئيان والله قال "جنود لم تروها" فالجنود لا يعلمهم إلا الله هم حفظة له في هجرته، فمن الذي أغفلهم عن دخول الغار؟ ومن الذي أســاخ أرجل فرس سراقة عندما لحق بهما[٦].

---

[١] انظر، الفخرالرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج١٦، ص٦٤-٧٠، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٥، ص ٤٤٠-٤٦٠، والثعالبي، الجواهر الحسان، ج٣، ص١٨٢، والألوسي، روح المعــاني، ج١٠، ص ٩٦-١٠٤.

[٢] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص ١٦١.

[٣] انظر، الشعراوي خواطر حول القرآن الكريم، ج٩، ص ٥١٢٣-٥١٣٣.

[٤] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص ١٦١-١٦٢، والفخر الرازي، المرجع السابق، وأبو حيان الأندلسي، المرجع السابق، والألوسي، المرجع السابق، ج١٠، ص ٩٦-١٠٤. والسيوطي، الــدر المنثــور، ج٧، ص ٣٦٢-٣٦٨.

[٥] الألوسي، نفسه.

[٦] الشعراوي، المرجع السابق، ج٩، ص ٥١٢٣-٥١٣٣.

إن الله حافظ للرسول – صلى الله عليه وسلم، بل حافظ لصاحبه إكراما له، فأبو بكر مكرم إذ إن الأمر باتخاذه صاحبا في الهجرة إشارة إلى صفاء إيمانه وصدقه وعلو منزلته عند الرسول – صلى الله عليه وسلم، والله مكرمه لإيمانه من جهة ولإكرام الرسول له من جهة أخرى، ومن تكريم الله لأبي بكر أن ذكر بالقرآن بوصفه صاحبا للرسول الكريم، وفي هذا الوصف ما فيه من التشريف والتكريم، بل يتعداه إلى إنزال السكينة على قلبه الذي اضطرب خوفا على الرسول – صلى الله عليه وسلم من أن يؤذى وإلا فهو عارف بأنه معصوم محفوظ من الله، ومما يذكر هنا أن عناية الله ولطفه تعدت نفس الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى معالجة نفس صاحبه بإنزال السكينة وتهدئة روعه الذي ارتاعه على الرسول – صلى الله عليه وسلم– وهذه نصرة أخرى تنضاف إلى ما سبق.

"وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم"، أما كلمة الذين كفروا فهي دعوتهم إلى الكفر، وأما كلمة الله فهي الدعوة إلى الإسلام[١] وقيل: هي واقعة بدر إذ جعل الله كلمته هي العليا[٢] وقيل: هي لا إله إلا الله[٣] وقيل: كلمة الذين كفروا هي كلمة اجتماعهم عليه في دار الندوة[٤].

إن الله تعالى بعد أن ذكر نصرته عبده مفصلا في حيثياتها، فنصرة خارجية ممن تآمروا عليه، وأخرى داخلية نفسية، إذ إنه محيط به بعصمته وحفظه، بل يتعداه إلى الحديث عن المستقبل، فمن ثمار نصرته أن جعل كلمة الكفر دنيئة مهزومة أما كلمة الدين التي احتمل لأجلها

---

[١] الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص ١٦١-١٦٢، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٣، ص ١٨٢، الألوسي، روح المعاني، ج١٠، ص ٩٦-١٠٤.

[٢] انظر، الفخرالرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج١٦، ص ٦٤-٧٠.

[٣] انظر، الثعالبي، المرجع السابق

[٤] انظر، الألوسي، المرجع السابق.

ما قد احتمل من مشاق ومخاطر وصعوبات فهي العليا، وذلك بأن أظهر دينه، بل ختم برسالته الرسالات، وجعلها صالحة لكل زمان ومكان، وجعل له أشرف مكانة بأن أعلى له ذكره، وختم به رسله، بل جعل من الدعاء له – عليه أفضل الصلاة والسلام- فرض عبادة بها يتقرب العبد إلى ربه.

أما التلطف في التراكيب فيجنى من قوله تعالى: "إلا تنصروه فقد نصره الله" إن: شرطية، ولا: نافية، تنصروه: فعل الشرط، والفاء: رابطة لجواب الشرط، قد نصره الله: جملة جواب الشرط، فإن قلت: كيف تكون هذه الجملة جوابا للشرط؟ الجواب هو ما قال به الزمخشري -كما تقدم- من أن فيها وجهان، والراجح هو الوجه الأول الذي يقول به "إلا تنصروه في المستقبل فسينصره الذي نصره عندما لم يكن معه إلا رجل واحد"[١] وقد قال بقوله غير واحد من المفسرين، زيد فيها: إن جواب الشرط محذوف، تقديره إن لم تنصروه فسينصره الله[٢]، وقيل فسينصره بدليل أنه قد نصره، فهذا دليل على الجواب وحين يكون دليل الجواب ماضيا، فإنه أدل على حدوث الجواب[٣]، قيل: التعبير عن المستقبل بالماضي تنبيها على تحقق وقوعه وان ما هو للواقع كالواقع[٤] – تقدم الكلام فيه.

اختلف المفسرون في تفسير جملة الشرط هذه، فالأصل ألا يكون جواب الشرط ماضيا؛ إذ إن الشرط زمانه المستقبل كذا جوابه، فكيف يكون جواب الشرط ماضيا؟ والآراء على تقاربها إنما تقود إلى معنى النصرة الإلهية للرسول – صلى الله عليه وسلم- والوعد بها، فمن نصره في

---

[١] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٤، ص ١٠١، والزمخشري، المرجع السابق، والسمين، الدر المصون، ج ٦، ص ٥١-٥٣.

[٢] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج١٠، ص ٩٦-١٠٤.

[٣] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج٩، ص ٥١٢٣-٥١٣٣.

[٤] انظر، الصعيدي، بغية الإيضاح، ج١، ص ١٦٢.

أصعب الظروف وأحلكها لا يعز عليه نصرته في كل وقت.

"إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين" إذ: ظرف زمان، أخرجه: جملة في محل جر بالإضافة، الذين: فاعل، كفروا: جملة صلة الموصول، ثاني اثنين: حال منصوبة[١]، أما الظرف "إذ" فهو للزمان، والمقصود الإشارة إلى زمان نصرة الله تعالى رسوله – صلى الله عليه وسلم- عندما أخرجه الكافرون من مكة، أخرجه: فعل ومفعول مقدم على الفاعل، والتقديم لضمير المفعول لأنه ضمير عائد على الرسول – صلى الله عليه وسلم، الذي يفضل البشر مكانة ومنزلة، فكيف إن كانوا كفارا ومشركين؟ ثاني اثنين: مضاف ومضاف إليه مجرور، وهو في محل نصب حال، فالحال تصف المفعول وهو الضمير في قوله "أخرجه" فقد خرج – عليه الصلاة والسلام- مصطحبا أبا بكر، والله معهما.

إذ هما في الغار: الجملة بدل من جملة "إذ أخرجه"[٢]، هما: مبتدأ، في الغار: خبر، والجملة في محل جر بالإضافة، الظرف "إذ" بدل بعض من كل، فهذه النصرة وما يليها كلها ترتبت على النصرة الأولى عندما أُخرج من مكة، هما: ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ، والتعبير بالجملة الاسمية يشير إلى إطلاق الزمن، فالمقصود طوال مدة مكوثهما في الغار، لا لحظة دخولهما إياه، في: حرف جر يفيد الظرفية المكانية، والغار: مغارة في الجبل أو كهف[٣].

والتعبير عن الرسول – صلى الله عليه وسلم- وصاحبه بضمير الغائب المثنى زيادة في الإيحاش وإظهار صعوبة الموقف، فهما وحدهما في الغار، والأعداء يطوفون بباب الغار، ويصعدون فوقه، وقصاص الأثر يشير إلى انتهاء الأثر وعدم تجاوزه باب الغار، وهما في وحدتهما والمخاطر محيطة بهما يسمعان كلام الكفار الذي يشير إلى وجودهما في الغار، فينزل

---

[١] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٤، ص ١٠١-١٠٢.

[٢] انظر، المرجع السابق.

[٣] انظر، ابن منظور، مادة غور.

الله نصرته على رسوله – صلى الله عليه وسلم– وصاحبه، بأن أعمى أبصار الكفار عنهما، وأرسل الحمام والعنكبوت، ليذودا عنهما بل أصبحا دليل نصرة آخر ينضاف إلى ما قد سبق[١].

"إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا" بدل ثان من جملة "إذ أخرجوه" لا تحزن: جملة مقولة القول، إن الله معنا: جملة تعليلية[٢] إذ: ضمير هو زمان آخر لنصرة أخرى، هي نصرة نفسية، فبينا هما في الغار حولهما ما حولهما من خطر، يذكر الله حوارهما، فقد شعر الرسول – صلى الله عليه وسلم– بحزن أبي بكر، وقد قال حزنا ولم يقل خوفا لأن أبا بكر إنما كان حزنه خوفا من أن يؤذى الرسول – صلى الله عليه وسلم، لا خوفا على نفسه، ولا خوفا على موت الرسول – صلى الله عليه وسلم؛ إذ إنه عارف أنه معصوم – كما تقدم– أما توظيف المضارع في الفعل (يقول) فلدلالة الاستمرار، فالقول مستمر والنهي له عن الحزن مستمر، لصاحبه: جار يفيد الاختصاص، والصاحب: مجرور وهومضاف، وهو وصف تكريم وتشريف لأبي بكر الصديق، والضمير: في محل جر بالإضافة، والإضافة إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم– زيادة في تشريف أبي بكر الصديق، إن الله معنا: إن مؤكد بلاغي، الله: لفظ الجلالة في محل نصب اسم إن، إما إيراد الاسم الجليل، فلزيادة طمأنة أبي بكر، فمن كان الله معه فأي وحشة تكون له؟.

مما يذكر هنا لفتة إيمانية قال بها الشعراوي: إن الله تعالى لا تدركه الأبصار، فمن كان مع الله غير مدرك بالأبصار[٣]، أي أنهم غير مرئيين من الكفار بسبب معية الله تعالى لهما وهذه من لطف الله بهما.

ومن لطفه أيضا، أن لم يثبت لأحد من الأنبياء أو الرسل معية مع الله تعالى، ومعيته في

---

[١] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج١٠، ص ٩٦-١٠٤.

[٢] انظر، إعراب القرآن الكريم، ج٤، ص ١٠١-١٠٢.

[٣] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج٩، ص ٥١٢٣-٥١٣٣.

هذا المقام للرسول الكريم وقد جيء بضمير المتكلمين "معنا" سدا لباب الإيحاش[١]، وهذه أيضا خصوصية أخرى اختص بها الرسول – صلى الله عليه وسلم– وخطاب ينطوي على لطف دقيق يندرج تحت مظلة التلطف الإلهي في خطاب الرسول – صلى الله عليه وسلم، فكون الله تعالى معهما فعليهما ما عليهما من رحمة ولطف وحماية ونصرة.

"فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها" الفاء عاطفة، أنزل الله سكينته: فعل وفاعل ومفعول، وأيده: معطوفة على أنزل، بجنود: جار ومجرور، لم تروها: جملة صفة لجنود، الفاء حرف عطف يفيد الترتيب والتعقيب، فإنزال السكينة على أبي بكر عقب قول الرسول – صلى الله عليه وسلم– له "لا تحزن" وهذه أيضا من تلطف الله برسوله أن جاءت السكينة عقب قوله لصاحبه مباشرة، والفعل أنزل: لأن السكينة من السماء أي من الله عليهما، الله: لفظ الجلالة في محل رفع فاعل، وذكر الاسم الجليل مرة أخرى، دليل آخر على حفظه لهما وباعثا جديدا على السكينة والطمأنينة، سكينته: السكينة: الوداعة والوقار والأمن[٢]، ونسبة السكينة إلى ضمير عائد على الله تعالى، يضيف إليها قيمة جديدة، فالسكينة معلومة، أما سكينة الله فهي شيء مخصوص يختص به من يشاء، عليه: الجار يفيد الاستعلاء، متناسب مع الإنزال، والهاء: ضمير في محل جر بحرف الجر، والضمير عائد على صاحبه؛ إذ إن الرسول – صلى الله عليه وسلم– كانت له نفس ساكنة مطمئنة لعلمه بأن الله ناصره وحافظه، بدليل أنه كان يطمئن صاحبه فلو لم تكن نفسه قد امتلأت سكينة لما نهى صاحبه عن الحزن بل تعدى ذلك بتذكيره بمعية الله لهما، وأيده: عززه، وتوظيف الفعل بصيغة فعّل لدلالة المبالغة والتكثير، والهاء: ضمير متصل عائد على الرسول– صلى الله عليه وسلم، أما استتار الفاعل وقد ظهر سابقا وهو الله تعالى، فلأنه قد علم مما تقدم، فمن نصره وكان معه في كل حين وأنزل سكينته

---

[١] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج١٠، ص ٩٦-١٠٤.

[٢] انظر، ابن منظور، مادة سكن.

عليه، بات معروفا أن التأييد سيكون منه لا جدال، بجنود: الباء للاستعانة، جنود: منكرة للتكثير، لم تروها: جملة صفة لجنود، لم : جازم، تروها: مضارع مستمر فالجنود مجندون حفظة لهمـــا طوال هجرتهما.

"وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا" الواو: عاطفة، جعــل: مــاض، والفاعل ضمير مستتر عائد على الله تعالى، كلمة: مفعول أول، الذين: مضاف إليه، كفروا: جملة صلة الموصول، السفلى: مفعول ثان، وكلمة الله هي العليا، الواو: واو الحال، كلمة الله: مبتــدأ، هي: ضمير الفصل، العليا: خبر[١]، أي أنها كانت في علو كالزبد، والله جعلها السفلى حتـــى إذا جاء الإسلام ظهر على شيء عال لا سافل، وكلمة الله هي العليا، دون كلمة جعل؛ لأنها العليـــا دون جعل[٢]، وقيل: حذف المقابل للاختصار[٣]. والنية بها مقابلة، والمقابلة: أن يؤتى بمعنيـــين متوافقين أو معان متوافقة ثم بما يقابل ها على الترتيب، والمراد بالتوافق خلال التقابل قد تتركب من طباق وملحق به[٤]. والمقابلة تزيد من طمأنة الرسول – صلى الله عليه وسلم– بأن وعد الله كائن بإعلاء كلمته عليهم وعلى غيرهم، وإسقاط كلمة الكفر.

جعل: ماض يفيد معنى التحول، مما يفيد أن الشرك والكفر كان عاليا لكن علوّه مؤقتـــا، والفاعل مستتر؛ إذ لا غير الله بيده تحويل الأمر من حال إلى حال، كلمة: مفعـــول أول وهـــو مضاف، الذين: اسم موصول في محل جر بالإضافة، أما التعبير عنهم بالاسم الموصول فمـــن باب التحقير للكفر وأصحابه، والتعبير عن الكفر بلفظ الكلمة، لأن الفرق بين الكفر والإيمان هو النطق بكلمة التوحيد، لذلك فسر المفسرون أن المقصود بكلمة الله هـــي قـــول "لا إلـــه إلا الله" كفروا: ماض والفاعل ضمير متصل بالفعل، السفلى: مفعول ثان، والتعبير باسم التفضيل المطلق

---

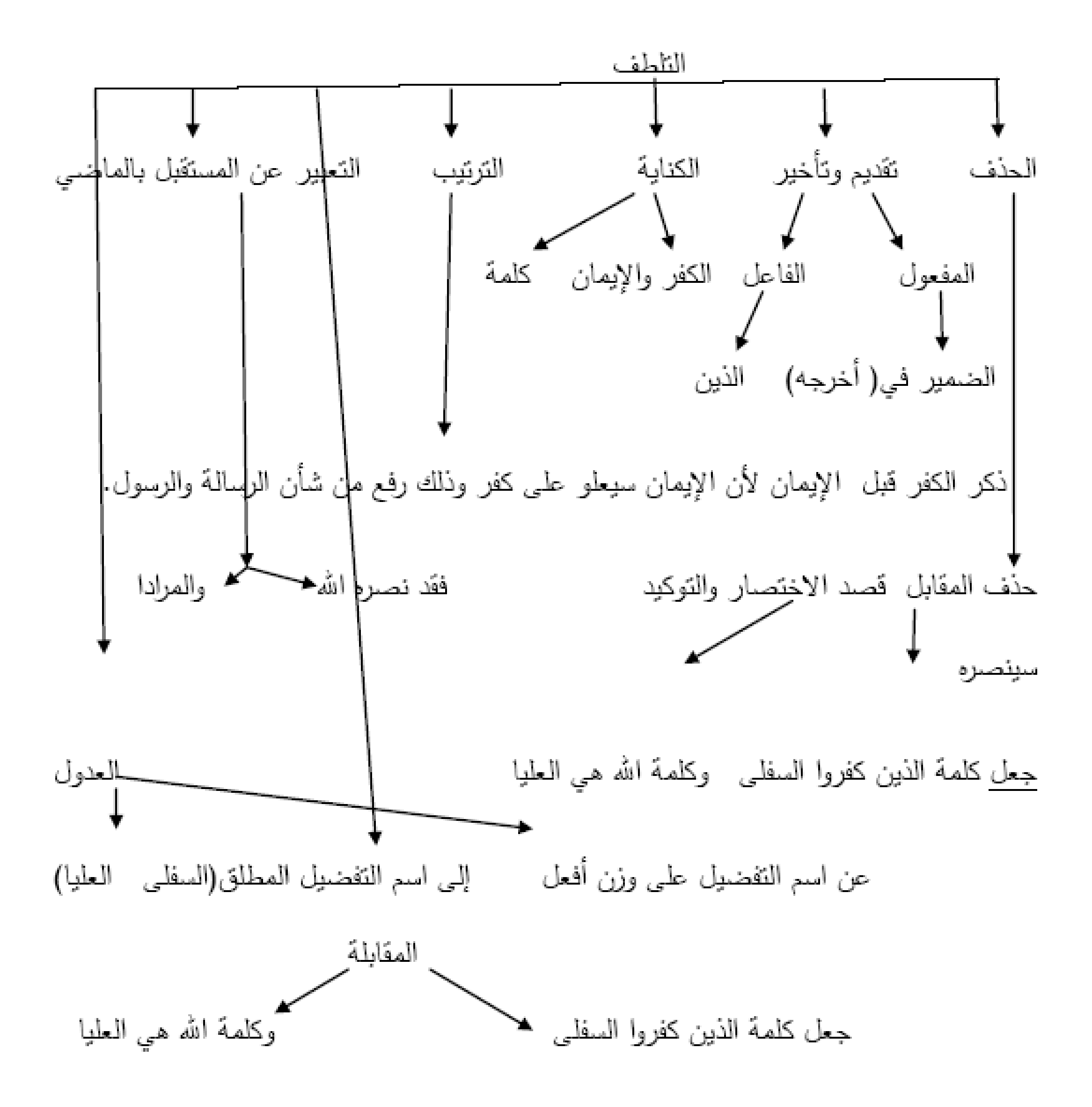
[١] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٤، ص ١٠١-١٠٢.

[٢] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج ٩، ص ٥١٢٣-٥١٣٣.

[٣] انظر، أبو شادي، الحذف البلاغي، ص ١٣١.

[٤] انظر، الصعيدي، بغية الإيضاح، ج٤، ص ١٣، ١٤.

زيادة في التحقير، وكلمة الله هي العليا، الواو واو الحال، كلمة الله: مبتدأ مرفوع، مضافة إلى الاسم الجليل وكل مل ينضاف إليه يكتسب جلالا وعظمة، هي :ضمير فصل، مؤكد بلاغي، العليا: خبر بصيغة اسم التفضيل المطلق زيادة في التشريف والتكريم، وهذا كله من تلطف الله برسوله – صلى الله عليه وسلم– أن بشّره بأن الدين الذي بعث به قد ظهر رغما عن الكافرين، بل سيظهر ظهورا مطلقا بلا منازع.



الخطاب بضمير هاء الغائب مع الأسماء.

خوطب الرسول – صلى الله عليه وسلم– بضمير الغائب المقترن بالأسماء، فخطابه

بضمير الغائب المقترن بكلمة رب، (ربه) ورد في ستة مواضع، وخطابـه بضـمير الغائـب المقترن بكلمة أزواج (أزواجه) ورد في ثلاثة مواضع، أما خطابه بكل من: نفسه، أمره، اسمه، صاحبه، مولاه، فقد ورد كل منها في موضع واحد، تخيرت منها، شاهدين خطابـه بالضـمير المقترن بـ(أزواجه، ومولاه).

الشاهد الأول:

مولاه

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾التحريم: ٤

الخطاب لحفصة وعائشة، على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما، فقـد صـغت قلوبكما: وجد منكما ما يوجب التوبة، وهو ميل قلوبكما عن الواجب في مخالصة الرسول مـن حب ما يحبه وكراهة ما يكرهه، إن تظاهرا: تعاونا عليه بما يسوءه من إفراط غيرة أو إفشـاء سر فلن يعدم من يظاهره، وكيف يعدم المظاهَر من الله، مولاه: وليه وناصره، هو: إيذان بـأن نصرته عزيمة من عزائمه وأنه يتولى ذلك بذاته، وجبريل: ذكر مفردا تكريمـا لـه وتعظيمـا لمكانته عند ربه، وصالح المؤمنين: من صلح منهم وعمل صالحا، وقيل من برئ مـن النفـاق، وقيل الخلفاء منهم، أو الصحابة وقيل الأنبياء، والملائكة: على كثرة عددهم وامتلاء السماء مـن جموعهم، بعد ذلك: بعد نصرة الله وناموسه وصالح المؤمنين، ظهير: فوج لهم مظاهر له فكأنهم يد واحدة على من يعاديه فما يبل غ تظاهر امرأتين على هؤلاء[١].

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٤٨٠-٤٨١. قيل إن الآية الكريمة نزلت في السيدة عائشة وحفصة،=

وعليه فإن الباحثة ترجح أن خطاب الالتفات لأمهات المؤمنين، مرتبط بالآية السـابقة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾التحريم: ٣

فقد تحول من الحديث بصيغة الغائب إلى المخاطب، أما الآية فمتضمنة معنى العتاب لأمهات المؤمنين لارتكابهما ما يوجب التوبة، من ميل عما يحبه الرسول – صلى الله عليه وسلم، وهن الأولى بمراعاة ما يحب، فإن تعاونتا عليه بما يسوءه فإن الله ناصره – وهو كافيه وعاصمه من هذه وغيرها – وجبريل – عليه السلام– كذلك ومن صلح من المؤمنين والملائكة الكرام كل له ظهير، فما مصير أي تدبير أمام كل هذه النصرة.

زيد فيها: التشريف للرسول الكريم بالإقبال على نسائه بالعتاب لأجله قياما عنه بما ربما أزعجه حفظا لخاطره الشريف[١] وقد أعظم الله شأن النصرة على هاتين الضعيفتين للإشارة إلى عظم مكر النساء، أو للمبالغة في قطع حبل طمعهما لعظم مكانتهما عند الرسول – صلى الله عليه وسلم– وعند المسلمين، وكرامة أبويهما في أن تظاهرهما يجديهما نفعا، وقيل المراد توهين أمر تظاهرهما، فكأنه قال: لا يضير كيدهما أمر النبوة في شيء[٢].

يعاتب الله تعالى زوجات الرسول – صلى الله عليه وسلم، تلطفا به إذ استشعر ما في

وحفصة،= =وقد كانتا متقاربتين، وقيل إن الرسول– صلى الله عليه وسلم– أخبر حفصة أن يتولى أمر المسلمين بعده أبو بكر ويليه عمر، وطلب إليها أن تكتم ذلك وما فعلت، بل أخبرت السيدة عائشة. والفخر الرازي، ج٣٠، ص ٤٤–٤٥، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص ٢٨٦–٢٨٧. الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٥، ص ٤٥١–٤٥٢، والبقاعي، نظم الدرر، ج٢٠، ص ١٨٨–١٩٢، والسيوطي، الدر المنثور، ج١٤، ص ٥٨٠–٥٨٣.

[١] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٢٠، ص ١٨٨–١٩٢.

[٢] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٢٥، ص ٥٢–١٥٥.

نفسه، بل راعى خاطره؛ فأنزل آية كريمة في عتابهما على عدم مراعاتهما إياه لا سيما أنهن بنات خير أصحابه فعائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وهذا مما يزيد عليهن العتب، أما كثير نصرته – الذي تقدمت به الآيات– قياسا لأمهات المؤمنين وهن اثنتين، فليندفع عن الرسول – صلى الله عليه وسلم– أي حجة تقول بانشغاله بأهل بيته عن تأدية الرسالة، بل يتعدى الأمر إلى معنى الوعيد إلى كل من تسوّل له نفسه أن يدبّر أمرا أو مكيدة للرسول الكريم، فإذا كان هذا حال زوجتيه الكريمتين اللتين هما أمهات المؤمنين، فما حال غيرهما من الكفار أو المنافقين إن سولت لهم أنفسهم بتدبير ما يضر الرسول – صلى الله عليه وسلم.

أما التلطف في التراكيب فيجنى من قوله تعالى "إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما" إن: شرطية، تتوبا: فعل الشرط، والألف: فاعل، إلى الله: جار ومجرور.

جواب الشرط محذوف تقديره يتب عليكما[١]، وقيل الجواب: كان خيرا لكما[٢]، وقيل: يمح إثمكما[٣]، وقيل: بها وجهان، الاول فقد صغت، والثاني: محذوف تقديره فذلك واجب عليكما[٤]، الفاء: تعليلية، قد: أداة تحقيق، صغت: فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الحرف المحذوف، والتاء: تاء التأنيث الساكنة، قلوبكما: فاعل مرفوع.

تبدأ الآية الكريمة بالشرط، وقد علم الله تعالى أنهن ستتوبان، أما الخطاب بصيغة المخاطب لهما فزيادة في العتاب – كما تقدم– والخبر قد حذف لأن الله تعالى يقبل التوبة من أي عبد تائب، فكيف إن كان هذا العبد ممن يلي ويخص رسوله – صلى الله عليه وسلم؟ فلهن التوبة

---

[١] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج١٠، ص ١٣٣.
[٢] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٣٠، ص ٤٤-٤٥.
[٣] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج ٢٨، ص ١٥٢-١٥٥.
[٤] انظر، السمين الدر المصون، ج١٠، ص ٣٦٥-٣٦٨.

لقربهما منه من جهة، ولصلاحهن من جهة أخرى لا سيما أنهن قد تربين في بيت خير صحابة الرسول بداية، ثم أكملن حياتهن زوجات للرسول الكريم، فقد حازتا الفضل من الجهتين، وإن كان في الثانية فضل يفوق أي فضل، إلى الله: جار يفيد انتهاء الغاية، الله: ذكر الاسم الجليل صراحة لأن الله بداية ونهاية كل غاية، وللتذكير لهن بوجوب الرجوع إلى الله والتوبة إليه؛ ذلك أن مكانتهما من الرسول – صلى الله عليه وسلم- لن تفيد إلا مع الإخلاص والرجوع الصادق إلى الله. ثم يعلل الله تعالى سبب ما يوجب عليهن التوبة، وهو أن صغت قلوبهما، فقد أفشتا سرا أمر أن يحفظ، أما قلوبكما فهي جمع أريد به التثنية، والإتيان بالجمع لكراهة تتالي التثنية[١].

"وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه" الواو: عاطفة، إن: الشرطية، تظاهرا: فعل الشرط مجزوم بحذف النون، وأصله تتظاهرا أسقطت تاؤه إشارة إلى سهولة التظاهر وقلة الأذية للرسول الكريم[٢]، وجاء ذكر الظهر لأنه أقوى الأعضاء وأشدها[٣] عليه: جار يفيد الاستعلاء المجازي أما التعويض عن ذكر الرسول – صلى الله عليه وسلم- بالضمير، لأن الله بتلطفه تعالى به قد كشف له أمر تظاهرهما عليه، ففي الضمير إشارة إلى أن الأمر قد وقع دون علم منه، فجاء التلطف به من جهتين الأولى أن قد كشف له أمرا كان قد خفي عليه، ثم جعل من هذا الكشف إشارة إلى حفظ ربه له فلا يجرؤ من قد فكر في أمر تدبير أمر قد يسوء الرسول – صلى الله عليه وسلم.

وجواب الشرط محذوف تقديره (يجد ناصرا) الفاء تعليلية، وإن: مؤكد بلاغي، الله: لفظ

---

[١] انظر، الفخر الرازي، المرجع السابق، الثعالبي، الألوسي، المرجع السابق، السمين، المرجع السابق، ج١٠، ص ٣٦٥-٣٦٨.

[٢] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص ٢٨٦-٢٨٧، والبقاعي، نظم الدر، ج ٢٠، ص ١٨٨-١٩٢، الألوسي، روح المعاني، ج٢٥، ص ١٥٢-١٥٥، والسمين، الدر المصون، ج ١٠، ص ٣٦٥-٣٦٨.

[٣] انظر السمين، الدر المصون، ج ١٠، ص ٣٦٥-٣٦٨.

الجلالة، اسمها وقد ذكر الاسم الجليل صراحة زيادة في معنى الولاية، أي أن الله لم يوكل أمـــر رسوله – صلى الله عليه وسلم– إلى أحد من ملائكته، بل هو مولاه وناصره، وهـــو: ضـــمير فصل دال على أن الأمر عزيمة من عزائمه وأنه يتولاه بذاته وهذا من تشريفه وتكريمه لــــه[١]، مولاه: خبر والوقف هنا[٢]، وقيل: أقبل عليهما بأداة الشك ثم أكمل بذكر شق الخوف فمن تظاهر عليه فليعلم أن الله وأولياءه أنصار له، هو المنبأ من الله بما يرفع ذكره ويعلي قدره[٣].

"وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير" الواو: عاطفـــة، جبريـــل: مبتـــدأ مرفوع، وقد ذكر منفردا تشريفا له ولمكانته عند ربه، الواو عاطفة، صـــالح المـــؤمنين: اســـم معطوف، صالح: اسم جنس جامع لكل من صلح منهم – وقد تقدم الحديث بهم– وتمت الإضافة للإيمان لأن الإخلاص مسألة قلبية والميل من أمهات المؤمنين إنما كان ميلا قلبيا، ولأن القضية قضية إخلاص قلبي، فقد سبق القول "وإن تتوبا فقد صغت قلوبكما" وصالح المؤمنين والملائكة: معطوف، بعد ذلك: بعد نصرة الله وجبريل وصالح المؤمنين، ظهيـــر: فـــوج مظـــاهر للنبـــي وأعوان له بمعنى الظهراء، وأفردت لأنها بمعنى أنهم يد واحدة[٤]، قيل: الكل بلفظ الواحد مـــن باب يغلب عليه الاسم لا الصفة نحو شاة وإنسان وملائكة[٥]، قيل: ظهير هي خبر لجبريـــل[٦]، قيل في تفسير "بعد ذلك": تنبيه على أن نصرة الملائكة أقوى وجوه نصرته عز وجل، ولا خفاء

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ٤٨٠-٤٨١.

[٢] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج١٠، ص ١٣٣.

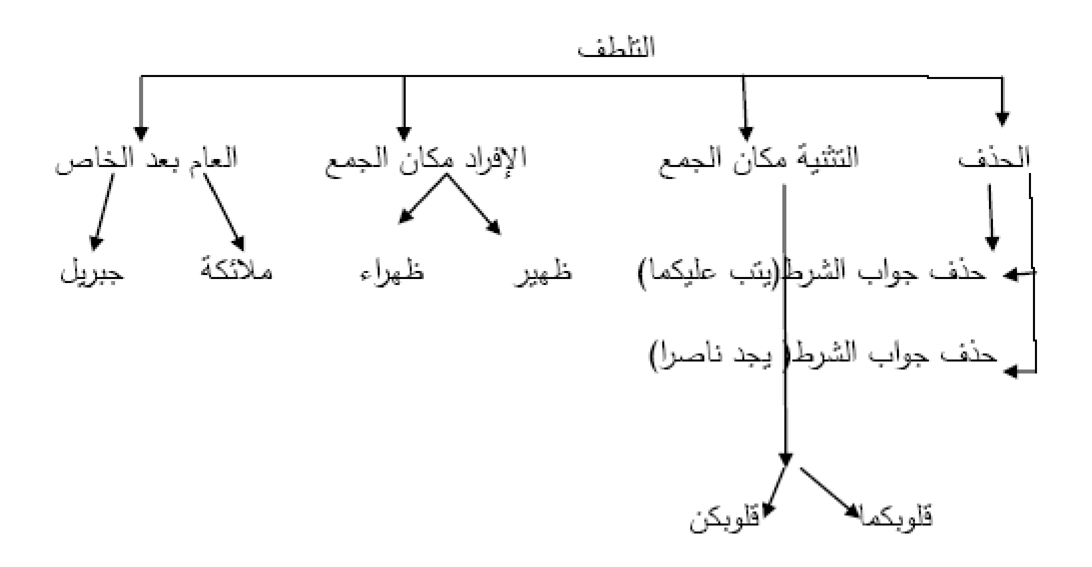
[٣] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٢٠، ص ١٨٨-١٩٢.

[٤] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٣٠، ص ٤٤-٤٥. أبـــو حيـــان الأندلســـي، البحـــر المحيط، ج٨، ص ٢٨٦-٢٨٧، البقاعي، نظم الدرر، ج٢٠، ص ١٨٨-١٩٢.

[٥] انظر، الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج٢، ص٢٣٣-٢٣٤.

[٦] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٢٠، ص ١٨٨-١٩٢.

أن نصرة الملائكة مجتمعين ومعهم جبريل أقوى من نصرة جبريل وحده[١]، وقيل: ذكر العام بعد الخاص من باب التشريف له – عليه السلام – لأن جبريل أحد الملائكة[٢] وقيل: جبريل ما بعده عطف على اسم الله، وظهير خبر للملائكة[٣] وفي العام بعد الخاص فائدة هي زيادة الاحتمال[٤].



الشاهد الثاني:

أمره.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾النور: ٦٣

إذا احتاج الرسول – صلى الله عليه وسلم– إلى اجتماعكم عنده فلا تفرقوا دون إذن، ولا

---

[١] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٢٥، ص ١٥٢–١٥٥.

[٢] انظر، السمين، الدر المصون، ج١٠، ص ٣٦٥–٣٦٨.

[٣] انظر، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٥، ص ٤٥١–٤٥٢.

[٤] انظر، الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج٢، ص ٤٧١.

تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم لبعض، ولا تجعلوا نداءه بينكم كما يكون مـــن بعضـــكم لبعض، أي لا تنادوه باسمه الذي سماه به أبوه ولا تقولوا له: يا محمد! بل قولوا: يا رسول الله! أو يا نبي الله! مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض، ويحتمل لا تجعلوا دعاء الرسول ربـــه مثل ما يدعو صغيركم كبيركم وفقيركم غنيكم يسأله حاجة فربما أجابه وربما رده، فإن دعـــوة رسول الله مسموعة مستجابة، يتسللون: ينسلون قليلا قليلا، واللواذ الملاوذة وهو أن يلوذ هـــذا بذاك، وذاك بهذا يعني: ينسلون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة واســـتتار بعضـــهم ببعض، ولواذا: حال أي ملاوذين، وقيل كان بعضهم يلوذ بالرجل إذا استأذن فيؤذن له، فينطلق الذي لم يؤذن له معه، الذين يخالفون عن أمره: الذين يصدون عن أمره دون المـــؤمنين وهـــم المنافقون، والضمير في أمره عائد على الله سبحانه أو على الرسول- صلى الله عليـــه وســـلم، والمعنى عن طاعته ودينه، فتنة: محنة في الدنيا، وعذاب أليم في الآخرة[١].

إن الله تعالى قد خص رسوله - صلى الله عليه وسلم- بتسميات وصفات، بل إنه قد أمر الناس أن ينادوه ويخاطبوه بأشرف ما يمكن أن يخاطب به - صلى الله عليه وسلم- فليس لهم أن ينادوه كما ينادون بعضهم بأسماء أو بكنى، بل عليهم أن يوقروه ويعظموه بمناداته يا رسول الله! أو يا نبي الله! أي بنسبته إلى الله تعالى، فالرسول - صلى الله عليه وسلم- وإن كان بشرا إلا أن له مكانة رفيعة ترفعه على بقيتهم، فهو الهادي وهو الرسول وهو المعلم.

الخطاب لمعاصري الرسول - صلى الله عليه وسلم، لما كان التداعي بالأســـماء علـــى

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٢٢٧، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفـــاتيح الغيـــب، ج٢٤، ص ٣٩-٤٢، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٦، ص ٤٣٦-٤٣٧، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج ٤، ص ٢٠١، البقاعي، نظم الدرر، ج١٣، ص ٣٢٤-٣٢٦، الســـيوطي، الـــدر المنثـــور، ج١١، ص١٢٧-١٣٢، الألوسي، روح المعاني، ج١٨، ص ٢٢٤-٢٢٨، الشعراوي، خواطر حول القـــرآن، ج١٧، ص ١٠٣٤٣-١٠٣٤٧، السمين، الدر المصون، ج ٨، ص ٤٤٦-٤٥٠.

عادة البداوة، فكانوا يقولون: يا أبا القاسم! أو يا محمد! فنهوا عن ذلك، وقيل نهاهم عن الإبطاء والتأخر إذا دعاهم[١]، وقيل: هو التساهل والرجوع عن مجلسه دون استئذان[٢]، وقيل: كان المنافقون يملون خطبة الجمعة، فإذ استأذن أحد من الصحابة قاموا معه متسللين مستترين[٣]، قيل: يتسللون من الصف في القتال، أو عن كتابه وذكره[٤]، قيل: من حفر الخندق[٥]، قيل: الآية نهي عن استعجال الرسول – صلى الله عليه وسلم[٦].

جاءت الآية في خطاب فئة معينة هم المنافقون؛ إذ إنهم متهاونون في تعاملهم مع الرسول – صلى الله عليه وسلم، سواء في مناداته أو الاستجابة لدعوته، أو حتى احترام مجلسه، وإلا فإن المؤمنين الخلّص الذين انعقد الإيمان في قلوبهم، قد وعوا وعرفوا مكانة الرسول – صلى الله عليه وسلم– عند ربهم فتأدبوا بأدبه وحفظوا مقام نبيه.

رتب نزول العقاب على المخالفة فوجب أن يكون معللا به، وإن المخالفة توجب أحد الأمرين إما الفتنة: وهي العقوبة في الدنيا أو العذاب الأليم في الآخرة[٧]، وقيل: هي أن يطبع على قلوبهم[٨].

إن تلطف الله برسوله – صلى الله عليه وسلم– وصل إلى حد تعليم الناس كيفية التعامل

---

[١] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٦، ص ٤٣٦-٤٣٧.

[٢] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج١٨، ص ٢٢٤-٢٢٨.

[٣] انظر، السيوطي، الدر المنثور، ج ١١، ص ١٢٧-١٣٢.

[٤] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج ٢٤، ص ٣٩-٤٢.

[٥] انظر، الفخر الرازي، المرجع السابق، ج ٢٤، ص ٣٩-٤٢ وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٦، ص ٤٣٦-٤٣٧.

[٦] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج ١٧، ص ١٠٣٤٣-١٠٣٤٧.

[٧] الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٢٢٧، الفخر الرازي، المرجع السابق، ج ٢٤، ص ٣٩-٤٢ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٦، ص ٤٣٦-٤٣٧، الألوسي، روح المعاني، ج١٨، ص ٢٢٤-٢٢٨.

[٨] انظر، السيوطي، المرجع السابق، ج ١١، ص ١٢٧-١٣٢.

مع الرسول – صلى الله عليه وسلم، فمن جهة يعلمهم كيفية مناداته – عليه السلام– بأن جعل من مناداته كما ينادون بعضهم بعضا أمرا منهيا عنه، فالله يؤدب العباد بل يأمرهم بتوقير وتبجيل رسوله – صلى الله عليه وسلم، ويتعداه إلى ذكر طريقة مناداته، بأن ينادوه بنداء اكتسبه بعد الرسالة لا قبلها، ومن جهة أخرى يعلمهم عدم التهاون في التعامل معه، فليس لأحد أن يخرج من مجلسه دون استئذان، وليس لأحد قرار للإجابة أو عدمها إذا كان الدعاء منه – صلى الله عليه وسلم– فأمره واجب، ومجلسه حرمة، وتوقيره أمر.

أما التلطف في التراكيب فيجنى من قوله تعالى "لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا" لا: الناهية، تجعلوا: مضارع مجزوم، والواو: ضمير متصل في محل رفع فاعل، والنهي مع المضارع يعني التحريم، فالبدء بالنهي أبل غ من الأمر بضده، لأن الأمر بالشيء ينتقل بالمرء من حالة الاستواء إلى مرتبة، أما النهي عن شيء، فإنه ينتقل بالمرء من حالة مغلوطة هي دون الاستواء، لتبلغ حد الاستواء بداية ثم ترتفع في مراتبك، مما يفيد أن الأمر محرم منهي عنه لما به من المخالفة، أما التعبير بتجعلوا فلأن الرسول – صلى الله عليه وسلم– له منزلة مرتفعة عن البشر بقرار من الله أن اختاره لتبليغ الرسالة، وأما المساواة بينكم وبينه فمن جعل من قد جعل لا من الله.

دعاء الرسول: مفعول منكر، لأن نداءكم إياه بشتى ما قد اخترتموه منهي عنه، قد أضيف إلى معرفة، الرسول: المقصود سيدنا محمد –عليه الصلاة والسلام– أما ذكر هذه المفردة دون غيرها إنما ليعلم العباد أن الله تعالى يتلطف بخطابه لرسوله – صلى الله عليه وسلم، فيدعوه بالرسول وهذه من أشرف الصفات، فكيف الحال إذا كان خطابه من العباد؟ بينكم: ظرف مضاف إلى ضمير، الكاف: جار بمعنى مثل، في محل نصب مفعول ثان، دعاء: اسم مجرور

وهو مضاف، بعضكم: مضاف إليه.

بعضا: منصوب على نزع الخافض، أي لبعض، "قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لـواذا" قد: تفيد التكثير إذ دخلت على المضارع[١]، قيل: للتهديد بالمجازاة[٢]، قيل: أدخـل قـد علـى المضارع ليزيد أهل التحقيق تحقيقا ويفتح لأهل الريب إلى الاحتمال طريقا، فإنـه يكفـي إلـى الخوف من النكال طروق الاحتمال[٣]، قيل: للتقليل من شأن المتسـللين فـي جنـب معلوماتـه تعالى[٤]، قيل: قد تدل على التقليل مع المضارع إلا في الأفعال مع الله فتدل علـى التحقيـق[٥]، يعلم: مضارع يتضمن معنى الاستمرار كما يتضمن معنى المعرفة الحقـة الأكيـدة، الله: لفـظ الجلالة فاعل، ذكر ليبعث الهيبة في نفوس من قد تهاونوا في حق رسول الله الكـريم، الـذين: موصول هو مفعول، يتسللون: من المصدر الانسلال وهو الخروج من الزحام، وانسل من القوم: إذا خرج في خفاء[٦]، منكم: عيّن أهل التوبيخ بقوله منكم، لأنهم يتكلفون سلّ أنفسـهم ليجعلـوا ذهابهم في الخفاء[٧]، لوذا: مصدر من الفعل لاوذ، الذي يفيد المشاركة، والمصدر فـي محـل نصب حال[٨].

"فليحذر الذين يخالفون عن أمره" الفاء: عاطفة تفيد الترتيب والتعقيـب، لأن الله يحـذر ويهدد ويخوف كل من يتهاون في حق رسوله – صلى الله عليه وسلم، فمن أدركهم الله بعلمـه

---

[١] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٦، ص ٦٦٠-٦٦٢.

[٢] الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٤، ص ٣٩-٤٢.

[٣] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج١٣، ص ٣٢٤-٣٢٦.

[٤] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج ١٨، ص ٢٢٤-٢٢٨، السمين، الدر المصون، ج٨، ص ٤٤٦-٤٥٠.

[٥] انظر، السمين ، المرجع السابق. ج٨، ص ٤٤٦-٤٥٠.

[٦] انظر، ابن منظور، مادة سلل.

[٧] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج١٣، ص ٣٢٤-٣٢٦.

[٨] انظر، الدرويش، إعرب القرآن الكريم، ج٦، ص ٦٦٠-٦٦٢.

عنهم، فيما قد فعلوا من تهاون، لزم لهم الحذرمن صنيعهم؛ ذلك أنه مترتب عليه ما هو مترتب، واللام: لام الأمر الجازمة، يحذر: مضارع مسبوق بل ام الأمر، أي فليلزموا الحذر، والتحـــذير إنذار بالعاقبة السيئة التي تترتب على أفعالهم[١]، والفاعل مستتر تقديره هو، عائد على كل واحد من المتسللين، أو هو الاسم الموصول الذين[٢]، يخالفون: جملة صلة الموصول، أما تعدية الفعل بالحرف عن فليتضمن معنى الإعراض والصدود، وإلا فهو متعد بنفسه[٣]، لم يقل يخالفون أمره ليجعل في المخالفة معنى الإعراض[٤]، أمره: الضمير يعود على الله تعالى، وقيل على الرسول – صلى الله عليه وسلم، والمقصود عن طاعته ودينه[٥] والأمر: مصدر مضاف يفيد العموم في مطلق الأمر، ولو كان يفيد الخصوص لأفاد الأمر على الوجوب بأن كل ما يفعلـــه الرســـول – صلى الله عليه وسلم– واجب علينا ولا قائل به[٦].

"أن تصيبهم فتنة أو عذاب أليم" أن: مخففة، تصيبهم: فعل ومفعول، فتنة: فاعل مـــؤخر، وتقديم المفعول لأنهم هم المعنيون لا أمر الفتنة، والفتنة –بشتى تفاسيرها– هي العقوبة في الدنيا، أما العذاب الأليم ففي الآخرة، قيل: تردد العقاب في الدنيا أو الآخرة لأن المذنب قد يمـــوت دون أن يرد عليه العقاب في الدنيا، فيعرض عليه في الآخرة[٧].

إن الصحابة الكرام كان لهم فهم في هذه المسألة، فإن وقع الأمر تجدهم يسألون الرسول:

---

[١] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج ١٧، ص ١٠٣٤٣-١٠٣٤٧.

[٢] انظر، الدرويش، المرجع السابق، ج٦، ص ٦٦٠-٦٦٢، السمين، المرجع السابق، ج ٨، ص ٤٤٦، ٤٥٠.

[٣] انظر، الدرويش، المرجع السابق، ج٦، ص ٦٦٠-٦٦٢ الزمخشري الكشاف، ج ٣، ص٢٢٧، أبـــو حيـــان الأندلسي، البحر المحيط، ج٦، ص ٤٣٦-٤٣٧، الألوسي ، روح المعاني، ج١٨، ص ٢٢٤-٢٢٨.

[٤] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج١٧، ص ١٠٣٤٣- ١٠٣٤٧.

[٥] انظر، الزمخشري الكشاف، ج ٣، ص٢٢٧.

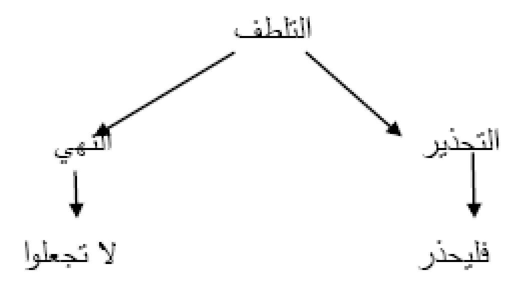
[٦] انظر، الألوسي، المرجع السابق.

[٧] المرجع السابق.

أهو من عند الله؟ أم هو الرأي والشورى؟ فإن كان وحيا فلا كلام، وإن لم يكن أدلوا برأيهم[١].

إن التلطف متحقق من التحذير المباشر لمن يخالف الرسول – صلى الله عليه وسلم، وذلك بتوظيف الفعل (فليحذر) والمعروف أن أسلوب التحذير يكون بفعل محذوف تقديره احذر، أما في الآية الكريمة فالفعل مذكور ولا حاجة لتقديره.

والنهي: له حرف واحد هو لا الجازمة، كقولك لا تفعل، وهو كالامر في الاستعلاء، وقد يستعمل في غير طلب الكف أو الترك كالتهديد، وفي كل من الاستفهام والأمر والنهي والتمني، قرينة دالة على تقدير شرط محذوف[٢].



الخطاب بالضمير المتصل بالأفعال:

خوطب الرسول –صلى الله عليه وسلم– بأفعال اتصل بها ضمير الغائب منها: علمناه، يبدله، أعانه، يرضوه، تخيرت منها شاهدين من الآي الحكيم، الأول الضمير المتصل بالفعل (علمنه)، والثاني الضمير المتصل بالفعل (جاءه).

الشاهد الأول:

ضمير الغائب المتصل بالفعل (علمنه).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ يس: ٦٩

---

[١] الشعراوي، المرجع السابق.

[٢] انظر، الصعيدي، بغية الإيضاح، ج٢، ص ٥٦-٥٧.

أي ما علمناه: بتعليم القرآن الشعر،على معنى أن القرآن الكريم ليس بشعر، وما هو من الشعر في شيء، والشعر كلام موزون مقفى يدل على معنى، فأين الوزن وأين التقفية؟ وأين المعاني التي ينتحيها الشعراء عن معانيه؟ وأين نظم كلامهم عن نظمه وأساليبه؟ فلا مناسبة بينه وبين الشعر، اللهم أن هذا لفظه عربي كما ذاك، وما ينبغي له: ما يصح له ولا يتطلب لو طلبه، أي جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له، كما جعلناه أميا لا يهتدي للخط ولا يحسنه، لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين: ذكر من الله يوعظ به الإنس والجان[١].

ينفي الله تعالى عن رسوله – صلى الله عليه وسلم– تهمة قد وجهت إليه، أن قالوا عنه إنه شاعر، فيدفع الله تعالى عنه هذه التهمة بإنزال آية كريمة، بل إنه ينزه رسوله – صلى الله عليه وسلم– عن أن يكون شاعرا، والمسألة تأخذ اتجاهين، أولهما: تنزيه القرآن عن أن يكون شعرا، والثاني: تنزيه الرسول – صلى الله عليه وسلم– عن أن يكون شاعرا، أما القرآن فهو نمط جديد احتار العرب به بل أعجزهم، فما كان منهم إلا أن قرّبوه إلى أقرب ما ألفوه فقالوا هو شعر، وإلا فهم قد عجزوا عن وصفه وعن الإتيان بمثله، بل لا حتى آية، وأما من جاء به إليهم فلم يعهد عنه أنّه قوّال للشعر، فما كانت دعواهم بهذه الدعوة إلا إعلان بعجز عن الفهم أو الإدراك، أو معاندة ومكابرة ممن فهم وعلم أن هذا الكلام إنما هو إعجاز بياني لا قبل لبشر أن يأتي بمثله.

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٢٥-٢٦، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٦، ص ١٠٤، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٧، ص ٣٢٩-٣٣١، السيوطي، الدر المنثور، ج١٢، ص ٣٧٢-٣٧٥، الألوسي، روح المعاني، ج٢٣، ص ٤٦-٤٩، والشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج٢٠، ص ١٢٦٩٩-١٢٧٠٦.

زيد فيها: في قوله تعالى "علمناه" إشارة إلى أن الرسول – صلى الله عليه وسلم– معلّـم من الله فقد علّمه ما أراد ولم يعلّمه ما لم يرد، والرسول – صلى الله عليه وسلم– لم يعلمـه الله الشعر فهو لا يحسنه، والشعر يدعو لتغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن، فالشارع يكون اللفـظ منه تبعا للمعنى والشاعر يكون المعنى منه تبعا للفظ لأنه يقصد لفظا به يصح وزن الشـعر أو قافيته[١]، كما أن الشعر به تكلف متعمد لصوغ الكلا معلى وزن وقافية، وهذه نقيصـة نـزّه الله رسوله – صلى الله عليه وسلم– عنها[٢].

إن المسألة متعالقة فالحديث عن الرسول – صلى الله عليه وسلم– يأخذك للحديث عـن القرآن الكريم، فالفرق بين القرآن والشعر يكمن في الغاية منه، فالشاعر يختار اللفـظ مراعـاة للوزن، أما في قضايا الشريعة فإن المفسرين يتقصون تقاليب اللفظ ليخلصوا إلى المعنى، فالهدف من صوغه جلب المعاني والشرائع وتنظيم حياة الناس، وفي هذا جملة من الغايات الرفيعة ليس الشعر بقاصدها.

نفي أن يكون القرآن شعرا يعني أن الرسول – صلى الله عليه وسلم– ليس بشاعر، فمن جهة اللفظ لعدم وزنه وتقفيته[٣]، ومن جهة المعنى أن الشعر تخيلات والقرآن حكم وعقائد، وإن الرسول – صلى الله عليه وسلم– في درجة من الفصاحة والبلاغة لا يستعصي عليه نظم الشعر بها، وإن له من القول نثرا ما يفوق قول كبار الشعراء، إلا أن الله تعالى حفظه من قول الشـعر تكريما له[٤].

---

[١] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٦، ص ١٠٤.

[٢] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج١٦، ص ١٦٤–١٦٨.

[٣] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٢٣، ص ٤٦–٤٩.

[٤] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٢٣، ص ٤٦–٤٩، والشـعراوي، خـواطر القـرآن الكـريم، ج ٢٠، =

فالمفسر يفرق بين القرآن والشعر لفظا ومعنى، إلا أن الراجح في الأمر أن في القــرآن الكريم أوزان لكنها غير متكلفة ولا مقصودة، وإن كان بعض المفسرين يتورعون من ذكر ذلك خشية الوقوع في الشبهة، أما بلاغة الرسول – صلى الله عليه وسلم– فظاهرة من متون أحاديثه النبوية الشريفة.

أما تلطف الله تعالى في خطابه رسوله – صلى الله عليه وسلم، فيظهر في دفاعه عنــه ودحض التهم التي توجّه إليه، أما التلطف في التراكيب فيجنى من قوله "ومــا علمنــاه" الــواو: استئنافية، ما: نافية، علمناه: فعل ماض، والماضي يدل على تمام الأمر وانقضائه، فالرســول – صلى الله عليه وسلم– قد تلقى تعليما من الله تعالى، هذا العلم منفي عنه تعليم الشــعر، والفعــل مزيد بالتضعيف للتكثير والمبالغة، أضيف إلى الضمير (نا) للتعظيم، فــالمعلم هــو الله تعــالى، والهاء: مفعول، أما اجتماع الفعل والفاعل والمفعول في لفظ واحد فللقرب من جهة وللتعظيم من جهة، فالعلم أمر معظم بذاته، فكيف إذا كان هذا العلم قرآن عظيم، والمعلــم هــو الله تعــالى، والمتعلم هو الرسول – صلى الله عليه وسلم، أما الحديث عن الرسول – صلى الله عليه وسلم– بصيغة الغائب فذلك لأن الله تعالى يخاطب الكفار المتهمين للرسول الكريم ليؤكد لهم أن الــذي تعلمه من ربه ليس بشعر بل هو قرآن محكم عظيم، الشعر: مفعول ثان.

"وما ينبغي له" الواو عاطفة، ما نافية، ينبغي: مضارع، فالنفي مستمر للأمر على الدوام لا على وجه الحالة المخصوصة، وبغى الشيء: طلبه وأراده[١]، والفعل بصــيغة تــدل علــى المطاوعة، وهي مطاوع منفية، وهذ أدل على المعنى المراد، فمن تلطف الله برسوله – صــلى الله عليه وسلم– أن دفع عنه أن يكون ما جاء به شعرا، بل أن الشعر جملة لا يطلبه بل حتى ولا

=ص ١٢٦٩٩-١٢٧٠٦.

[١] انظر، ابن منظور، مادة بغي.

يتأتى له ولو طلبه، له: جار يفيد الاختصاص، والهاء: ضمير متصل في محل جر بحرف الجر، والضمير عائد على الرسول – صلى الله عليه وسلم، قيل: الهاء عائدة على القــرآن الكــريم أو على الرسول –صلى الله عليه وسلم[١].

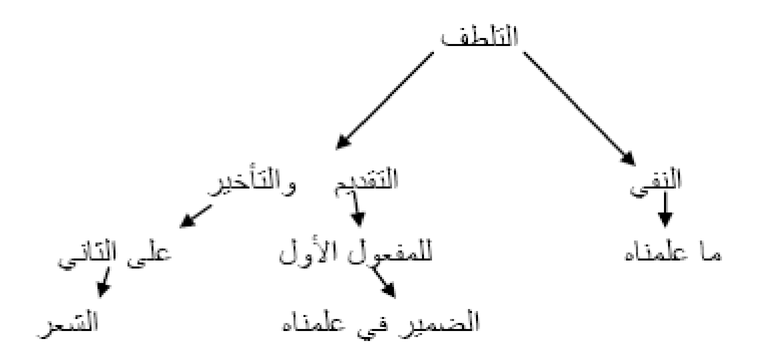
والوزن بين الجملتين غير متقارب، فالأولى: أداة نفي وفعل وفاعل ومفعولين، والثانية: أداة نفي وفاعل وشبه جملة، أما الأولى ففعلها ماض والماضي منفي، فجملة ما تعلمه الرسول – صلى الله عليه وسلم– من عقائد وشرائع قد خلت من الشعر، وأما الثانيــة، ففعلهــا مضــارع والمضارع منفي، متضمن معنى الاستقبال، فلم يكن تعليمه شعرا، ولا هو بقائــل الشــعر الآن وغدا، أي أن الله تعالى ينفي الأمر عنه جملة في الماضي والحاضر والمستقبل، والصــيغ فــي الأفعال كذلك، فالأولى فعل مزيد بالتضعيف دال على المبالغة أي أن تعليم الرسول كــان بعلــم غزير محكم، والثانية فعل بصيغة المطاوعة لأن الرسول – صلى الله عليه وسلم– لا يليق بــه الشعر لذلك من لطف الله به أن عصمه من قوله لما به من مخالفة لحقائق وتزييف –كما تقدم– فلا يكون له إلا قول الحق وفق ما تعلمه من ربه، والتعدية للفعــل الأول بمفعــولين، أولهمــا الضمير العائد على الرسول – صلى الله عليه وسلم، فمن تلطف الله برسوله أن خاطبه بضمير قريب إليه، وأبعد الشعر الذي هو مفعول ثان أما الفعل الثاني فقد لزمه شبه جملة، تنفــي تــأتي الشعر للرسول الكريم، وتكرار ذكره –صلى الله عليه وسلم– مرة بضمير المفعــول، وأخــرى بضمير المجرور، مزيد تشريف وتكريم للرسول الكريم.

ومما يذكر هنا: أن الرسول – صلى الله عليه وسلم– قد وجهت له اتهامات خلال مــدة الدعوة، فتجد الكفار إذا أخبرهم غيبا، قالوا: كاهن، وإن أتى بما يعجزهم مثل معجــزة انشــقاق

[١] انظر، السمين، الدر المصون، ج ٩، ص ٢٨٤.

القمر، قالوا: ساحر، وإذا تلى عليهم القرآن، قالوا شاعر، ولم يكن الرسول – صلى الله عليه وسلم– يتحداهم بالإتيان بمعجزة، أو بالإخبار عن الغيب، بل كان يتحداهم بالقرآن، والقرآن كلام الله، والشعر البليغ كلامهم، فهل من مفرق بين القرآن والشعر؟ لهذا قال الله تعالى "وما علمناه"[١].

"إن هو إلا ذكر وقرآن مبين" إن: نافية، هو: مبتدأ، والضمير عائد على القرآن الكريم، إلا: أداة حصر، ذكر: خبر، والذكر لتذكير الناس وردهم إلى طريق الحق كلما ضلوا، وقرآن: عاطف ومعطوف، والمقصود أنه يتلى ويتعبد بتلاوته، مبين: نعت، أي هو ليس كالشعر به ما به من غموض وتكلّف مقصود، بل هو كتاب تشريع وعقيدة واضح بيّن، ينطوي على علم وحقائق وتشريعات، لا على صور وتخيّلات.



الشاهد الثاني:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴾ عبس: ١ ــ ٢

الآية الكريمة نزلت في ابن أم مكتوم إذ جاء إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم– يسأله أن يعلمه، وكان عنده – عليه الصلاة والسلام– صناديد مكة، فأعرض الرسول – صلى الله عليه

[١] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٦، ص ١٠٤، الشعراوي، خواطر القرآن الكريم، ج ٢٠، ص ١٢٦٩٩-١٢٧٠٦.

وسلم- عنه انشغالا بهم رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم[١].

إن الآية الكريمة نزلت في حادثة معينة، والقرآن ينزل منجما من بـاب تثبيـت فـؤاد الرسول - صلى الله عليه وسلم، - كما تقدم الحديث - وهذه الحادثة تصف موقف الرسـول - صلى الله عليه وسلم- من الدعوة وإجهاده نفسه فيها، فقد حمّل نفسه في التبليغ فوق احتمالهـا، فقد أقبل على من كان عنده أملا أن يؤمن بإيمانهم غيرهم، لذلك أولاهم اهتمامه وكره مقاطعـة ابن أم مكتوم له.

ظاهر الواقعة يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء، والرسول - صلى الله عليـه وسـلم- موكل إليه أمر تأديب الصحابة، لذلك كان العتاب له في هذه الواقعة[٢]، قيل: ليس في الآية عتاب إنما هو مدح للرسول الكريم أن أجهد نفسه في فعل شيء مخالف لطبعه، فقد عبس وجهه - بما له من الطبع البشري- عندما حيل بينه وبين مراده، وهذا خلاف ما طبعه الله تعالى عليه مـن رحمة المساكين ومحبتهم والسرور بقربهم وصحبتهم، فلاطفه الله بالعتاب عن التشـاغل، فقـال معظما له بسياق الغيبة "عبس وتولى...، وذلك إجلالا له وتكريما[٣]، والخطاب بصيغة الحكايـة عن أحد غير المخاطب، لأن الله سبحانه لا يحب أن يواجه نبيه عطفا عليه ورحمة به وإكرامـا

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٩٩-٦٠٠، والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيـب، ج٣١، ص ٥٥-٥٦، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص ٤١٨-٤١٩، البقاعي، نظم الدرر، ج٢١، ص ٢٥٠-٢٥١، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٥، ص ٥٥١، والسيوطي، الـدر المنثـور، ج١٥، ص ٢٣٩-٢٤٤، والألوسي روح المعاني، ج ٣٠، ص ٣٩. وقطب، في ظلال القرآن، ج٨، ص ٤٥٣-٤٦١، القصة: جاء ابن أم مكتوم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعنده صناديد مكة: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة، يدعوهم للإسـلام رجـاء أن يدخل بإسلامهم غيرهم، فقال للرسول: أقرئني وعلمني مما علمك الله، وكرر ذلك فكـره الرسـول قطعـه لكلامه، فنزلت الآية الكريمة به، ثم أكرمه الرسول- صلى الله عليه وسلم- وكان كلما لقيه قال له "مرحبـا بمن عتبني به ربي".

[٢] انظر، الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج ٣١، ص ص٥٥-٥٦.

[٣] انظر، البقاعي، نظم الدر، ج٢١، ص ٢٥٠-٢٥١، والألوسي، روح المعاني، ج٣٠، ص ٣٩.

له عن المواجهة بهذا الأمر[١].

إن الراجح في عتاب الرسول إنما كان لإهلاكه نفسه وتحميلها فوق طاقتها، لا لمخالفة أو زلة – حاشا لله- فالله يتلطف برسوله – صلى الله عليه وسلم- بل يعاتبه على إهلاكه نفسه في سبيل الرسالة. أما عبوسه -عليه السلام- فليس إلا لعدم تحقق مراده فيهم، وفي العبوس ذاته تحميل لنفسه فوق طاقتها؛ إذ به مخالفة لطبعه الكريم، فما عرف عنه – صلى الله عليه سلم- إلا سماحة الوجه وطلاقته، والآية مدح له أن تحمل في سبيل الله وفي سبيل دعوته أن يغير طبعه، ومجاهدة الطبع تكلّف الإنسان جهدا غير قليل، لذلك عاتبه الله أن خالف طبعه الذي طبع عليه في سبيل الدعوة.

أما التلطف في التراكيب فيجنى من قوله تعالى "عبس وتولى" عبس وتولّى: ماضيان مبنيّان على الفتح، فاعلهما مستتر تقديره هو[٢]، وإنما جيء بهما إجلالا له ولطفا به لما في المشافهة والمجابهة بتاء الخطاب ما لا يخفى[٣].

أما خطابه بصيغة الغائب، فلأن في الخطاب المباشر قوّة وحدّة، وفيها إشعار بذنب أو خطأ وما كان ذلك من الرسول – صلى الله عليه وسلم، لذلك وظّف الفعل بصيغة الغائب فقال: "عبس وتولى".

قيل: "إن أمية بن خلف هو الذي عبس وتولى دون النبي، ألا ترى أنه لم يقل عبست"[٤].

"أن جاءه الأعمى" أن جاءه: في موضع نصب مفعول لأجله، والأولى أن تكون مصدرا

---

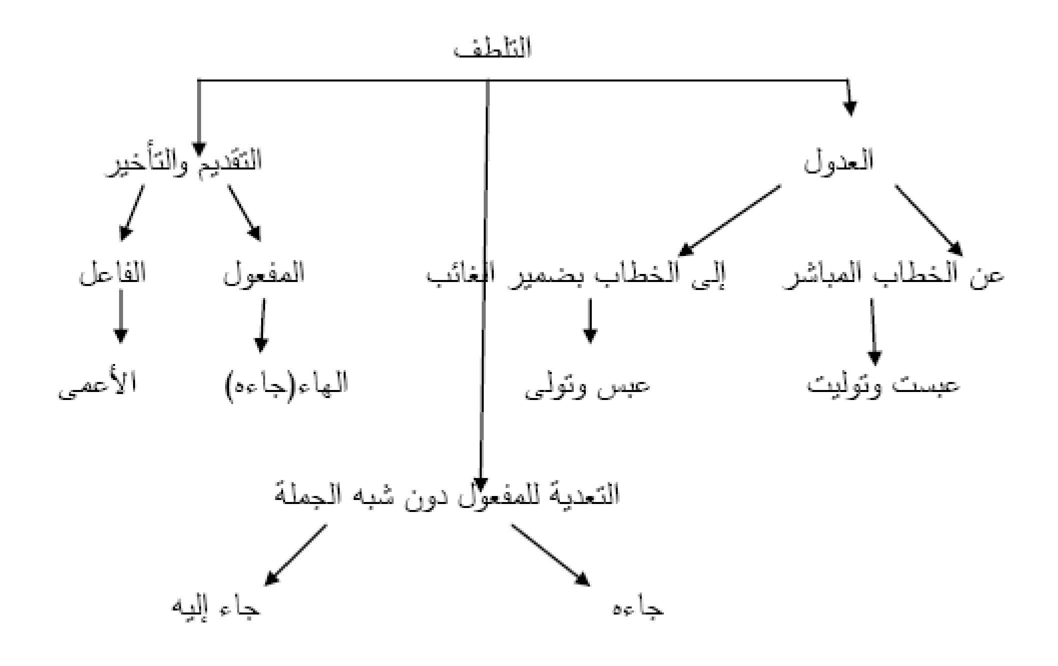
[١] انظر، قطب، في ظلال القرآن، ج٨، ص ٤٣٥-٤٦١.

[٢] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج١٠، ص ٣٧٥.

[٣] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج١٠، ص ٣٧٥، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص٤١٨-٤١٩، البقاعي، نظم الدرر، ج٢١، ص ٢٥٠-٢٥، الألوسي، روح المعاني، ج ٣٠، ص ٣٩.

[٤] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج٢، ص ٢٤٣.

منصوب بنزع الخافض، الأعمى: فاعل، والهاء: مفعول[١]، قيل: إن بمعنى إذ أو أن الخـــافض محذوف والتقدير لأن[٢]، جاءه: فعل ومفعول، والمفعول ضمير متصل تقدم على الفاعــل، لأن الرسول – صلى الله عليه وسلم– أشرف الخلق وسيدهم، تقدم ذكره، والفعل تعدى للمفعول ولــم يتعدى بشبه جملة إشارة إلى قرب الرجل وزيادة في وجوب أخذه بالرحمة واللطف، فقــد جــاء قاصدا للرسول الكريم طالبا ما عنده، أما ذكر صفة الأعمى فلأنه الذي ينبغـــي أن يبـــالغ فـــي العطف عليه والرفق به، وجبرا لكسره فذكره بالوصف للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول[٣]، فمن تلطف الله برسوله أن احترز في ذكر العذر لمن قاطع كلامه – صلى الله عليه وسلم– فما كان لأحد من الصحابة ذلك، فذكرت الصفة حتى لا يظن أن في الأمر اجتراء علـــى الرسول – صلى الله عليه وسلم.



---

[١] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج١٠، ص ٣٧٥.

[٢] انظر، السمين، الدر المصون، ج١٠، ص ٦٨٥.

[٣] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج ٢١، ص ٢٥٠-٢٥١.

الخطاب بضمير الغائب مع الحروف.

خوطب الرسول -صلى الله عليه وسلم- بضمير الغائب المتصل بالحروف في مواضع عدة، فقد خوطب بالضمير المتصل بالحرف على (عليه) في عشرة مواضع، وبالضمير المتصل بالحرف لـ (له) في خمسة مواضع، وبالضمير المتصل بالحرف بـ (به) في خمسة مواضع، وبالضمير المتصل بالحرف من (منه) في موضعين، والضمير المتصل بالحرف عن (عنه) في موضعين كذلك، تخيرت منها شاهدين قرآنيين، الأول: ضمير الغائب المتصل بالحرف على (عليه)، والثاني: ضمير الغائب المتصل بالحرف لـ (له).

الشاهد الأول:

ضمير الغائب المتصل بالحرف على (عليه).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾التوبة: ١٢٨

من أنفسكم: من جنسكم ونسبكم عربي قرشي، ثم ذكر ما يتبع المجانسة والمناسبة من النتائج، عزيز عليه ما عنتم: يشق عليه لقاؤكم المكروه لكونه منكم، فهو يخاف عليكم العذاب والوقوع فيه، حريص عليكم: حتى لا يخرج أحد عن اتّباعه والاستسعاد بدين الحق، بالمؤمنين رؤوف رحيم: بالمؤمنين منكم ومن غيركم[١].

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص ٢٠٤-٢٠٥، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج١٦، ص ٢٤١-٢٤٢، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٥، ص ١٢٠- ١٢٢، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٣، ص ٢٣٢، البقاعي، نظم الدرر، ج٩، ص ٥٦-٦٠، السيوطي، ج٧، ص ٦٠١-٦١٥. الألوسي، روح المعاني، ج١١، ص ٥٢-٥٣، الشعراوي خواطر حول القرآن ، ج٩، ص ٥٦٠٢-٥٦١٧.

إن الله تعالى يمتدح الرسول – صلى الله عليه وسلم، ويمن على الناس أن أرسل لهم رسولا منهم، متصف بخير الصفات فهو محب لكم مخلص في دعوتكم إلى الحق، يعز عليه وقوع العذاب بكم، فهو رؤوف ورحيم يريد لكم الخير باتباع دينه وشريعته، هاتان صفتان وصفه الله تعالى بهما وهذا له وما كان لغيره، واتصافه بهذه الصفات في جهته تشريف وتكريم، وفي جهتكم رحمة وفضل ومنة.

في السورة تكاليف شاقة فختمها الله بما يوجب سهولة تحمل تلك التكاليف، فالرسول – صلى الله عليه وسلم– كالطبيب المداوي ربما أقدم على علاجات صعبة، أو الأب الرحيم الذي ربما أقدم على تأديبات شاقة، فكأن كل ذلك قد جرى مجرى الإحسان، وهنا إذا علمتم أن الرسول – صلى الله عليه وسلم– حق فاقبلوا منه هذه التكاليف وإن شقّت[١].

إن تكليف االرسول – صلى الله عليه وسلم– للعباد بالطاعات والعبادات لا ليشق عليهم، إنما هو مسلك يصلون به إلى الجنة، فإذا ما علم المرء أن الرسول – صلى الله عليه وسلم– حق وما قد جاء به حق هانت عليه هذه التكاليف، بل وجد في الصبر عليها متعة بها يتذوق حلاوة الإيمان.

وصف الله رسوله – صلى الله عليه وسلم– بهذه الآية بخمسة أنواع من الصفات، أولها: صفة الرسالة، وهي أشرف الصفات وأجلّها[٢]، وثانيها: من أنفسكم: بشر مثلكم لا ملكا، أو أنه عربي منكم لترغيبهم في نصرته، أو هو خطاب لأهل الحرم؛ إذ كان العرب يسمون أهل الحرم أهل الله، أو هو من عشيرتكم تعرفون صدقه وأمانته[٣]، وقيل: هذه من باب تعداد النعم على

---

[١] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج١٦، ص ٢٤١-٢٤٢.

[٢] أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٥، ص ١٢٠-١٢٢.

[٣] انظر، الفخر الرازي، المرجع السابق، ج١٦، ص ٢٤١-٢٤٢. والشعراوي، خواطر حول القرآن، ج٩، =

العرب أن أرسل لهم رسول منهم[١]، وثالثها: عزيز عليه ما عنتم، ورابعها: حريص عليكم، وخامسها: بالمؤمنين رؤوف رحيم[٢].

إن الآية الكريمة بتقاليب تفسيرها إنما تصب في جهة المدح للرسول –صلى الله عليه وسلم– والخير للعباد، فمن لطف الله بكم ومنّته عليكم أن أرسل رسولا متصفًا بهذه الصفات، فالرسول – صلى الله عليه وسلم– بشر يسهل الاقتداء به، ولو كان ملكا مختلف في خلقه عن طبيعة البشر ما استطاع أحد الاقتداء به، فالملائكة عباد ليس لهم ما للبشر من شهوات، أما القول بأنه عربي فهذا أدعى إلى نصرته من جهة، ومن أخرى فهذه أيضا منّة من الله فلسانه لسانكم عربي مبين ليسهّل أمر تبل يغ الرسالة لكم، وأما أنه منكم ومن أهلكم فهذه منّة تنضاف إلى سابقاتها؛ إذ بهذا عرفتم خلقه وأمانته وصدقه فما عليكم إلا الأخذ منه والتصديق به، لأنه يريد الخير لكم ويشق عليه أن يقع بكم عذاب الله، حريص على تحصيل الخير لكم ولا خير إلا في اتّباع دين الحق، يدعوكم إليه بما جبل عليه من رأفة ورحمة.

أما التلطف في جنب الرسول – صلى الله عليه وسلم– أن جبله الله على هذه الصفات ليسهل عليه أمر تبليغ الرسالة – وإنه أمر ليس بالسهل– فمن جانب العباد هي صفات أسهمت في توصيل الرسالة لهم، ومن جهة الرسول هي صفات مكّنته من الصبر على تكاليف التبليغ، واتصافه بهذه الصفات الكريمة جعلت له قبولا بين العباد بل إنها جعلت منه معلما للبشرية

=ص ٥٦٠٢–٥٦١٧.

[١] أبو حيان الأندلسي، المرجع السابق، ج٥، ص ١٢٠–١٢٢، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٣، ص ٢٣٢، الألوسي، روح المعاني، ج١١، ص ٥٢–٥٣.

[٢] انظر، الفخر الرازي، المرجع السابق، ج١٦، ص ٢٤١–٢٤٢ أبو حيان الأندلسي، المرجع السابق، ج٥، ص ١٢٠–١٢٢ الألوسي، المرجع السابق، ج١١، ص ٥٢–٥٣، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج٩، ص ٥٦٠٢–٥٦١٧.

أجمع.

أما التلطف في الخطاب والتراكيب فيجنى من قوله تعالى "لقد جاءكم رسول من أنفسكم" اللام: جواب قسم محذوف[١]، قد: تفيد التحقيق، جاءكم: ماض ومفعول، أما الفعل جاء فليثبت أن المجيء ذاتيا من الرسول – صلى الله عليه وسلم، يعني إرادة وقوة ودافع لأداء الرسالة، مع أن الله تعالى هو الذي جاء به إلا أنه لم يقل جئتكم برسول[٢].

من تلطف الله تعالى برسوله أن نسب إليه فعل المجيء إظهارا لما كان منه من إخلاص في أداء الرسالة فكأنه جاء من تلقاء نفسه، وليس في الأمر شك من أن الله هو الذي أرسله، وضمير المخاطب فيه إظهار لقرب الرسول منكم فهو من أهلكم وليس بغريب عنكم، رسول: فاعل مؤخر، تأخر لأن سيكون هو محور الحديث اللاحق، فالآية تستعرض صفات هذا الرسول الذي بعث إليكم، أما تنكير اللفظة فلأن الذي جاءكم بالرسالة واحد لاغير متعين بذاته من جهة وببعثته لكم من جهة أخرى، وبما ستعرض له الآية من جليل الصفات وشريفها لاحقا، أما تقديم صفة الرسالة على غيرها من الصفات فلأنها أشرفها من جهة ومن جهة أخرى أن ما تلاها من صفات للرسول –صلى الله عليه وسلم– قد ترتب عليها أولا، فصفاته – عليه الصلاة والسلام – التالية لها إنما كانت نتيجة لهذه الصفة.

قيل: قدمت صفة الرسالة لأنها تدل على أن الله اختاره ليكون واسطة بين الله وخلقه، ولأنها أشرف الأشياء والصفات للك بدأ بها[٣].

من أنفسكم: جار بفيد بيان الجنس، أنفسكم: اسم مجرور أضيف إلى ضمير المخاطبين،

---

[١] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم ، ج٤، ص١٩٩.

[٢] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج ٩، ص ٥٦٠٢–٥٦١٧.

[٣] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٥، ص ١٢٠–١٢٢.

شبه الجملة توحي بالقرب والاستئناس بالرسول – صلى الله عليه وسلم، وفيها دعوة للتصديق به واتباعه كما تقدم، قيل: ليكون أقرب إلى الألفة وأسرع إلى فهم الحجة[١]، قيل: هي صفة للرسول الكريم[٢].

"عزيز عليه ماعنتم" عزيز: صفة ثانية لرسول، وما وصلتها فاعل لعزيز التي هي صفة مشبهة، أو هي خبر مقدم لما عنتم التي هي مبتدأ والجملة صفة لرسول[٣]، عزيز صفة مشـبهة لتدل على ديمومة الصفة وديمومة الاتصاف بها، والعزيـز: الممتنـع الشـديد[٤]، المعنـى أن مكروهكم أمر شاق على الرسول – صلى الله عليه وسلم– بسبب حبه لهم، أما ترتيبها ههنا فله تأويل، الأول: أنها صفة مؤخرة عن صفة الرسالة لأنها متحققة بسببها، والثاني: على اعتبـار أنها خبر، فهي خبر مقدم للأهمية فالمشقة متحصلة للرسول قبل أن يصيبكم المكروه أي خوفـا عليكم من وقوعه، فما الحال إذا وقع؟ عليه: جار يفيد الاستعلاء المجازي، فكأن الأمر من شدته على نفسه قد وقع عليه – صلى الله عليه وسلم– والحقيقة أن وقوعه سيكون عليكم إن لم تتبعوه، فمن تلطف الله برسوله أن وصل علمه به إلى دقائق نفسه الشريفة، فعلم أن وقوع العذاب علـى قومه سيكون مؤذيا لنفسه كأنما وقع عليه هو، ما عنتم، العنت: المشقة والهلاك[٥].

"حريص عليكم" حريص على إيمانكم وإيصال الخير لكم لا على ذواتكـم[٦]، والصـفة

---

[١] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٩، ص ٥٦–٦٠.

[٢] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٤، ص١٩٩.

[٣] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٤، ص ١٩٩، أبو حيان الأندلسي، المرجـع السـابق، ج٥، ص ١٢٠–١٢٢، الألوسي، روح المعاني، ج١١، ص ٥٢–٥٣، السمين، الدر المصون، ج٦، ص ١٤١.

[٤] انظر، ابن منظور، مادة عزز.

[٥] انظر، ابن منظور، مادة عنت.

[٦] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج ١٦، ص ٢٤١–٢٤٢، والألوسـي، روح المعـاني، ج١١، ص ٥٢–٥٣.

المشيهة وصف دال على الديمومة، على: جار يفيد الاستعلاء المجـازي، والمجـرور ضـمير المخاطبين لزيادة الاستئناس به، أي أنه محيط بكم مريد لحمايتكم والحفاظ عليكم.

"بالمؤمنين رؤوف رحيم" تقديم الجار والمجرور لزيادة الاختصاص فالمؤمنون فقط من خصهم برأفته ورحمته[١]، والرؤوف: الرحيم أشد الرحمة[٢]، والرحمة: الرقة والتعطف[٣]، هي صفات حميدة للرسول الكريم تنضاف إلى ما قد تقدم من صفات وكلتاهما من نتائج الرسالة، أما تقديم الرأفة على الرحمة فقد قيل: الرأفة دفع الضرر بسلب ما يضر من ابتلاء ومشقة، والرحمة جلب المنافع من ارتقاء للنعيم، فقدم دفع الضرر على جلب المنفعة[٤]، وقيل: سماه باسمين مـن أسمائه تعالى وهذا أمر لم يكن لغيره لشريف مكانته وجليل شأنه[٥]، قيل: بلاغ من الله تعالى أنه أعطى الرسول – صلى الله عليه وسلم– بعضا من صفاته[٦]، أي أن الله تعالى بدأ بمدح الرسول الرسول – صلى الله عليه وسلم– بتعداد صفاته ومناقبه التي لا حصر لها والتي هي من نعم الله على العباد ان أرسل لهم من قد جمع محاسن الصفات ليكون رسولهم، فإذا كان قد حاز خيرهـا قبل الرسالة، فما هو الحال بعدها؟ فيعدد صفاته فيبدأ بالرسالة وينتهي بوصفه بصفات هي لـه تعالى، وكل هذا إنما يصب في بحر تلطفه به وخصوصية خطابه – عليه الصـلاة والسـلام– ومكانته الرفيعة التي لم تكن لأحد من خلقه.

---

[١] الفخر الرازي، المرجع السابق، ج ١٦، ص ٢٤١-٢٤٢، البقاعي، نظم الدرر ج ٩، ص ٥٦-٦٠.

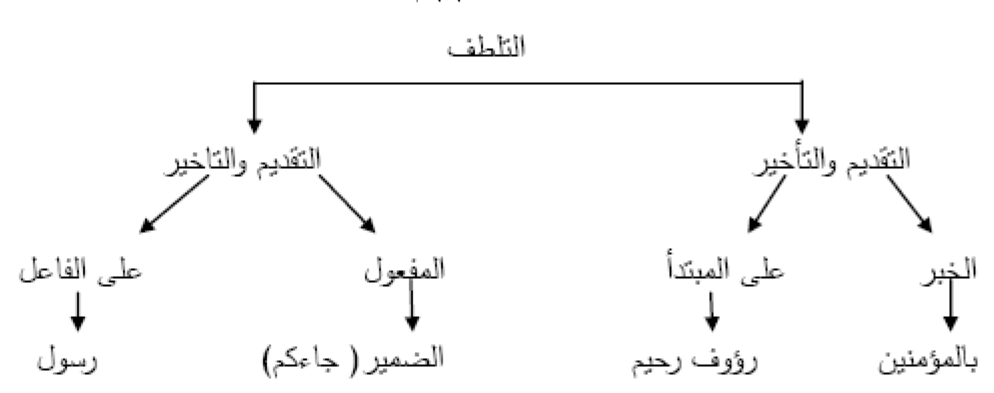
[٢] انظر، ابن منظور، مادة رأف.

[٣] انظر، ابن منظورن مادة رحم.

[٤] انظر، الألوسي، المرجع السابق، ج١١، ص ٥٢-٥٣، والشعراوي.، خـواطر حـول القـرآن، ج ٩، ص ٥٦٠٢-٥٦١٧.

[٥] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص ٢٠٤-٢٠٥.

[٦] الشعراوي، المرجع السابق، ج ٩، ص ٥٦٠٢-٥٦١٧.



الشاهد الثاني:

ضمير الغائب المتصل بالحرف ل (له).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾الحجرات: ٢

استدعاء للمؤمنين للأخذ بالأدب عند حضور مجلس الرسول – صلى الله عليه وسلم، لأن توقيره يعني توقير الشرع الذي جاء به، وفي إعظامه إعظام لله تعالى[١]، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي: إذا نطق ونطقتم فعليكم ألا تبلغوا وراء الحد الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث لا يكون كلامكم عاليا لكلامه، ولا تجهروا له بالقول: إذا كلمتموه صامتا، فإياكم والرجوع إلى رفع الصوت، بل كلموه بما يقرب من الهمس كما تكون مخاطبة

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٣٠٤-٣٠٦، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٨، ص ١١٢-١١٣، أبو حيان الأندلسي، البحر الميط، ج٨، ص ١٠٥-١٦، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٥، ص ٢٦٧-٢٦٨، والبقاعي، نظم الدرر، ج١٨، ص ٣٥٦-٣٥٧، والسيوطي، الدر المنثور، ج١٣، ص ٥٢٩-٥٣٧، الألوسي، روح المعاني، ج ٢٦، ص ١٣٤-١٣٧، الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج٢٣، ص ١٤٤٣٨-١٤٤٤٠.

المهيب المعظم[١].

من تلطف الله تعالى برسوله – صلى الله عليه وسلم- أن أخذ على نفسه أمــر تأديــب المؤمنين بأن يعلمهم آداب حضور مجلس الرسول – صلى الله عليه وسلم، فينهاهم عــن رفــع أصواتهم في حضرته؛ ذلك أن في رفع الصوت إشعار بالقوة والسيطرة وهذا ما لا يجوز فــي حضرة الرسول – صلى الله عليه وسلم، وإن المؤمنين أعزة على الكافرين رحماء بينهم، فــإذا كان هذا حالهم بينهم، فما حالهم إذا كان الأمر بينهم وبين رسولهم الكريم؟

لا ترفعوا أصواتكم: لأن رفع الصوت يدل على عدم الاحتشام، أو أن المراد كثرة الكلام في مجلسه، والأولى بهم الإصغاء لأنه رسول مبلغ، وكلاهما يدخل في منع رفع الصوت إظهارا للاحترام والتعظيم له، ولا تجهروا له بالقول: لا تتكلموا في مجلسه كما تتكلمون بينكم[٢]، قيــل: لا تنادوه باسمه يا محمد![٣].

إن النهي عن رفع الصوت جاء في الآية لغايتين، الأولى: إظهار التعظــيم للرســول – صلى الله عليه وسلم، والثانية: إن الرسول – صلى الله عليه وسلم- مبلغ فوجب عليهم الإصغاء أكثر من الكلام، فليس مجلسه إلا مجلس تعليم وتبليغ، ومن جاء قاصدا التعلم منه فليتأدب بأدب مجلسه.

نزلت الآية الكريمة بسبب عادة الأعراب من الجفاء وعلو الصوت، فعلو الصوت مــن

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٣٠٤-٣٠٦، أبو حيان الأندلسي، البحر الميط، ج٨، ص ١٠٥-١٦ الألوسي، المعاني، ج ٢٦، ص ١٣٤-١٣٧.

[٢] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٨، ص ١١٢-١١٣.

[٣] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٣٠٤-٣٠٦، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيــب، ج٢٨، ص ١١٢-١١٣، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٥، ص ٢٦٧-٢٦٨، الألوسي، روح المعــاني، ج ٢٦، ص ١٣٤-١٣٧، الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج٢٣، ص ١٤٤٣٨-١٤٤٤٠.

طبعهم لا قصد منهم فيه إلى استعلاء أو استخفاف، فنزلت الآية لتبين أن الرسالة والنبوة رتبة يجب أن توقر وتبجل، ولا يكون كلامكم معه – صلى الله عليه وسلم- ككلامكم بينكم[١].

إن علو الصوت إنما كان من فئة من الأعراب، وهو أمرقد طبعوا عليه، ولم يكونوا قاصديه، فنهاهم الله تعالى عنه، وإلا فالصحابة الكرام لا يفوتهم أمر توقير الرسول – صلى الله عليه وسلم، فقد علموا مكانته عند ربه بعد أن انعقد الإيمان في قلوبهم.

لا ترفعوا أصواتكم: لأن رفع الصوت من المشوشات في حسن التلقي للوحي؛ لذلك نهاهم الله عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي إذ لا تعلم الساعة التي قد يوحى إليه بها، وهذه للنبوة، ولا تجهروا له بالقول: لا تكلموه كما تكلمون بعضكم، وهذه لذاته – صلى الله عليه وسلم – فعليكم بالتقليل من الكلام عنده فلا يكون كلامكم إلا سؤالا أو جوابا في ضرورة[٢].

فالمفسر قد ارتأى رأيا مغايرا بالنظر إلى القضية من زاوية أخرى، فالمفسرون قالوا بقلة الاحتشام أو بكثرة الكلام المعيقة للتبليغ، أما هنا فالقول مختلف؛ إذ إن إحداث الجلبة في مجلس الرسول – صلى الله عليه وسلم- سواء بعلو الصوت أو بكثرة الكلام أمر مشوش على عملية تلقي الرسول – صلى الله عليه وسلم- للوحي، وهي ساعة لا يعلمها إلا الله، وكلاهما مما يؤذي الرسول – صلى الله عليه وسلم- ويشوش عليه سواء أكان متلقيا للوحي من ربه أو مبلغا للرسالة عنه، وأذية الرسول – صلى الله عليه وسلم- أمر لا يستهان به فهو أمر مؤد إلى أن تحبط الأعمال، أي الكفر، فلا استهانة بأمر قد يودي بالعبد إلى الكفر دون أن يشعر أنه قد وصل إليه.

---

[١] انظر، أبو حيان الأندلسي البحر المحيط، ج٨، ص ١٠٥-١٠٦، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٥، ص ٢٦٧-٢٦٨.

[٢] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج١٨، ص ٣٥٦-٣٥٧.

ومما يذكر هنا: إن حرمة النبي ميتا كحرمته حيا، وكلامه المأثور بعده في الرفعة ككلامه المسموع منه، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته[١].

من تلطف الله تعالى برسوله – صلى الله عليه وسلم– أن جعل من أمر تعظيمه أمرا واجبا على المؤمنين، يجزي عليه القائمين به أجرا ويعاقب تاركيه عذابا، بل إن أمر ترك تعظيمه من المؤديات إلى الكفر، والكافر ليس له إلا النار، فأي مكانة قد حيزت له – صلى الله عليه وسلم؟ بل إنه تعالى قد خص رسوله بخطاب لطيف دقيق لم يكن لغيره من البشر، لا لصالحين بل لا حتى لرسل أو أنبياء، فإذا كان أمر تعظيمه من الله تعالى خالقنا وخالقه، فكيف يجب أن يكون الأمر منا في جنب رسولنا الكريم؟

أما التطف في التراكيب فيجنى من قوله "يا أيها الذين آمنوا" يا: أداة نداء، وأيّ: منادى نكرة مبني على الضم في محل نصب، والهاء: للتنبيه، الذين: اسم موصول، بدل من أي، آمنوا: فعل وفاعل، والجملة صلة موصول.

وفي تكرار النداء فائدة بلاغية؛ إذ سبق النداء في الآية السابقة قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾الحجرات: ١

هي: إظهار الشفقة على المسترشد وإبداء المناصحة له على آكد وجه ليقبل على استماع الكلام ويعيره باله، ولتحديد المخاطبين بالذات أنهم المعنيون بالمناصحة[٢]، وفيه أيضا استدعاء للتنبه عند كل خطاب[٣] أي أن المخاطبين هم المؤمنين، فالله تعالى يخاطبهم ويخصهم بالخطاب

---

[١] انظر، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٥، ص ٢٦٧-٢٦٨.

[٢] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ص ٢٦١.

[٣] انظر، الزمخشري، ج٤، ص ٣٠٤-٣٠٦ والدرويش، المرجع السابق، ج، ص ٢٦١.

ليتنبهوا أن ما يقوم به بعضهم قد يودي بهم إلى الكفر، وما خاطبهم الله تعالى إلا تلطفا بهم فهم أمة رسوله – صلى الله عليه وسلم، وما تلطفه بهم إلا تلطفا بالرسول – صلى الله عليه وسلم، الذي قد علم أنه حريص على أمته وعلى حمايتهم من أن يقع عليهم العذاب، فتأديبهم وتحذيرهم إكراما لرسولهم الكريم.

"لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي"، لا: الناهية، ترفعوا: مضارع مجزوم، والواو: ضمير الفاعل وصيغة النهي مع المضارع تعني التحريم، أصواتكم: مفعول به مضاف إلى ضمير المخاطبين. واللفظة بصيغة الجمع دلالة أن الفعل لم يقع من فرد وإنما من جماعة، أو لأن الأمر حكم بالنهي لجميع المؤمنين، سواء ممن عاصره من صحابته، أو لكل مؤمن من أبناء أمته بعده، فوق: ظرف مضاف، صوت النبي: مضاف إليه ومضاف إليه، والخطاب بصفة النبوة يفضي إلى أمرين، أولهما: أن الخطاب للمؤمنين، أي أن الرسول – صلى الله عليه وسلم– في مرحلة النبوة، فأتباعه مؤمنين، والثاني: أن الرسول في هذه المرحلة من الدعوة يعلم الناس أمور دينهم وأدب دنياهم.

"ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض" الواو: عاطفة، لا: ناهية، تجهروا: مضارع مجزوم، والواو: ضمير الفاعل، له: جار بمعنى على، والهاء: ضمير متصل في محل جر بحرف الجر، عائد على النبي، والجهر: الظهور والإعلان[1]، بالقول: جار ومجرور، كجهر بعضكم لبعض: جار يفيد التشبيه، جهر: مجرور مضاف، بعضكم لبعض: مضاف وجار ومجرور، قيل: الكاف: في محل نصب صفة لمصدر محذوف، فتقدير الكلام لاتجهروا له جهرا

[1] انظر، ابن منظور، مادة جهر.

مثل جهركم لبعض[١]، أما الجملتان فقد جاءتا على النحو التالي: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض.

الفعلان ترفعوا وتجهروا مجزومان وثانيهما معطوف على الأول، أما الظـرف فـوق وحرف الجر اللام، فكلاهما بمعنى على، والمعنى أن الظهور على الرسول – صلى الله عليـه وسلم– بقول أو بفعل أمر محرم منهي عنه، والفرق بين الأمرين هو: فوق صوته: لا تجعلـوا علو الصوت أعلى من صوته، كجهر بعضكم لبعض: كما تتعاملون بينكم من كـلام كثيـر، أو نقاش حاد، أو مخالفة ومشادة، فكلها جملة واحدة منهي عنها، والزموا أمر تمييزه بمحادثته بمـا يلزم وبصوت خفيض يبدي منكم التوقير والتبجيل.

"أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون" هي علة النهي، لا تجهروا خشـية أو كراهـة أن تحبط أعمالكم[٢]. وهو مفعول له عامله لا تجهروا[٣]، قيل: فيها تنازع، فالعامل لا ترفعوا أو لا تجهروا والأول أولى، أن تحبط: مفعول لأجله[٤] والحبوط: فساد العمل وبطلانه[٥]، المقصود لئلا تحبط أعمالكم، إن رفع الصوت أو الجهر للرسول الكريم من الأمور المحبطـة للأعمـال، أي الأعمال التي يرجى منها كسب الأجر من الله، لما في هذين الأمرين من أذية للرسول الكـريم، وأذية الرسول – صلى الله عليه وسلم– أمر محرم لا جدال، بل إنه موصل بالمرء إلى الكفر – كما تقدم – ولأن المرء قد يفعل استهانة واستصغارا، فإن الله ينبه من خطرها ومن سوء عاقبتها

---

[١] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج، ص ٢٦١.

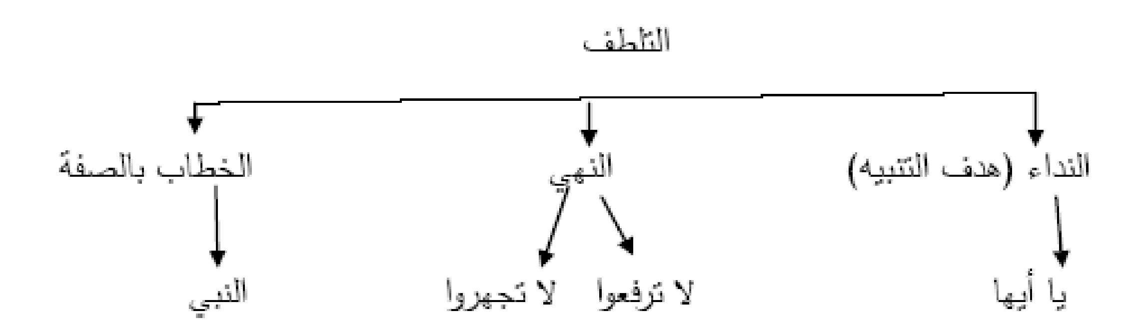
[٢] انظر، الدرويش، اعراب القرآن الكريم، ص ٢٦١، الزمخشري، الكشاف ، ج٤، ص ٣٠٤-٣٠٦، الفخـر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٨، ص ١١٢- ١١٣.

[٣] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص ١٠٥-١٠٦ الثعـالبي، الجـواهر الحسـان، ج٥، ص ٢٦٧- ٢٦٨.

[٤] انظر، السمين، الدر المصون، ج١٠، ص ٥-٦.

[٥] انظر، ابن منظور، مادة حبط.

على المؤمن، لذلك قال "وأنتم لا تشعرون" الواو: واو حال، أنتم: مبتدأ، لا تشعرون: جملة فعلية فعلها مضارع، ذلك أن الأمر يكون بداية باستهانة ثم يتكرر، وإذا تكرر استباحته النفس، وأصبح هينا عليها، تقترفه دون إحساس بالذنب، لذلك جاء التنبيه بالنداء في أول الآية الكريمة، حتى يتنبه المؤمن إلى خطورة ما يقترف ظانا منه أنها من الأمور الصغيرة البسيطة، وهي في حقيقتها مودية به إلى الكفر، ولا جزاء للكفر إلا النار.



الخطاب باسم الإشارة والاسم الموصول والضمير المستتر:

الخطاب باسم الإشارة: هذا

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ الأنبياء: ٣٦

المعنى أنهم عاكفون على ذكر آلهتهم ويسوءهم أن يذكرها ذاكر بسوء[١]، ولما كان الكفار يغمهم ذكر آلهتهم بسوء، شرعوا بالاستهزاء وتنقيص من يذكرهم على سبيل المقابلة[٢]، والذكر إذا أطلق يكون بالخير والشر، فإن كان الذاكر صديقا كان ثناء، وإن كان الذاكر عدوا

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص ١٠٣.

[٢] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٦، ص ٢٨٩-٢٩٠.

فهو ذم[١]، وأما ذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية فهم به كافرون، فهم أحق بالسخرية والاستهزاء، فهم يعيبون عليه أنه يذكر آلهتهم بسوء وهي لا تضر ولا تنفع، وهم يكفرون بـــالله الذي هو المنعم الخالق[٢].

إن الآية تعرض لموقف الكفار من الرسول – صلى الله عليه وسلم، فقد ورد في القرآن الكريم ما يذم آلهتهم، وربما وصل هذا إلى آذانهم، فقابلوا هذا بالسخرية من الرسول – صلى الله عليه وسلم– والانتقاص من قدره من باب المقابلة والرد عليه، ظانّين أن الرسول – صـــلى الله عليه وسلم– إنما عابها ليعيبهم، ولم يدركوا أن المسألة رسالة وتبليغ للحق لا تعريض بـــآلهتهم قصدا، والأكيد من الأمر أن قول الرسول في آلهتهم إنما كان حقا؛ لذلك وقع في قلوبهم.

زيد فيها: الآية الكريمة نزلت في أبي سفيان وأبي جهل[٣]، وقيل: ذكر الـــرحمن هـــو القرآن فهم منكرون كافرون، وقيل أنكروا لفظة الرحمن، فقـــالوا: لا نعلـــم الـــرحمن إلا فـــي اليمامة[٤]، وقيل: إلا مسيلمة[٥]، قيل: إذا رأوك وكلك جد وجـــلال وعظمـــة وكمـــال شـــرعوا بالاستهزاء، وكفرهم هو الذي ظلمهم لأن الكفر يطمس الفكر، فجعلوك بحمل أنفسهم ضـــد مـــا

---

[١] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٢، ص ١٧٠، والشعراوي، خواطر حول القـــرآن الكريم، ج١٥، ص ٩٥٣٨–٩٥٣٩.

[٢] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص ١٠٣، الفخر الرازي، ج٢٢، ص ١٧٠، البقاعي، نظم الدرر، ج١٢، ص ٤١٩–٤٢٠، والألوسي، روح المعاني، ج١٧، ص ٤٧–٤٨، الشعراوي، خواطر حول القرآن الكـــريم، ج١٥، ص ٩٥٣٨–٩٥٣٩.

[٣] نزلت الآية في أبي سفيان وأبي جهل، فقد مر الرسول– صلى الله عليه وسلم– بهما، فقال أبو جهل: أهذا نبي بني عبد مناف؟ فقال أبو سفيان: وما تنكر أن يكون نبيا في عبد مناف؟ فسمع الرسول قولهما فقـــال لأبـــي جهل: ما أراك تنتهي حتى ينزل بك ما نزل بعمك الوليد بن المغيرة، وأما أنت يا أبا سفيان فإنما قلت ما قلت حمية. (انظر، الفخر الرازي، ج٢٢، ص ١٧٠، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٦، ص ٢٨٩–٢٩٠، السيوطي، الدر المنثور، ج١٠، ص ٢٩٣–٢٩٤، الألوسي، روح المعاني، ج١٧، ص ٤٧–٤٨).

[٤] أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٦، ص ٢٨٩–٢٩٠، والثعالبي، الجواهر الحسان، ج٤، ص ٨٦–٨٧.

[٥] الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص١٠٣.

يعتقد عين ما ليس فيك شيء منه، أي أنك بعيد غاية البعد عن الهزء وعما يقولون[١].

إن الله تعالى يعرض صورة من صور حقد الكفار على الرسول – صلى الله عليه وسلم، فإذا رأوه شرعوا يسخرون منه، وهم يعلمون أن ليس به شيء يدعو لسخرية، إنما هو كفرهم الذي غطى أعينهم، والله يتلطف به أن بين له أنه على الحق، ومن يكفر بالله المنعم المتفضل هوالذي استحق السخرية، فالدلائل على الله كثيرة، وحتى وإن لم يؤمنوا بالله تعالى، أيصدق عقل بآلهة لا تضر ولا تنفع، إن كانت لا تنفع نفسها فكيف ستنفعهم؟ فتلطف الله برسوله – صلى الله عليه وسلم– أن ثبّته، فهو على الحق وهم على الباطل، بل إنهم إن سخروا من الرسول – صلى الله عليه وسلم– فإن الله قد سخر منهم بتوضيح خفة عقولهم أن آمنوا بأصنام ومعبودات لا قيمة له ولا قدرة على نفع أو ضرر.

أما التلطف في التراكيب فيجنى من قوله تعالى "وإذا رآك الذين كفروا" الواو استئنافية، أو عاطفة على جملة قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾الأنبياء: ٣ في الآية السابقة، إذا: ظرف لما يستقبل من الزمان، رآك: ماض، الذين: اسم موصول فاعل، والكاف: مفعول، كفروا: ماض والضمير فاعل، والجملة صلة الموصول[٢]، أما توظيف الفعل رأى فلأنهم يرون من الرسول الكمال والجلال، فتتحرك قلوبهم بالحقد والغيظ فيشرعون بالسخرية منه، مع علمهم أنه ليس على شيء مما يقولون، وذكر الكفر لأنه هو المغطي على قلوبهم وعلى أبصارهم فلا يرون الحق.

"إن يتخذونك إلا هزوا" إن: النافية بمعنى ما، وجواب إذا بما النافية لم يرد في القرآن إلا

---

[١] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٤، ص ٨٦–٨٧.

[٢] انظر الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٦، ٣٠٨.

هنا[١]، وقيل هو محذوف تقديره يقولون المحكي به قولهم[٢]، يتخذونك: مضارع وضمير فاعل ومفعول، أما توظيف الفعل يتخذونك، فلأن الأمر من عندهم لا لأن الأمر كذلك على الحقيقة، إلا: أداة حصر، هزوا: مفعول ثان، والهزء: السخرية[٣].

"أهذا الذي يذكر آلهتكم" الهمز للاستفهام، والاستفهام للسخرية، والجملة مقولة قول لفعل محذوف تقديره يقولون، أو هي جواب إذا، هذا: مبتدأ، الذي: خبر، والجملة صلة الموصول[٤]، قيل: الاستفهام للإنكار والتعجب[٥]، أي أنهم من فرط استهزائهم واستصغارهم يشيرون إليه باسم الإشارة هذا، ثم يعرفون به بأنه الذي يذكر آلهتهم بسوء، من تلطف الله تعالى برسوله أن أعاد عليه كلام الكفار وأعلمه بحقدهم.

"وهم بذكر الرحمن هم كفرون" الواو: واو الحال، هم: مبتدأ، بذكر الرحمن: جار ومجرور ومضاف إليه، هم: توكيد لفظي، كافرون: خبر[٦]، قيل: الجملة حال وهم على حال هي أصل السخرية وهي الكفر بالله[٧]، وتكرار هم به رأيان، الأول: الأولى إشارة إلى القوم الذين

---

[١] انظر، الدرويش، إعراب القرآن، ج٦، ص ٣٠٨، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٦، ص ٢٨٩-٢٩٠، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٤، ص ٨٦-٨٧، الألوسي، روح المعاني، ج١٧، ص ٤٧-٤٨، السمين، الدر المصون، ج٨، ص ١٥٥-١٥٦.

[٢] انظر، الدرويش، إعراب القرآن، ج٦، ص ٣٠٨، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٦، ص ٢٨٩-٢٩٠، الألوسي، روح المعاني، ج١٧، ص ٤٧-٤٨ السمين، الدر المصون، ج٨، ص ١٥٥-١٥٦.

[٣] انظر، مادة هزء، لسان العرب.

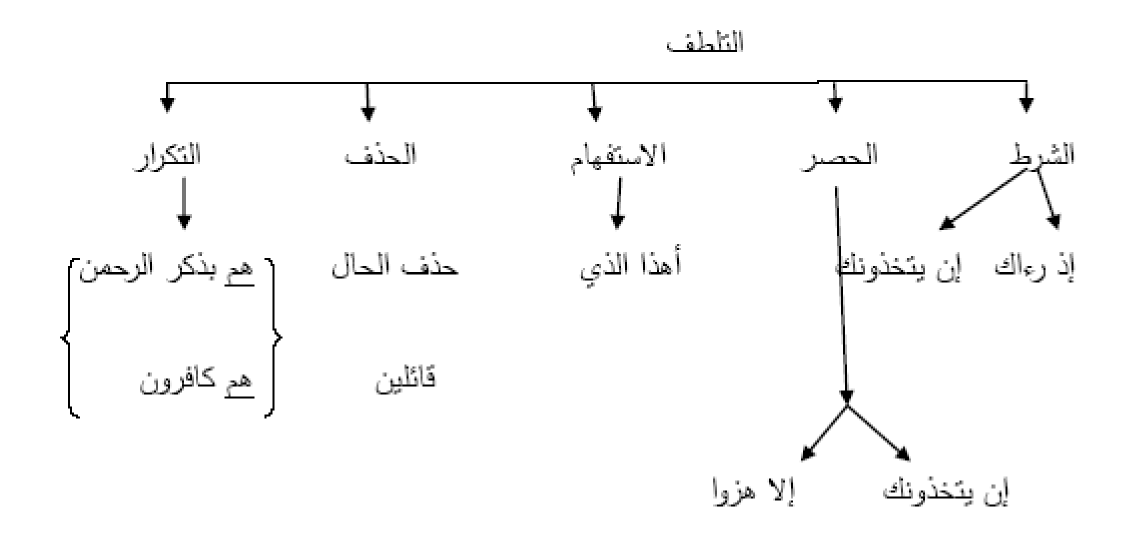
[٤] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٦، ص ٣٠٨.

[٥] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج١٢، ص ٤١٩-٤٢٠، الألوسي، روح المعاني، ج١٧، ص ٤٧-٤٨، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج١٥، ص ٩٥٣٨-٩٥٣٩.

[٦] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٦، ص ٣٠٨ الألوسي، روح المعاني، ج١٧، ص ٤٧-٤٨.

[٧] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص ١٠٣، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٦، ص ٢٨٩-٢٩٠، البقاعي، نظم الدرر، ج١٢، ص ٤١٩- ٤٢٠، السمين، الدر المصون، ج٨، ص ١٥٥-١٥٦.

يفعلون ذلك، والثانية إبانة لاختصاصهم به، والرأي الثاني: تأكيد وتعظيم لفعلهم[(١)].



الخطاب بالاسم الموصول والضمير المستتر.

خوطب الرسول –صلى الله عليه وسلم– بالاسم الموصول **(الذي)** في أربع مواضع تخيرت منها موضعا واحدا، وكذا خوطب الضمير المستتر في خمسة وثمانين موضعا، تخيرت منها موضعا.

الشاهد الأول:

الخطاب بالاسم الموصول (الذي).

قَالَ تَعَالَى:﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾الحجر: ٦

النداء من الكفار على وجه الاستهزاء، وكيف يقرون بنزول الذكر عليه ويقولون عنه مجنون؟ والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم، والمعنى إنك لتقول قول المجانين حين تدعي

(١) انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٢، ص ١٧٠.

أن الله نزل عليك الذكر[١]، وقيل: يحكمون عليه بالجنون لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم- كان يغشاه عند نزول الوحي غشي فظنوا أنه جنون، أو أنهم كانوا يستبعدون أن يكون رسولا حقا، أو أنهم يهزؤون به فيقولون: نزل عليه الذكر، أي في زعمه واعتقاده واعتقاد أتباعه[٢]، قيل: هو استخفاف واستهزاء لأنهم لا يقرون بنزول الذكر عليه، وينسبونه إلى الجنون[٣].

إن الكفار قد ادعوا على الرسول - صلى الله عليه وسلم- بالباطل، فمرة هو شاعر، وأخرى هو ساحر، وهنا هو مجنون، والله مخزيهم في كل دعوى هم ناطقون بها عليه، وما كان قولهم عليه بالباطل إلا زورا وبهتانا، بل إنه حجة من لا حجة له، فكيف يكون مجنونا من يأتي بالمعجزات وبالبيان الذي أعجزهم وأذهلهم؟ فما الأمر إلا كلام قد صدر من جاهل - وليس الأمر كذلك- أو عاجز لا يجد لما يحصل تفسيرا، فعند المحاجة العقلية تجد الرسول - صلى الله عليه وسلم- ظاهرا معجزا إياهم، بل إنه يتحداهم أن يأتوا بمثل ما أتى به، ولكنهم لا يستطيعون، فكيف يكون مجنونا من أعياهم وأعجزهم؟

التناقض واضح في دعواهم على الرسول - صلى الله عليه وسلم، فهم يعترفون بالقرآن الكريم بأنه ذكر، وقد سبق لهم أن تلمسوا بالقرآن الهنات فما وجدوا، وفي خطابهم إياه لم يتنبهوا إلى أنهم خاطبوه بما يخاطبه به الله، وهكذا فقد أجرى الحق على ألسنتهم احتراما وتوقيرا وتبجيلا للرسول الكريم، دون أن يشعروا، وذلك من مشيئته سبحانه أن ينطق أهل العناد بالحق

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص ٤١٠.

[٢] الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج١٩، ص ١٦١-١٦٢ والألوسي، روح المعاني، ج١٤، ص ١١-١٢.

[٣] أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٥، ص ٤٣٤-٤٣٥، الألوسي، روح المعاني، ج١٤، ص ١١-١٢ الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج١٢، ص ٧٦٤٥-٧٦٤٦.

دون أن يشعروا[١].

إن الله تعالى يتلطف برسوله – صلى الله عليه وسلم، فيسخر الكفار المعتدين ليعترفوا بألسنتهم أنه رسول وأن الذكر قد تنزل عليه، وهم قاصدين إلى السخرية منه أو الانتقاص من شأنه، فتجدهم ودون أن يشعروا ينطقون بالحق وهم مصرون على خلافه، وهنا مثال ذكره الشعراوي يصلح للتمثل به قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ﴾ المنافقون: ٧ أي لا تنفقوا على من هم عند الرسول – صلى الله عليه وسلم، حتى يجوعوا فينفضوا ويتفرقوا، فهم يقولون: رسول الله، فهل آمنوا به؟ الجواب: لا، فما الذي أنطقهم؟ إنها غلبة الحق، فالله أنطقهم به وهم لا يشعرون[٢].

أما التلطف على صعيد التراكيب فيجنى من قوله "يا أيها الذي نزل عليه الذكر" يا: أداة نداء، أي: منادى مبني على الضم في محل نصب، والهاء للتنبيه، الذي: اسم موصول في محل بدل من أي، نزل: فعل ماض، عليه: جار ومجرور، الذكر: نائب فاعل للفعل المبني للمجهول نزل[٣].

قيل: بناء الفعل للمجهول للإيهام أن ليس ذلك بفعل فاعل، أو لتوجيه الإنكار إلى كون التنزيل عليه – صلى الله عليه وسلم– وتقديم الجار والمجرور على نائب الفاعل لأن إنكارهم متوجه إلى كون النازل ذكر من الله تعالى لا إلى كون المنزل عليه هو الرسول – صلى الله عليه وسلم[٤]، والفعل مشدد **(نزّل)** ليكون مبنيا للمفعول، وإذا خفف يبنى للفاعل[٥].

---

[١] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج١٢، ص ٧٦٤٥-٧٦٤٦.

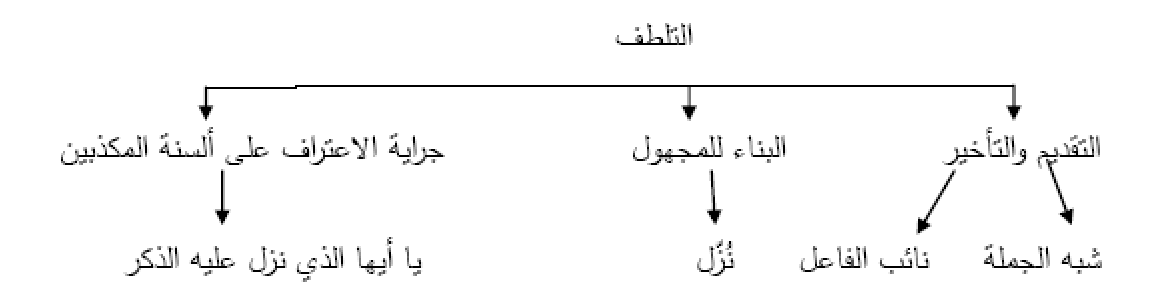
[٢] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن، ج١٢، ص ٧٦٤٥-٧٦٤٦.

[٣] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٥، ص ١١٤.

[٤] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج١٤، ص ١١-١٢.

[٥] انظر، السمين، الدر المصون، ج ٧، ص ١٤٣.

"إنك لمجنون" إن: حرف توكيد ونصب، والكاف: اسم إن، واللام: لام الابتداء، مجنون: خبر مرفوع.



الشاهد الثاني:

الخطاب بالضمير المستتر.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ الصافات: ٣٧

الآية رد على المشركين[١]، إذ اتهموا سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم- بأنه شاعر مجنون، ثم أنه كذبهم، فقال: بل جاء بالحق، تقرير هذا الكلام أنه جاء بالدين الحق لأنه ثبت بالعقل أنه تعالى منزه عن الضد والند والشريك، فلما جاء الرسول – صلى الله عليه وسلم- بتقرير هذه المعاني كان مجيئه بالدين الحق، صدق المرسلين: صدّقهم في مجيئهم بالتوحيد ونفي الشرك، وهنا تنبيه على أن القول بالتوحيد دين لكل الأنبياء[٢].

تجد الباحثة مما تقدم ربطا بالآية السابقة قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴾ الصافات: ٣٦ أن الله تعالى يتولى دفع التهم عن رسوله – صلى الله عليه وسلم- بنفسه، بأن

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٣٩، البقاعي، نظم الدرر، ج١٦، ص ٢٢٧.

[٢] الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٦، ص١٣٣-١٣٥، والثعالبي، الجواهر الحسان، ج٥، ص ٣٨. السيوطي، الدر المنثور،ج١٢،ص ٣٩٨.

ينزل آية يذكر بها كلام المشركين الباطل في حق رسوله – صلى الله عليه وسلم، ثم يأتي بما يدفع عنه قولهم، ويثبت بطلانه، فالذي جاء به حق ولو أنكروه، بل إن بعثته – صلى الله عليه وسلم – تصديق لما جاء به من سبق من الرسل والأنبياء.

زيد فيها: إن في كلام المشركين اختلاط وتناقض، فالشاعر –حسب اتهامهم– حاذق ماهر ينظم المعاني الغريبة ويصوغها في قالب الألفاظ البديعة ومن كان مجنونا لا يصل إلى ذلك، ثم أضرب الله عن كلامهم، فليس ما جاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم– شعرا، بل هو الحق الذي لا شك فيه، ثم أخبر أنه قد صدّق من تقدمه من المرسلين، فهو ومن تقدمه من الرسل على طريق واحدة من الدعوة إلى التوحيد، وصدقهم في التبشير به وفي أنه يأتي آخرهم[١].

من تلطف الله تعالى برسوله – صلى الله عليه وسلم– أن يعيد قول الكفار فيه نصا، ليظهر ما وقعوا به من تناقض في ادعائهم عليه، فكيف يكون الشاعر مجنونا، وهم أهل العربية وأهل الشعر وأخبر به، فالشاعر لديه موهبة وقدرة لغوية فائقة تمكنه من قولبة الكلام وصياغته وتقديمه في قوالب موسيقية محددة، فكيف يكون الشاعر مجنونا، بل كيف يجمعون بين صفتين متناقضتين في شخص واحد، فكلامهم مختلط بذاته دون تقديم الحجج لرده، فكيف إذا ساند ذلك ما جاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم– من كلام به ما به من الحقائق والتشريعات والمعجزات.

زيد فيها: لما كان ما جاء به أهلا لكونه حقا لأن يقبل، وإن خالف جميع أهل الأرض،

---

[١] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٧، ص ٣٤٣.

وكان موافقا مع ذلك لمن تقرر صدقهم من الأنبياء والرسل، فكان أهلا لأن يقبله هؤلاء[١]، فقد جاء بالحق الذي أجمع عليه كافة المرسلين فأين الشعر والجنون من ساحته؟[٢].

تجد الباحثة مما تقدم أن من تلطف الله برسوله – صلى الله عليه وسلم– دفاعه عنه، وتأكيد أن ما جاء به هو الحق المبين، وذلك مثبت من وجهين، الأول: ما يأتي به حق مقنع لكل ذي عقل، والثاني: أن ما جاء به تأكيد لما جاء به الرسل من قبله، فكل الشرائع السماوية من مشكاة واحدة، فلا تباين فيها فكلها تدعو إلى التوحيد، بل إن ما جاء به سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم– يزيد عليها أنها رسالة صالحة لكل زمان ومكان ولعامة الناس كافتهم لا لأمة بعينها، وهذه خصوصية للرسول الكريم قد ختم به الرسل وختمت برسالته الرسالات، ومن الخصوصية له أن بشر به الرسل فقد ذكر –عليه الصلاة والسلام– في الكتب والصحف الأولى.

أما التلطف في التراكيب فيجنى من قوله تعالى " بل جاء بالحق"، بل إضراب إبطالي[٣]، فهي إضراب عن الكلام السابق، يعني دعك من هذا الهراء[٤] جاء: ماض للدلالة على الانقضاء والتمام، وتوظيف الفعل جاء من تلطف الله تعالى برسوله – صلى الله عليه وسلم، فالرسول لم يأت من نفسه بل أرسل من الله، لكن هنا إشارة إلى قوة عزيمته – صلى الله عليه وسلم – وحرصه على نشر الدين، فكأنما جاء من نفسه بإرادته الكاملة – وقد تقدم الحديث عنه– والفاعل مستتر تقديره هو، مقصوده الرسول – صلى الله عليه وسلم، وقد عبر عنه بالضمير المستتر لأن قد علم أن الحديث عنه، ولأنه المعني الوحيد في المجيء بالحق، فليس رسول معه ولا بعده،

---

[١] البقاعي، نظم الدرر، ج١٦، ص ٢٢٧.

[٢] الألوسي، روح المعاني، ٢٣، ص ٨٤–٨٥.

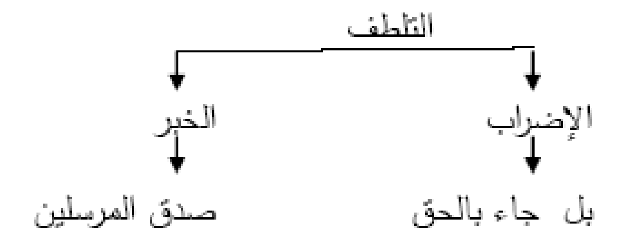
[٣] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج ٨، ص ٢٦٥.

[٤] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج٢٠، ص ١٢٧٦٧.

فالحق يعني الرسول – صلى الله عليه وسلم– وما قد جاء به من عند ربه تعالى، بالحق: الباء: جار يفيد الإلصاق، الحق: مجرور، والحق في اللسان: نقيض الباطل[١].

"وصدق المرسلين" الواو: عاطفة، صدّق: ماض، والفاعل مستتر تقديره هو، مقصـــوده الرسول – صلى الله عليه وسلم، وتوظيف الفعل بصيغة التضعيف للتكثير فكل جزئية جاء بهـــا الدين تصديق لما جاء به الرسل، المرسلين: مفعول به منصوب، بصيغة الجمع، لأن ما جاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم– تصديق لهم جميعا لا بعضهم دون كلهم، والتعريـــف أيضـــا إشارة إلى علمهم ومعرفتهم بأن سبقه إلى هذه الدعوة رسل قبله، وفي هذه أيضا حجة علـــيهم، وتلطف بالرسول – صلى الله عليه وسلم– فما جاء به ليس بالغريب بل هم عارفون به قبلا، بل ربما هم كانوا ينتظرون من الرسول – صلى الله عليه وسلم– أمورا وإشارات ذكرت في كتبهم، لا سيما أنه لم يتعلم قبل الرسالة، بل إن علمه كان بعدها، فقد علمه الله تعالى بنفسه أتم العلـــوم وأكملها وأشرفها.

وقيل في بعض القراءات "صدق المرسلون" بتخفيف صـــدق، المرســـلون: فاعـــل، أي صدقوا بما جاؤوا به من بشارتهم به – عليه الصلاة والسلام[٢].



---

[١] انظر، ابن منظور، مادة حقق.

[٢] انظر، السمين، الدر المصون، ج٩، ص ٣٠١.

الفصل الرابع:

التلطف في خطاب الرسول- صلى الله عليه وسلم- محمد -صلى الله عليه وسلم- بصيغ لغوية مباينة للمخاطب والغائب، بأسمائه وصفاته وكناه.

الفصل الرابع:

التلطف في خطاب الرسول- صلى الله عليه وسلم- محمد-صلى الله عليه وسلم- بصيغ لغوية مباينة للمخاطب والغائب، بأسمائه وصفاته وكناه.

الخطاب بأسمائه:

خوطب الرسول - صلى الله عليه وسلم- بأسمائه، محمد: في أربعة مواضع، أحمد: في موضع واحد، ومثل ذلك خطابه بـــ: المدثر والمزمل وطه ويس، تخيرت منها المزمل والمدثر.

الشاهد الأول:

المزمل.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ المزمل: ١

المزّمل:هو الذي تزمل بثيابه، وقد أمر بالتهجد والتشمر للدعوة[١]، أو أن النـــداء كـــان وقت تزمله للصلاة، فجاء ثناء عليه وتحسين لحاله فأمر أن يواظب عليه[٢]، قيل: هو أول نزول نزول الوحي قال لخديجة عند مجيء جبريل عليه: زملوني زملوني[٣]، أو أن المعنى يـــا أيهـــا الذي زمل أمرا عظيما، أي حمله والمقصود النبوة وأعباؤها[٤].

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج ٤، ص ٥٤-٥٥، والفخر الرازي، ج٣٠، ص ١٧١، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٨، ص ٣٥٢-٣٥٣، والسيوطي، الدر المنثـــور، ج١٥، ص ٣٥-٣٦، الألوســـي، روح المعاني، ج٢٩، ص ١٠٠-١٠٢.

[٢] انظر، الفخر الرازي، ج٣٠، ص ١٧١، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٨، ص ٣٥٢ والألوســـي، روح المعاني، ج٢٩، ص ١٠٠-١٠٢.

[٣] انظر، الفخر الرازي، ج٣٠، ص ١٧١، وقطب، في ظلال القرآن ج٨، ص ٢٤٠-٢٤٥.

[٤] انظر، الفخر الرازي، ج٣٠، ص ١٧١، والبقاعي، نظم الدرر، ٢١، ص ٢-٣، الألوسي، روح المعـــاني،=

إن الله تعالى يتلطف برسوله الكريم، بأن يخاطبه بالحال التي هو عليها، فيحضه على القيام والتشمر للدعوة، ويبشره بأنه معصوم منصور من عنده، فإن كان التفسير على أنه كان متزملا للصلاة فهو ثناء عليه على حسن عبادته وتزمله لها، وإن كان النداء وقت نزوله من غار حراء وفزعه لرؤية الملك جبريل -عليه السلام- فهو نداء طمأنة وتهدئة، وإن كان النداء بمعنى المتحمل أمرا عظيما فهو الثناء أن اختاره واصطفاه لمثل هذا الأمر الجليل.

مناسبة الآية مع نهاية السورة السابقة لها وهي سورة الجن قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ ﴾ الجن: ٢٦ فاتبعه بقوله "يا أيها المزّمل" إعلاما بأنه قد ارتضاه من الرسل وخصه بخصائص وكفاه شر أعدائه[1].

يربط المفسر بداية السورة مع نهايتها السابقة لها، وهي آخر آيات من سورة الجن، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الجن: ٢٦ إلا من ارتضى من رسول قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ الجن: ٢٧ - ٢٨

فالمزمل تالية لها إعلانا من الله تعالى أنه قد اصطفاه وارتضاه ليكون رسوله إلى الناس، بل وإنه ليشهد أن رسله قد بلغوا بما أمروا.

والمزمل ليس اسما من أسمائه - صلى الله عليه وسلم- بل هو مشتق من حالته التي كان التبس بها حال الخطاب، والعرب إذا قصدت الملاطفة بالمخاطب تترك المعاتبة فنادوه باسم

=ج٢٩، ص ١٠٠-١٠٢، وقطب، في ظلال القرآن ، ج٨، ص ٢٤٠-٢٤٥.

[1] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٨، ص ٣٥٢-٣٥٣.

مشتق من حاله، كقول الرسول – صلى الله عليه وسلم– لعلي – كرم الله وجهه، وقد نام ولصق بجنبه التراب "قم أبا تراب"[١]، أو أن المقصود الذي أخفى شخصه واستتر بما أشار إليه من التزمل، الذي يعني التلفف بالثوب على جميع البدن والاختفاء ولزوم المكان الواحد، والمراد أيها المختفي هذا أوان الكشف والانتشار[٢]، أو أن تزمله لأنه سمع من قريش ما يكره فاغتم، فأمر أن يبلغهم على إيذائهم[٣]، وقيل: الآية تخفيف على الرسول – صلى الله عليه وسلم– وعلى المسلمين لما رأى حسن قيامهم بالليل الكامل، فأنزل الله التخفيف فصار قيام الليل تطوعا بعد أن كان فرضا[٤].

يتلطف الله تعالى برسوله – صلى الله عليه وسلم؛ إذ يخطابه بصيغة مألوفة في أهله، أن يناديه بوصف هو حاله، فإن كان العتاب فهو اللطيف الرقيق منه، وبه يستأنس المخاطب فلا يساور نفسه شعور بالتقصير أو الخوف.

أما التلطف في التراكيب فيجنى من قوله تعالى "يا أيها المزمل" نداؤه بالقريب والبعيد لأنه لا يقال بعدها إلا الأمور العظيمة وللإشارة إلى أنه في غاية القرب بالأمور البعيدة عن تناول الخلق بكونها خوارق للعادات ونواقض للمألوفات[٥]، نداؤه بالاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل بذلك العمل واتصف بصفته[٦].

يا: أداة نداء للبعيد، أي: منادى مبني على الضم في محل نصب، الهاء: للتنبيه، المزمل:

---

[١] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص ٣٥٢-٣٥٣.

[٢] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٢١، ص ٢-٣.

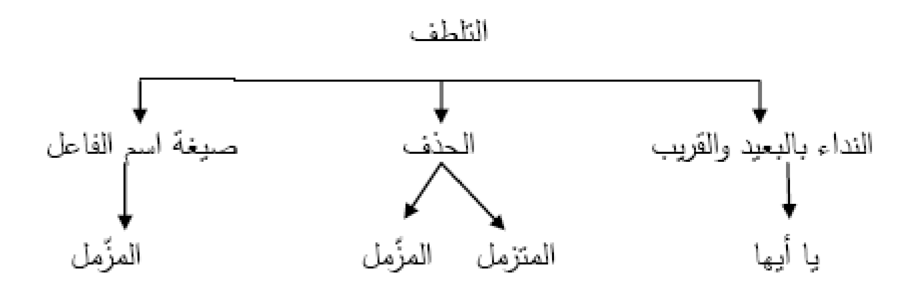
[٣] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٢٩، ص ١٠٠-١٠٢، وقطب، في ظلال القرآن ، ج٨، ص ٢٤٠-٢٤٥.

[٤] انظر، السيوطي، الدر المنثور، ج ١٥، ص ٣٥-٣٦، وقطب، في ظلال القرآن، ج٨، ٢٤٠-٢٤٥.

[٥] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٢١، ص ٢-٣.

[٦] انظر، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٥، ص ٥٠٠.

بدل منصوب، أو نعت[١]، واسم الفاعل للدلالة على آنية الوصف لا ديمومته[٢].



الشاهد الثاني:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ المدثر: ١

المدثر: لابس الدثار، وهو الثوب الذي فوق الشعار مما يلي الجسد[٣]، وقد نزلت أول نزول الوحي عندما رجع إلى خديجة فقال: دثروني[٤]، أو إنه سمع من قريش ما يكره فاغتم فتغطى بثوبه كما يفعل المغموم، فأمر ألا يدع إنذارهم وإن آذوه[٥]، أو هو دثار النبوة

---

[١] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج ١٠، ص ٢٥٧.

[٢] انظر، السمين، الدر المصون، ج١٠، ص ٥٠٩-٥١٠.

[٣] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٥٤٩-٥٥٠، والثعالبي، الجواهر الحسان، ج ٥، ص ٥٠٩، والبقاعي، نظم الدرر، ج٢١، ص ٤٠، والألوسي، روح المعاني، ج ٢٩، ص ١١٥-١١٦، والسمين، الدر المصون، ج١٠، ص ٥٣٣.

[٤] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٥٤٩-٥٥٠، والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج ٣٠، ص ١٨٩، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٨، ص ٣٦١-٣٦٢، والسيوطي، الدر المنثور، ج١٥، ص ٦١-٦٣، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٨، ص ٣٥٤-٣٥٦.

[٥] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٥٤٩-٥٥٠، والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج ٣٠، ص ١٨٩، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٨، ص ٣٦١-٣٦٢، والسيوطي، الدر المنثور، ج١٥، ص ٦١- ٦٣، والألوسي، روح المعاني، ج ٢٩، ص ١١٥-١١٦، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٨، ص ٣٥٤-٣٥٦.

والرسالة[١]، وقيل: إن جبريل –عليه السلام– رآه متدثرا بثوبه لينام، أيقظه فكأنه قال له اتـــرك التدثر والنوم وقم للمنصب الذي نصبك الله له[٢]، وقيل: إن المتدثر بالثوب يكون كالمختفي فيـــه وإنه في جبل حراء كالمختفي من الناس، فأمره أن يخرج لينذر الناس ويشهر الأمر[٣]، وقيل: إن المقصود أن زمن الراحة والتدثر قد مضى، وجاء وقت التكليف وهداية الناس[٤].

يخاطب الله تعالى الرسول – صلى الله عليه وسلم– بصفة اتصف بها وهي التدثر، وهي تلطف من الله بشتى تفاسيرها، فإن كان خائفا كان النداء تهدئة من روعه، وإن كان مغتما فـــإن النداء لإذهاب غمه بمواساة ربه له، وإن كان الدثار دثار النبوة فهو نداء تكريم ومدح وتشريف، وإن كان نداء أمر وتكليف فليس التكليف إلا لمن استوى أمره وتم عزمه فكان أهلا للتكليف، فإن كان أمر بأن يصدح بالرسالة وإشهارها، فهو نداء تذكير بمؤازرة الله له وعصمته في كل حين.

أما التلطف في التراكيب فيجنى من قوله تعالى "يا أيها المدثر" يا: حـــرف نـــداء، أي: منادى مبني على الضم لأنه نكرة مقصودة، والهاء للتنبيه، المدّثر: بدل[٥]، أصلها المتدثر: وهو المتدثر بثيابه لينام، وفي اللسان، الدثار: الثوب الذي يستدفأ به فوق الشعار[٦]، والشـــعار: مـــا استشعرت به من الثياب تحت الدثار[٧]، والتعبير بالأداة الصالحة للقريب والبعيد يراد به غايـــة القرب، واختير التعبير بها لأنه لا يقال بعدها إلا ما جل وعظم، والمعنى الستر، وســـتر العـــين

---

[١] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج ٣٠، ص ١٨٩، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٨، ص ٣٦١–٣٦٢، الألوسي، روح المعاني، ج ٢٩، ص ١١٥–١١٦.

[٢] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٣٠، ص ١٨٩.

[٣] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٣٠، ص ١٨٩. البقاعي، نظـــم الـــدرر، ج٢١، ص ٤٠، والألوسي ، روح المعاني، ج٢٩، ص ١١٥–١١٦.

[٤] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٢٩، ص ١١٥–١١٦.

[٥] انظر، إعراب القرآن الكريم، ج١٠، ص٢٥٨، يشير إلى إعراب "يا أيها المزمل".

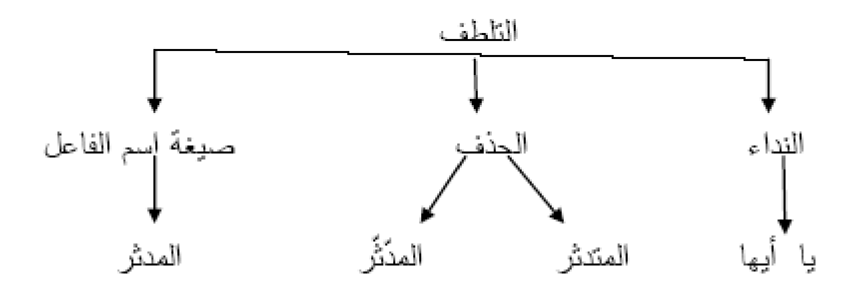
[٦] انظر، ابن منظور، مادة دثر.

[٧] انظر، ابن منظور، مادة شعر.

ليجتمع القلب، لما كان في تدثره أن لزم موضعا واحدا لزم من ذلك إخفاء نفسه الشريفة، فأمره الله بإشهار الرسالة وحمل النفس بغاية الجد والاجتهاد واللازم عنه كثرة الانتشار[١]، ونداءه باسم مشتق من صفته ملا طفة له وتأنيسا[٢].

والمدثر: اسم فاعل إذا خففت واسم مفعول إذا شددت[٣].

يجنى التلطف في خطابه –صلى الله عليه وسلم – إذ قال "يا أيها المدّثر" يا: أداة نـــداء للبعيد، والخطاب بالبعيد إعلاء من شأنه وتعظيما له، ثم ناداه بـــ"أيها" أي: أداة نداء للقريب وهي منادى مبني على الضم في محل نصب، والقرب مجازي معنوي، والجمع بين الأداتين إظهـــار لمكانته الرفيعة، والهاء للتنبيه، المدّثر: بدل، واسم الفاعل للدلالة على الحدثية المؤقتة، فالرسالة يلزمها الإشهار والإعلان لا التدثر والاستتار.



الخطاب بصفة العبودية:

خوطب الرسول – صلى الله عليه وسلم– الكريم بصفة العبودية في تســـعة مواضــــع، تخيرت منها ما اتصل بضمير عائد على الله تعالى (عبده)، وما أضيف إلى الاســـم الجليـــل الله (عبد الله).

---

[١] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٢١، ص ٤٠.

[٢] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٢٩، ص ١١٥-١١٦.

[٣] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٢٩، ص ١١٥-١١٦. السمين، الدر المصون، ج١٠، ص ٥٣٣.

الشاهد الأول:

عبد المتصلة بضمير عائد على الله تعالى (عبده).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾الزمر: ٣٦

قالت قريش للرسول – صلى الله عليه وسلم: إنّا نخاف أن تخبلك آلهتنا ونخشى عليك معرّتها لعيبك إياها، وروي أنه بعث خالدا إلى (العزى) ليكسرها، فقال له سادنها: أحذركها يا خالد، إن لها لشدة لا يقوم لها شيء، فهشم خالد أنفها، فقال الله تعالى: "أليس الله بكاف عبده" والمعنى أن يعصمه من الأذى في مواطن الخوف، وهذا تهكم بهم لأنهم خوفوه ما لا يقدر على نفع أو ضرر، الذين من دونه: الأوثان[١].

يتلطف الله تعالى برسوله – صلى الله عليه وسلم، فيبعث الطمأنينة في نفسه، بأنه كافيه وعاصمه، ثم يعرض لحال من أحوال الكفار أنهم يخوفون الرسول – صلى الله عليه وسلم– الكريم بالآلهة التي ستصيبه بأذى؛ ذلك أنه يعيبها ويعيب عابديها، والله عاصمه من كل أذى قد يلحق به، وليست الطمأنة هنا لأن الرسول – صلى الله عليه وسلم– الكريم صدق بأن لهذه الأصنام قدرة على أذيته بل إن الطمأنة له تهكم من الله عليهم، فكيف تخوفونه بأصنام لا تملك ضرا ولا نفعا وقد علمتم أن الله عاصمه من قبل، بل وإنه بينكم ولا تستطيعون مسه.

ما ثبت أن الله كاف عبده، ذكر النتيجة فقال "ويخوفونك" أي أن التخويف بغير الله عبثا

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج ٤، ص ١١٨، والانلسي، البحر المحيط، ج٧، ص ٤١٣، والسيوطي، الدر المنثور، ج١٢، ص ٦٦٢-٦٦٣.

باطلا[١]، فإن الله قد كفى نوحا الغرق، وكفى إبراهيم النار، فهو كافيه كما كفى هؤلاء الرسل[٢]، وفي الآية تقوية لنفس النبي[٣]، والحال العجيبة التي تعرضها الآية أن عبّاد الأصنام يعلمون أن الله يكفي من أراد والأصنام لا كفاية عندها، فقال متهكما معجبا "ويخوفونك"[٤] والدلالة أن الله يكفي نبيه منهم دينه ودنياه[٥].

يتلطف الله برسوله –صلى الله عليه وسلم– أن يعرض لحال الكفار الذين يعلمون أن الله عاصمه ومع ذلك يخوفونه غضب الأصنام، مع علمهم أنها بلا حول ولا قوة، ويثبت فؤاده أنه كافيه وحاميه في أمور الدين والدنيا.

أما التلطف في التراكيب فيجنى من قوله تعالى "أليس الله بكاف عبده" الهمزة للاستفام التقريري لأن همزة الإنكار إذا دخلت على النفي أثبتته[٦]، ليس واسمها والباء حرف جر زائد، كاف: خبرها مجرور لفظا منصوب محلا، عبده: مفعول كاف[٧]، إنكار ونفي كأن الكفاية من التحقق والظهور بحيث لا يقدر أحد على أن يتفوه بعدمها[٨].

الهمزة: للاستفهام الإنكاري، ليس: فعل ماض جامد، الله: لفظ الجلالة، اسم ليس، وإيراد

---

[١] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٦، ص ٢٨١، والانلسي، البحر المحيط، ج٧، ص ٤١٣.

[٢] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٦، ص ٢٨١.

[٣] انظر، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج، ص ٩٢.

[٤] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج ١٦، ص ٥٠٩-٥١٠.

[٥] انظر، الالوسي، روح المعاني، ج٢٤، ص ٥-٦.

[٦] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٨، ص ٤٢٢، والزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ١١٨، والفخرالرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٦، ص ٢٨١، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٧، ص ٤١٣، والشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج٢١، ص ١٣١٣٩-١٣١٤٤.

[٧] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٨، ص ٤٢٢.

[٨] انظر، الألوسي، روح المعاني، ج٢٤، ص ٥-٦.

السؤال المنفي لأن النفي بعد إنكار يفيد الإثبات بل والإثبات المؤكد، وذكر لفظ الجلالة صراحة لزيادة الطمأنة في قلب الرسول – صلى الله عليه وسلم– الكريم وتذكيره بكفاية الله له وعصمته إياه من جهة، ومن أخرى لبعث الرهبة في قلوب الكفار، بكاف: الباء حرف جر، مؤكد بلاغي، كاف: مجرور في محل نصب اسم ليس، واسم الفاعل لتدل على فعل الكفاية ومن يقوم به وهو الله تعالى، وهذه من تلطف الله تعالى أن يتولى أمر الكفاية بنفسه، وفي اللسان، كفى يكفي كفاية إذا قام بالأمر عنك[١]، عبده: مفعول به لاسم الفاعل، والمقصود بالكفاية والعبودية هو الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم، أما خطابه بصفة العبودية، فمن باب المدح والاستحقاق للغاية بحسن عبوديته واكتمالها وصدقها، والعبد: في الأصل صفة إذ يقال رجل عبد، ثم استعملت استعمال الأسماء، والعبودية التذلل الخضوع[٢]، فذكر الاسم وهو الصفة مدح للرسول الكريم، وهو مضاف، والضمير المتصل مضاف إليه، وهو عائد على الله تعالى، وفي هذه تلطف آخر أن أضافه إلى نفسه تعالى تشريفا وتكريما له.

"ويخوفونك بالذين من دونه" لك أن تجعل الواو للحال، والجملة حالية إذا إراد بالعبد الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم، فيكون المعنى أليس الله بكافيك حال تخويفهم إياك، ولك أن تجعل الجملة استئنافية لتعرض ما يعمدون إليه من تخويف الأصنام، ويخوفونك: مضارع، ومفعول، بالذين متعلقان بيخوفونك، من دونه: متعلقان بمحذوف وهو الصلة[٣]، والمعنى انه كافيه في هذه وفي كل حال[٤].

---

[١] انظر، ابن منظور، مادة كفي.

[٢] انظر، ابن منظور، مادة عبد.

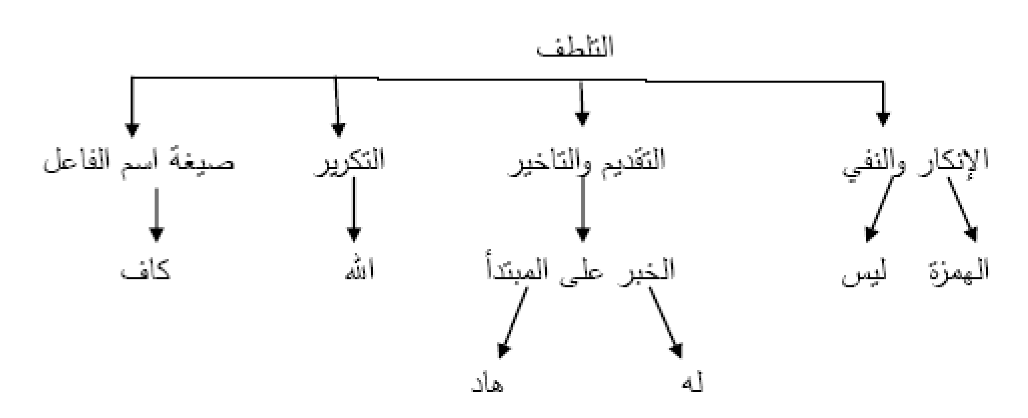
[٣] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج٨، ص ٤٢٢، والسمين، الدر المصون، ج٩، ص ١٢٩–٤٣٠.

[٤] انظر، السمين، الدر المصون، ج٩، ص ١٢٩–٤٣٠.

الواو: واو الحال، يخوفونك: المضارع ليدل على استمرار حالهم من محاولات تخويف الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم، والتضعيف للتكثير، الواو: ضمير متصل في محل رفع فاعل، الكاف: ضمير متصل في محل نصب مفعول به، والمقصود بالضمير هو الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم، الباء: جار يفيد الاستعانة، الذين: موصول في محل جر بحرف الجـــر، والتنكير للمعبودات تحقير لها، وإشارة إلى تعددها وسفاهتهم في عبادتها لأنها على كثرتهـــا لا تنفع ولا تضر، من دونه: جار يفيد بيان جنس، دونه: ظرف مضاف، والضمير: مضاف إليـــه عائد على الله تعالى، والمقصود سائر المعبودات من غير الله تعالى، التي هـــي دون أن تعبـــد سواء أكانت أوثانا، أو أصناما أو غير ذلك من معبودات.

"ومن يضلل الله فما له من هاد" الواو:استئناف، من: اسم شرط، يضلل: فعل مضـــارع مجزوم، الله: لفظ الجلالة، فاعل مرفوع، تكرار لفظ الجلالة لأنه الموفق للمهتدين للهداية، وهـــو المضل للضالين، بأن صرفهم عن التبصر لطريق الحق، الفاء: واقعة في جواب الشرط.

ما: نافية، له: جار يفيد الاختصاص، والضمير المتصل مجرور بحرف الجـــر، شـــبه الجملة خبر ما مقدم، وتقديم الخبر على المبتدأ لأن المقصود بالضلال والهداية قد خص بها، من: جار يفيد بيان جنس، لانتفاء جنس الهداية عنهم، هاد: مجرور، في محل رفع اسم ما، مجـــرور لفظا مرفوع محلا، واسم الفاعل للدلالة على الحدث ومن قام به، وجملة الشرط فعليـــة فعلهـــا مضارع للدلالة على الاستمرارية؛ ذلك أن الهداية والإضلال بيد الله للناس إلى يـــوم القيامـــة، وجملة جواب الشرط اسمية دالة على اللا زمان لها، ذلك أن لا هاد لمن قـــد أضـــل الله علـــى الدوام.



الشاهد الثاني:

عبد الله.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ الجن: ١٩

عبد الله: هو النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعوه: يعبده، والمراد قيامه لصلاة الفجر بنخلة، فلما سمعه الجن ورأوه، كادوا يكونون عليه لبدا، أي يزدحمون عليه متراكمين متعجبين مما رأوا من عبادته واقتداء أصحابه به وإعجابا بما سمعوا من القرآن الكريم[١]، أو إنه لما قام رسولا يعبد الله يخالف المشركين في عبادة الآلهة تظاهروا عليه وتعاونوا على عداوته[٢]، وقيل: وقيل: تلبدت الإنس والجن على أن يطفؤوا هذا الأمر فأبى الله إلا أن يظهره[٣]، الضمير في

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٥٣٧، والفخرالرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٣٠، ص ١٦٣، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص ٣٤٥-٣٤٦، والثعالبي، الجواهر الحسان، ج٥، ص ٤٩٨، والبقاعي، نظم الدرر، ج٢٠، ٤٩٠-٤٩١، السيوطي، الدر المنثور، ج ١٥، ص ٢٨-٣٠، والألوسي، روح المعاني، ج٢٩، ص ٩٢-٩٣، وقطب، في ظلال القرآن، ج٨، ص ٣٣٣-٣٣٤.

[٢] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٥٣٧، والفخرالرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٣٠، ص ١٦٣، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص ٣٤٥-٣٤٦، والثعالبي، الجواهر الحسان، ج٥، ص ٤٩٨، والألوسي، روح المعاني، ج٢٩، ص ٩٢-٩٣.

[٣] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٥٣٧، والفخرالرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٣٠، ص ١٦٣، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص ٣٤٥-٣٤٦، السيوطي، الدر المنثور، ١٥، =

(كادوا) عائد على أصحابه الذين يطيعونه ويقتدون به في الصلاة فهم عليه لبدا[١]. وقيل: هو تعجب الجن من تعاون المشركين على أذية الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم[٢].

إن الله تعالى يتلطف برسوله الكريم فيعرض لحال الجن عند سماعهم القرآن الكريم، وفيها إشارة إلى أن الرسول – صلى الله عليه وسلم- مبعوث للثقلين الإنس والجان، وهذه له لا لغيره، فكل رسول بعث لقومه، إلا الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم- فقد بعث للخلق كافة بل وإنه خاتم الرسل إلى يوم القيامة، وهذا من تكريمه وتشريفه له، فهم مزدحمون على الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم- تعجبا مما يسمعون من قرآن ومما يرون من اجتماع الصحابة حوله، المؤتمين به الذين يقومون بقيامه ويسجدون بسجوده، وقد تعجبوا من عبادته، والعجيب هو الانصراف إلى عبادة غيره، أما إن كان المقصود هو المشركين وتلبدهم على النيل من الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم- فإن الله عاصمه منهم على اجتماعهم وتآمرهم، فإن كان المقصود تلبد الفريقين من الإنس والجن على محاربة الرسول – صلى الله عليه وسلم- ودعوته فإن الله متم نعمته على عبده أن أظهر دينه وحفظ ذكره، ولو كره الكافرون.

أما التلطف في التراكيب فيجنى من قوله تعالى "وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا" وأنه: الواو عاطفة على أنه استمع، وأن واسمها، لما: رابطة أو ظرفية حينية متضمنة معنى الشرط، قام عبد الله: فعل ماض وفاعل، يدعوه: جملة حال، وجملة كادوا لا محل لها لأنها جواب، ولما وشرطها وجوابها خبر أن، وكاد: من أفعال المقاربة، الواو اسمها، وجملة

=ص ٢٨-٣٠، والألوسي، روح المعاني، ج٢٩، ص ٩٢-٩٣.

[١] انظر، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٥، ص ٤٩٨.

[٢] قطب، في ظلال القرآن، ج ٨، ص ٣٣٣-٣٣٤.

يكونون خبرها، والواو: اسم يكون، وعليه متعلقان بمحذوف حال، لبدا: خبرها[١].

عبد الله هو النبي، ولم يقل رسول الله أو نبي الله؛ لأن الكلام واقع في كلام الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– عن نفسه جيء به على ما يقصد التواضع والتذلل[٢]، قد عبر بالعبد لأن من يدعو سيده يتواضع له، فكيف إذا كان هذا السيد هو ملك الملوك، ودعاؤه سيده دعاء عبادة من حيث كونه عبدا، ومن حيث كون سيده يسمع من دعا ويجيبه[٣].

وأنه: الواو: استئنافية، أنّ: حرف توكيد ونصب، الهاء: ضمير متصل في محل نصب اسم أن، لما: أداة شرط، قام: ماض، عبد: فاعل مرفوع، وذكر العبودية دون غيرها، امتداح للرسول الكريم، والعبودية من الخضوع والتذلل والكلمة في أصلها صفة استعملت استعمال الأسماء[٤].

وإضافة العبد إلى الله تلطفا به وتشريفا له، يدعوه: مضارع، وفاعل ضمير مستتر، والضمير المتصل مفعول به، قيل: الجملة في محل نصب حال[٥]، كادوا: ماض من أفعال المقاربة، الواو: ضمير متصل هو اسمها، يكونون: الجملة المنسوخة خبر كاد، يكونون: مضارع، الواو: اسم يكون، لبدا: خبرها، واللبد: لبد الشيء بالشيء إذا ركب بعضه بعضا[٦]، والمقصود تزاحمهم عليه وتلبدهم.

---

[١] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج ١٠، ص ٢٤٤.

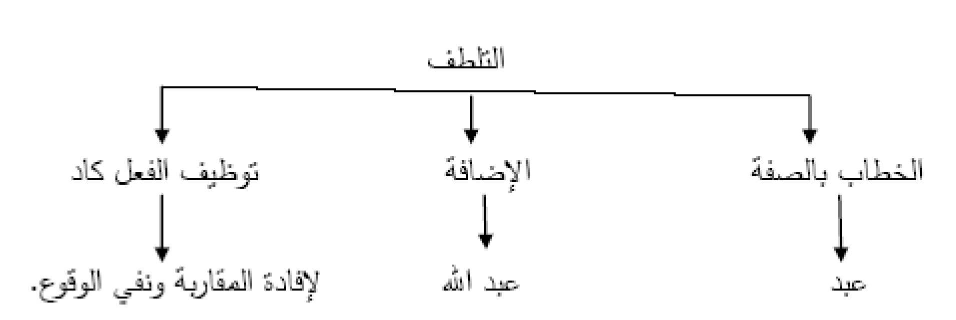
[٢] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٥٣٧. الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج ٣٠، ص ١٦٣، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٨، ص ٣٤٥–٣٥٦، والألوسي، روح المعاني، ٢٩، ص ٩٢–٩٣.

[٣] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج٢٠، ص ٤٩٠–٤٩١.

[٤] انظر، ابن منظور، مادة عبد.

[٥] انظر، السمين، الدر المصون، ج١٠، ص ٤٨٩–٤٩٩.

[٦] انظر، ابن منظور، مادة لبد.



الخطاب بصفاته الأخرى.

خوطب الرسول –صلى الله عليه وسلم– بصفات التشريف والتكريم، منها: النبي والرسول والأمي وشهيد ومبشر ...الخ، تخيرت منها خطابه بصفة النبوة (يا أيها النبي)، وخطابه بـ(أنت حل).

الشاهد الأول:

خطابه بصفة النبوة (يا أيها النبي).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦

شاهدا: على من بعثت إليهم وعلى تكذيبهم وتصديقهم مقبولا قولك عند الله لهم وعليهم، فهو شاهد عند تحمل الشهادة وعند أدائها، داعيا إلى الله بإذنه: مأذون لك بالدعاء، بتيسيره وتسهيله ذلك أن دعوتهم أمر صعب شاق لا يتأتى ولا يستطاع إلا إذا سهله الله ويسره، ولا يراد به الإذن على الحقيقة، وسراجا منيرا: جلّى به الله الظلمات واهتدى به الضالون، أو أمد الله

بنور نبوته نور البصائر كا يمد بنور السراج نور الأبصار[١].

من تلطف الله تعالى أن وصف رسوله – صلى الله عليه وسلم- بصفات جلها من متعلقات الرسالة، فبدأ بصفة النبوة، التي هي أساس متأت عنه ما تلاها من صفات، ثم ذكر أن إرساله كان من عند الله وهذه أيضا تشريف وتكريم له، ثم تتابع الصفات المترتبة على النبوة، فهو شاهد على العباد أمام الله يوم القيامة بما فعلوا من خير أو شر، وهو داع إلى الله بأمره وتسهيله، وهو السراج الذي يقتبس منه ويهتدى بهديه.

في السورة تأديب للرسول – صلى الله عليه وسلم- من ربه، وهي إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه مع الخلق، فهو شاهد في الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والبعث، وشاهد في الآخرة بأحوال أهل الدنيا من الطاعة والمعصية والصلاح والفساد، أو شاهد على الوحدانية بقول لا إله إلا الله ويرغب في ذلك بالبشارة فإن لم يكف يرهب بالإنذار[٢]، قيل: شاهدا على أمتك بالبلاغ مبشرا بالجنة منا من النار، وداعيا إلى شهادة ان لا إله إلا الله، والسراج المنير هو القرآن الكريم[٣].

إن الله تعالى يكرم رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن جعله شاهدا على أهل الدنيا، بأعمالهم خيرها وشرها، وذلك في الآخرة، وشاهدا على ما في الآخرة، من جنة ونار وغيبيات، الله أعلمه بها، وذلك في الدنيا، فإن كان شرط الشاهد لأهل الدنيا الخلق وتمام المروءة، فكيف بالشاهد على الدنيا والآخرة؟ فهنا تشريف للرسول -صلى الله عليه وسلم، وشهادة من الله أنه

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص ٤٨٦-٤٨٧، والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٥، ص ٢١٧-٢١٨، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٧، ص ٢٣٠، والبقاعي، نظم الدرر، ج ١٥، ص ٣٧١-٣٧٣، والألوسي، روح المعاني، ج٢٢، ص ٤٥-٤٦.

[٢] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٥، ص ٢١٧-٢١٨.

[٣] انظر، السيوطي، الدر المنثور، ج١٢، ص ٧٥-٧٧.

مكتمل المروءة مصدق عنده، لما له من خلق وعظيم فضل خولاه ليكون لله شهيدا.

شهيد على الرسل أن بلغوا الرسالات التي وكلوا بها[١]، أو أنه يشهد أنه قد بلغ أمته كما أن كل رسول شهيد على أمته، وميزة الرسول – صلى الله عليه وسلم- أنه خاتمهم، يبشر من استجاب بالخير، ونذير لمن لم يستجب بالعذاب[٢].

من تلطف الله برسوله – صلى الله عليه وسلم- أن فضله على الرسل، بأن جعله خاتمهم وبأن جعله عليهم شهيدا، وهذه له لا لغيره من الخلق بل ولا حتى أحدا من الرسل، وهو المبشر بالجنة لمن اتقى وهو النذير من النار لكل من كفر وأعرض.

أما التلطف في التراكيب فيجنى من قوله تعالى "يا أيها النبي إنا أرسلناك شهدا ومبشرا ونذيرا" إن واسمها وجملة أرسلناك خبرها، شاهدا: حال مقدرة، ومبشرا ونذيرا عطف على شاهدا[٣]، أكد القول في أمر الرسالة وفخمه، فقال "إنا أرسلناك" أي إلى سائر الخلق، مبشرا بالتضعيف ليدل على الكثرة لمن شهدت عليهم بخير، ونذير لمن شهدت عليهم بشر[٤]، قدم التبشير لشرف المبشرين، لأنه رحمة للعالمين، ونذير: على صيغة المبالغة دون منذر لعموم الإنذار وخصوص التبشير[٥].

يا: أداة نداء للبعيد، ومناداة القريب بأداة البعيد تعظيم للرسول الكريم، أي: منادى مبني على الضم في محل نصب، الها: للتنبيه، النبي: بدل منصوب، ومناداة الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم- بصفة النبوة لأن السورة مدنية – وقد تقدم الحيث في هذا في غير موضع-

---

[١] انظر، الالوسي، روح المعاني، ج٢٢، ص ٤٥-٤٦.

[٢] انظر، الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج٢٠، ص ١٢٠٧٤-١٢٠٧٩.

[٣] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج، ص ٣٠.

[٤] انظر، البقاعي، نظم الدرر، ج١٦، ص ٥٠٩-٥١٠.

[٥] الالوسي، روح المعاني، ج٢٤، ص ٥-٦.

والبدء بصفة النبوة دون غيرها لأن ما تلاها من صفات متأت منها لا من غيرها، إن: حــرف توكيد ونصب، نا: ضمير منفصل هو اسم إن، وضمير المتكلمين لأن المتكلم هــو الله تعــالى نفسه، وتعظيم المرسل إعلاء من شأن المرسل وهو الرسول الكريم – صلى الله عليــه وســلم، أرسلناك: جملة فعلية هي خبر لإن، أرسل: ماض للدلالة على تمام الإرسال وانقضائه، والضمير المتصل: فاعل، والكاف: ضمير متصل في محل نصب مفعول، والخطاب بالضــمير المباشــر للرسول الكريم لئلا تتسرب الخشية إلى نفسه الشريفة فالتعظيم له لأنه مرسل لعظيم، هــذا مــا يتوجب على الناس فهمه، لكن هذا العظيم هو الأقرب إلى الله تعالى بل هو سيد الخلــق، فللــه تعالى العظمة ولرسوله، فيما يتعلق في جانب البشر، أما فيما يتعلق في جنب الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– من ربه فله الرحمة والقرب، شاهدا: حال، وهذه الصفة الأولى المتأتيــة عن صفة النبوة، فهو الشاهد لله على الخلق، وهو الشاهد للخلق على ما في الآخرة، وفي هــذه الصفة شهادة من الله تعالى على كمال خلقه وتفرد صفاته، أن ارتضاه له شاهدا، واسم الفاعــل للدلالة على الحدث ومن قام به، ومبشرا: عاطف ومعطوف، وتقديم البشارة على الإنذار تكريم للمؤمنين المصدقين بالرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم، ونذير: صفة مشبهة للدلالة علــى الديمومة، فالإنذار عام دائم والبشارة خاصة للعباد.

"وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا" وداعيا: عطف على شاهدا، بإذنه: حال، وســراجا منيرا: عطف على سابقتها، وهي استعارة[1]، داعيا إلى الله بإذنه ولم يقل شاهدا ومبشرا ونذيرا بإذنه لأن من وصف لا يحتاج إلى إذن أما إذا أراد أن يدعو إلى أمر فإنــه يحتــاج إلــى إذن،

---

[1] انظر، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٤، ص ٣٥١–٣٥٢، والدرويش، إعــراب القــرآن الكــريم، ص ٣٠، والسمين، الدر المصون، ج٩، ص ١٣٠.

والنبي مأذون من الله بالدعاء إليه دون واسطة[١]، ومن اللطائف أن قال: "سراجا" لا شمسا مع أن الشمس أشدّ إضاءة من السراج، ذلك أن الشمس لا يؤخذ من نورها شيء والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة، فإذا انطفأ الأول يبقى الذي أخذ منه فإذا غاب النبي فكل صحابي أخذ منه نور الهداية سراجا[٢]، أو أنه كالسراج يهدي إلى الحق[٣]، ووصفه بالإنارة لأن من السراج ما لا يضيء إذا دقت فتيلته[٤]، وهي استعارة للنور الذي تضمنه شرعه[٥].

الواو: عاطفة، داعيا: اسم الفاعل للحدث ومن قام به، وهي معطوفة، إلى حرف جر، يفيد انتهاء الغاية المجازية، الله: لفظ جلالة، هو اسم مجرور، والمعنى توكيد لكون الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– يدعو إلى طريق الله ومنهجه، بإذنه: الباء: حرف جر يفيد الاستعانة، إذن: مجرور مضاف، والضمير المتصل: مجرور بالإضاقة، وهوعائد على لفظ الجلالة، ومن تلطفه أن جعل دعوته بإذنه أي بتيسيره وتسهيله وإلا لما كانت، فهي أمر شاق صعب لا يتأتى لأحد من البشر إلا بتوفيق وتيسير من الله تعالى، وفي هذه تلطف كذلك، أن يؤنس الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– بأنه مؤازر من الله، منصور من عنده، وسراجا: عاطف ومعطوف، والسراج دون الشمس لما تقدم من اللطائف، ولأن السراج يستضاء به في الظلام أما الشمس فهي منيرة في النهار، والناس كانوا في ضلال، إلى أن بعث الله الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– رحمة وسراجا منيرا، والاستعارة تصريحية، لما بين الرسول

---

[١] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٥، ص ٢٠٧-٢١٨.

[٢] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٥، ص ٢٠٧-٢١٨. والبقاعي، نظم الدرر، ج١٥، ص ٣٧١-٣٧٣، والشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، ج٢٠، ص ١٢٠٧٤-١٢٠٧٩.

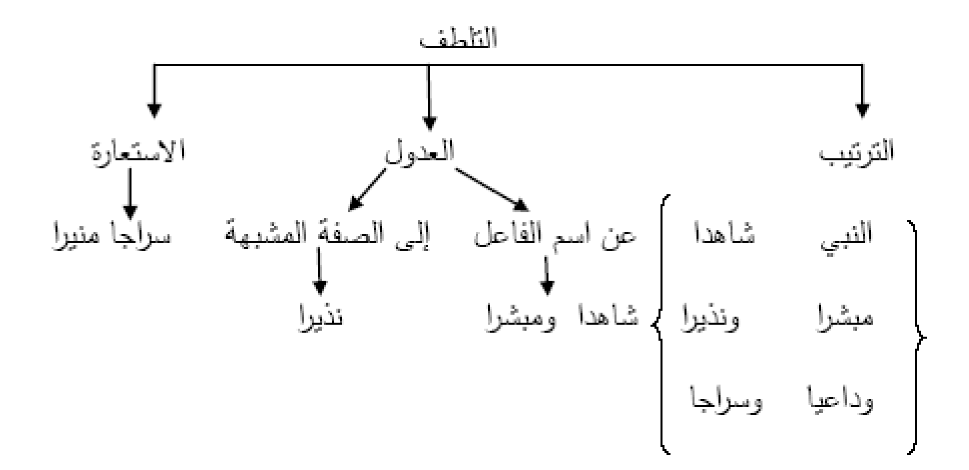
[٣] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٢٥، ص ٢٠٧-٢١٨.

[٤] انظر، أبو حيان الأندلسي، ج٧، ص ٢٣٠، والالوسي، روح المعاني، ج٢٢، ص ٤٥-٤٦.

[٥] انظر، الثعالبي، الجواهر الحسان، ج٤، ص ٣٥١-٣٥٢.

الكريم – صلى الله عليه وسلم– والسراج من تشابه في إجلاء الظلام، منيرا: نعـــت منصـــوب، وذكر النعت لازم لأن من السراج ما هو منير ومنه غير ذلك، أما الرسول الكريم – صـــلى الله عليه وسلم– فلا يشبه إلا المنير منه.

والتلطف في الترتيب واضح، فهو النبي أولا، ثم الشاهد والشهادة متأتية عن النبوة، ثـــم مبشر للمؤمنين، ونذير للكافرين، والبشارة قبل النذارة، لفضل المبشرين ولخصوصـــيتهم، أمـــا النذارة فعامة، وكلاهما متأت عن الشهادة، ثم داعيا إلى كلا الفريقين إلى الله، ثم وصفه الله تعالى بانه سراجا منيرا، وهذه من تلطفه أن امتدحه بأشرف الأوصاف وأدق الأقوال.



الشاهد الثاني:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾ البلد: ٢

أي أن الكفار كانوا يحرمون أن يقتلوا صيدا أو يعضدوا شـــجرة فـــي البلـــد الحـــرام، ويستحلون إخراجك وقتلك على عظم حرمتك، وفيها تثبيت للرسول الكريم وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة وتعجيب من حالهم في عداوته، وأنت حل بهذا البلـــد: يعنـــي بـــه فـــي المستقبل تصنع ما تريد، والمقصود فتح مكة، وما فتحت لأحد قبله ولا أحلت، فأحل مـــا شـــاء

وحرم ما شاء[١].

إن الله تعالى يتلطف برسوله – صلى الله عليه وسلم- بأن يبشره بفتح مكة، بل ويبشره أن سيكون حلا فيها يحرم ما يشاء ويحل ما يشاء، بما يتفق مع شرع الله تعالى، ويتعجب من حال الكفار الذين كانوا على جاهليتهم يتخذون من مكة أرضا حراما يحرمون فيها الصيد والقتل والقتال، إلا أنهم كانوا يتآمرون على قتل الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم- أو نفيه أو إخراجه أو أذيته.

حل بمعنى مقيم نازل فيها حالّ بها، أو أنك غير مرتكب من المحرمات ما يرتكب الكفار، وحل: بمعنى لست بآثم وحلال لك أن تقتل من شئت، لأن أهل هذا البلد قد جاؤوا بأعمال توجب الإحلال[٢]، أو لا تؤاخذ بما عملت فيه وليس عليك فيه ما على الناس، وقيل: أحلت ساعة ساعة له من النهار، وذلك يوم فتح مكة ثم حرمت إلى يوم القيامة[٣].

يتلطف الله برسوله – صلى الله عليه وسلم، أن جعله متصرفا في الأمر كيف يشاء لما عصمه من الزلل والخطأ، فالرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم- وإن أوتي الرخصة من الله ما هو بمرتكب السوء وإن استحق أهل مكة العقاب والجزاء، فما هو إلا رحمة للعالمين مرسل

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص٦٤٦-٦٤٧، والفخرالرازي، ج ٣١، ص ١٨٠-٠٨١، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٨، ص ٤٦٩-٤٧٠، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٢٢، ص ٥٩، والسيوطي، الدر المنثور ، ج ١٥، ص ٤٣٢-٤٣٦، والألوسي، روح المعاني، ج ٣٠، ص ١٣٣-١٣٤، والسمين، الدر المصون، ج١١، ص ٥-٦.

[٢] انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٣١، ص ١٨٠١٨١، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٨، ص ٤٦٩-٤٧٠، والثعالبي، الجواهر الحسان، ج٥، ص ٥٩، والبقاعي، نظم الدرر، ج٢٢، ص ٤٧-٤٨، والسيوطي، الدر المنثور، ج١٥، ص ٤٣٢-٤٣٦، والسمين، الدر المصون، ج ١١، ص ٥-٦.

[٣] انظر، السيوطي، الدر المنثور، ج١٥، ص ٤٣٢-٤٣٦، والألوسي، روح المعاني، ج٣٠، ص ١٣٣-١٣٤.

من الله متأدب بأدبه معصوم بعصمته.

ربطا بالآية السابقة "لا أقسم بهذا البلد" أقسم الله بالبلد تعظيما لهـا، وتشـريف المكـان لشرف ساكنيه[١].

والراجح أن الله تعالى قد أقسم بها لما جمعت بين الشرفين شرفها بإضـافتها إلـى الله، وشرفها بحضور الرسول - صلى الله عليه وسلم- وإقامته فيها فصارت أهلا لأن يقسم بها[٢].

يتلطف الله برسوله أن أقسم ببلده التي هو منها وقد نزل بها، وتشـريفها بالقسـم بهـا للكشف عن مكانة الرسول - صلى الله عليه وسلم- أن زاد من شرفها بنزوله فيها وانتسابه لها.

أما التلطف في التراكيب فيجنى من قوله تعالى "وأنت حل بهذا البلد" الـواو حاليـة أو اعتراضية، أنت: مبتدأ، حل: خبر، البلد: بدل[٣]، والجملة اعتراضية بين القسم والمقسـم بـه، والمعنى للاستقبال[٤]، وهي حالية، وبها إفادة تعظيم المقسم به[٥].

الواو: حالية، أنت: ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ، والخطاب بالضـمير المنفصـل لتوكيد الخصوصية له بالأمر، فله أن يحلل أو يحرم كيف يشاء، وهذا أمر خص بـه أي لـه لا لغيره من البشر، حل: خبر، وحل في اللسان: النزول بأرض[٦]، والصفة المشبهة للدلالة علـى

---

[١] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٦٤٦-٦٤٧، والفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج٣١، ص ١٨٠١٨١، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٨، ص ٤٦٩-٤٧٠، والبقاعي، نظم الدرر، ج٢٢، ص ٤٧-٤٨، الألوسي، روح المعاني، ج٣٠، ص ١٣٣-١٣٤. السمين، الدر المصون، ج ١١، ص ٥-٦.

[٢] انظر، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٨، ص ٤٦٩-٤٧٠.

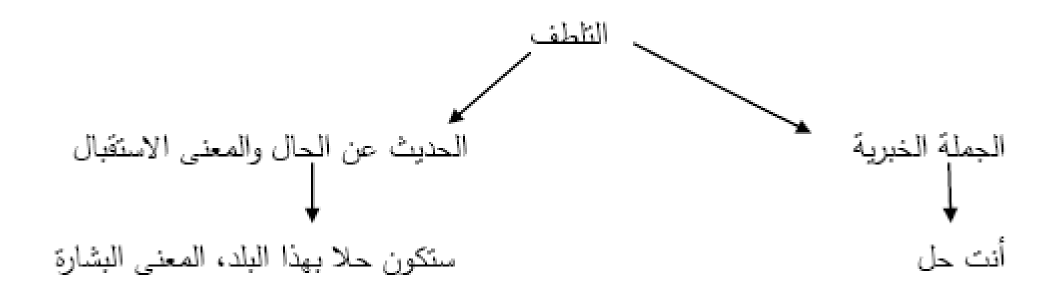
[٣] انظر، الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج١٠، ص٤٨٥.

[٤] انظر، الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٦٤٦-٦٤٧، والألوسي، روح المعاني، ج٣٠، ص ١٣٣-١٣٤.

[٥] انظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ٨، ص ٤٦٩-٤٧٠، والبقاعي، نظم الـدرر، ج٢٢، ص ٤٧-٤٨، والسمين، الدر المصون، ج ١١، ص ٥-٦.

[٦] انظر، ابن منظور، مادة حلل.

الديمومة، أو المعنى للاستقبال وفيها بشارة للرسول الكريم أن ستفتح له مكة ويكن له من الأمر ما لم يكن لغيره، الباء: جار يفيد الظرفية المكانية، هذا: اسم إشارة في محل جر بحرف الجـــر، والإشارة لمكة باسم الإشارة دلالة على مكانتها وشرفها وقربها من نفس الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم، البلد: بدل مجرور.



الخاتمة

خلصت الباحثة إلى جملة من النتائج، هي ثمرة هذا البحث، إن التلطف مفهوم يدور في الدقة والرقة، وقولبة العصي الثقيل بقالب الرفق واللين، ويدور في أربعة محاور هي: الرقـــة، وقبول الانقسام، وسرعة التأثر، والشفافية.

مادة رسل بمعنى بعث وبمعنى الامتداد ثم أصبحت تشير إلى أي مبعوث برســـالة، ثـــم أصبحت تشير إلى مبعوث من الله (بتخصيص دلالتها).

ورد اسم الله تعالى (اللطيف) في القرآن الكريم في سبعة مواضع، خمســـة منهـــا ورد الاسم مقترنا باسم الله تعالى (الخبير) وفي موضع مع اسميه تعالى (القوي العزيز) وفي آخر مع اسميه تعالى (القوي الحكيم).

التلطف ظاهرة أصيلة في اللغة وإن كانت قد درست تحت مسميات مختلفة، والتلطـــف ظاهرة تلتقي مع الكناية في سببها من احتراز وتلاف لألفاظ يؤنف من ذكرها، أوالتشاؤم والتطير والحياء أو حتى تحسين اللفظ.

التلطف ظاهرة تلتقي مع التعريض من وجه التخفي والاستتار، والكناية والتعريض عند عبد القاهر وجهان لشيء واحد، والكناية العرضية والتعريض واحد عند الســـكاكي، مصـــطلح التلطف قد تناوله البلاغيون تحت أبواب بلاغية أخرى.

أبرز الأبواب البلاغية التي درس تحت اسمها التلطف هو باب الكناية، والتلطف وصف وظفه البلاغيون عند ثنائهم على حسن من الأقوال لا باعتباره بابا بلاغيا منفردا،

من المفسرين المبتدرين في شرح الكنايات القرآنية هو الإمام الطبري (ت ٣١٠هــــ)،

والتلطف هو اللحن عند ابن وهب (ت ٣٥٥هـ)، والتلطف درس تحت باب الكناية عند ابن فارس (ت ٣٩٥هـ)، وقد ظهر التلطف عند ابن جني (٣٩٢هـ) بميادين جديدة صرفية وصوتية.

مبتدع مصطلح التلطف هو أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، في كتابه الصناعتين الكتابة والشعر، والتلطف درس عند الثعالبي (٤٢٩هـ) تحت باب الكناية والتعريض، و قد درس تحت باب التورية عند القيرواني (ت ٤٥٦هـ)، والتلطف عند الجرجاني (ت ٤٧١هـ) درس تحت باب الكنايات، وتجلى مفهوم الكنايات اللطيفة عند الزمخشري (ت ٥٢٨هـ) صاحب الكشاف.

تنبه ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) للخلط بين المفاهيم البلاغية، فوضع حدا للكناية والتعريض، فالتلطف عند السكاكي (٦٢٦هـ) هو الكناية، وهو عند ابن أبي الإصبع (ت ٦٦٨هـ) مصطلح جديد هو التغاير، والتلطف عند القرطبي (ت ٦٧١هـ) هو الكناية، وعند القزويني (ت ٧٣٩هـ) يفرق بين الكناية والمجاز، كما فرق العلوي (ت ٧٤٥هـ) بين أبواب البلاغة.

ومن المفسرين أبو حيان التوحيدي (ت ٧٤٥هـ) الذي فسر كنايات القرآن الكريم، ولتقسيم الآيات بعد آخر، معيار تحديده هو خطاب الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم- بصفتي الرسالة والنبوة، فإذا كان السياق مع الكفار أو المنافقين فالخطاب له بصفة الرسالة، وإذا كان السياق مع المؤمنين فالخطاب بصفة النبوة.

للتلطف أساليب جديدة، العدول والانزياح، والخروج على خلاف مقتضى الظاهر، والتتميم والتكميل، والحصر والقصر، والتذييل، والتكرير، والنفي، والتحذير والإغراء،

والاستفهم والأمر والنهي.

الخطاب بضمير المخاطب إما ان يكون تسرية عن فؤاد الرسول الكـــريم - صـــلى الله عليه وسلم، أو يكون تثبيتا له أو يكون وعودا وتأميلا له، ذكر سيدنا محمد في القـــرآن الكـــريم غالبا ما يكون في آخر السور، والخطاب بضمير الغائب يكون توجيها وإرشادا للرسول الكريم، أو دفاعا عنه.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد، المستطرف في كل فن مستظرف، د.ط، س٢٠١١م، دار الفجر للتراث، القاهرة .
- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بـ(ابن الأثير الموصلي)، المثل السائر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، د.ط، د.س، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.
- الألوسي، شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، أبو الفضل، تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، د.ط، د.س، دار إحياء التراث العربي، لبنان بيروت.
- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف أبو حيان، البحر المحيط، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل احمد عبد الموجود، وشاركهم آخرون: زكريا عبد الحميد النوتي، أحمد النجولي الجمل، قرّظه: عبد الحي الفرماوي، ط١، ١٩٩٣م، ج دار الكتب العلمية ٢، لبنان، بيروت .
- الأنطاكي، محمد، دراسات في فقه اللغة، ط.٤، د.س. دار الشرق العربي بيروت.
- أنيس، إبراهيم، دلالة الألفاظ، ط.٥، س١٩٨٤م، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر.
- أولمان، ستيفن، دور الكلمة في اللغة، ترجمه وعلق عليه: الدكتور كمال محمد بشير، د.ط، د.س، مكتبة الشباب.
- عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، د ط، س١٩٨٧م. دار الحديث، مصر.

- البخاري، محمد بن اسماعيل، أبو أيوب، صحيح البخاري، د.س، ط ١، دار ابـــن كثيـــر، دمشق بيروت.
- البقاعي، برهان الدين أبو الحسن ابراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، د.س، د ط، دار الكتاب الإسلامي.
- البلخي، محمد إبراهيم محمد شريف، أساليب الاستفهام في البحث البلاغي وأسرارها فـــي القرآن الكريم، رسالة دكتوراه، س٢٠٠٧م – الجامعة الإســـلامية العالميـــة إســـلام آبـــاد، الباكستان.
- التهانوي، محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقـــديم وإشـــراف: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارســـي إلـــى العربيـــة: د. عبـــد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناتي، ط ١، س١٩٩٦م، مكتبة لبنـــان ناشـــرون، بيروت، لبنان.
- عبد التواب، رمضان، فصول في فقه العربية، ط.٦، س١٩٩٩م، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- عبد التواب، رمضان، التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، ط.٢، س١٩٩٩م، مكتبـــة الخانجي، القاهرة.
- الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف المالكي، أبو زيد، الجواهر الحسان في تفســـير القرآن، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: علي محمد معوض، وعادل احمد عبد الموجود، شاركهم: عبد الفتاح أبو سنة، ط.١، س١٩٩٧م، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، لبنان، بيروت.
- الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبو منصور، اللطف واللطائف، تحقيق: محمود

عبد الله الجادر، ط.٢، س٢٠٠٢م، وزارة الثقافة، بغداد.

- الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن اسماعيل،أبو منصور، فقه اللغة وأسرار العربية، تحقيق: ياسين الأيوبي، ط ٢، س٢٠٠٠م، المكتبة العصرية، صيدا بيروت.

- الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن اسماعيل، أبو منصور، الكناية والتعريض، صححه: السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي، ط ١، س١٩٠٨م، مطبعة السعادة، مصر .

- الجاحظ، عمرو بن بحر بن الجاحظ، أبو عثمان، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط.٧، س١٩٩٨م، الأردن.

- الجارم، علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، البيان المعاني البـديع، د ط، دس دار المعارف.

- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، أبـو بكـر، أسـرار البلاغة، علق عليه: محمود محمد الشاكر، د ط، د.س، دارالمدني، جدة.

- الجرجاني، أبو بكرعبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز، تحقيـق: محمـد رضوان الداية، وفايز الداية، ط ١، س٢٠٠٧م، دار الفكر، دمشق.

- الجرجاني، أحمد بن محمد الجرجاني النجفي، أبو العباس، المنتخب من كنايـات الأدبـاء وإشارات البلغاء، صححه: السيد محمد بدر الـدين النعسـاني الحلبـي، ط١ ، س١٩٠٨م، مطبعة السعادة، مصر .

- الجرجاني، علي بن محمد السيد الشريف، معجـم التعريفـات، تحقيـق: محمـد صـديق المنشاوي، د.ط، س١٤١٣هـ، دارالفضيلة، القاهرة، مصر.

- ابن جني، عثمان بن جني، أبو الفتح (ت ٣٩٢هـ) الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار،

المكتبة العلمية، د.ط، د.س، دار الكتب المصرية، مصر.

- الجوهري، إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربيـــة، تحقيــق: أحمد عبد الغفور عطار، ط ٤، س١٩٩٠م، دار العلم للملايين، بيروت ،لبنان.
- حسان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، د.ط، س١٩٩٤م، دار الثقافة، الدار البيضـــاء، المغرب
- الحمد، محمد ابراهيم، فقه اللغة مفهومه موضوعاته قضـــاياه، ط ١،س٢٠٠٥م، دار ابـــن خزيمة، السعودية.
- الحميري، نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب مـــن الكلـــوم، تحقيـــق: أ. د. حسين عبد الله العمري، أ. مظهر بن علي الإرياني، أ. د. يوسف محمـــد عبـــد الله، د.ط، د.س، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.
- الحنفي، شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي، أبو الثناء، حسن التوســـل إلـــى صـــناعة الترسل، د.ط، س١٢٩٨هـــ، المطبعة الوهبية، مصر.
- الخالدي، كريم حسين ناصح، نظرية المعنى في الدراسات النحوية، ط١، س٢٠٠٦م، مكتبة المجتمع العربي، دار صفاء، عمان.
- خرما، نايف، سلسلة أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، بإشـــراف أحمـــد مشـــاري العدواني، عالم المعرفة العدد التاسع.
- خضر، محمد زكي، معجم ذكر الرسول – صلى الله عليه وسلم– في القرآن الكريم، ط ١، س٢٠١٣م، دار المأمون للطباعة والنشر، عمان.
- الدرويش، محيي الدين، إعراب القرآن الكريم وبيانه، ط ٣، س١٩٩٢م، دار ابـــن كثيـــر،

بيروت.

- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختارالصحاح، تحقيق: عصام فارس الحرستاني، ط ٩، س٢٠٠٥م، دارعمار، عمان، الأردن.
- الزبيدي، محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الملقب بـ(مرتضى) تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، د.ط، د.س، دارالهداية.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، ص١٩٨٤م، دار التراث، القاهرة.
- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر الخوارزمي، أبو القاسم، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، شرح وضبط ومراجعة: يوسف الحمادي، ط ١، س٢٠١٠م، مكتبة مصر، مصر.
- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر بن أحمد، أبو القاسم، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط ١، س١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
- زموط، عبد الستار حسين مبروك، كتاب التبيان في البيان، رسالة دكتوراه، س١٩٩٧م، جامعة الأزهر.
- السامرائي، إبراهيم، معاني الأبنية في العربية، ط.٢، س٢٠٠٧م، دار عمار، عمان، الأردن.
- السعران، محمود، اللغة والمجتمع رأي ومنهج، ط ٢، س١٩٦٣م، الإسكندرية.
- السكاكي، الإمام سراج الملة والدين، يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، أبو يعقوب، مفتاح العلوم، ضبط: نعيم زرزور، ط ١، س١٩٨٣م، دار الكتب العلمية، لبنان بيروت.

- ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن اسحق، الكنز اللغوي في اللسن العربي، نشـره وعلـق على حواشيه: الدكتور أوغست هفنر، رواية أبي الحسين علي بن أحمد بن محمد المهلبي، أخبر به عنه: الشيخ أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن خرزاد النحيرمي، د. ط، س١٩٠٣م، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت.
- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيـق: أحمـد محمد الخراط، د. ط، د.س، دار القلم، دمشق.
- سوسير، فرديناند، علم اللغة العام، ترجمة: الدكتور يوئيل يوسف عزيز، مراجعـة الـنص العربي: الدكتور مالك يوسف المطلبي، د.ط، س١٩٨٥م، الأعظمية، دار آفـاق عربيـة، بغداد.
- السيوطي، جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط ١، س٢٠٠٣م، مركز هجر للبحوث والدراسات العربيـة والإسـلامية السعودية.
- أبو شادي، مصطفى عبد السلام، الحذف البلاغي في القرآن الكـريم، د. ط، د.س، مكتبـة القرآن، القاهرة.
- أبو شريفة، عبد القادر، علم الدلالة والمعجم العربي، شاركه: حسين لافي، وداود غطاشة، ط١، س١٩٨٩م، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان.
- الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، راجعه وخرج أحاديثـه: أحمد عمر هاشم، د.ط، س١٩٩١م، طبعه: دار أخبار اليوم، الأزهـر، مجمـع البحـوث الإسلامية، مصر.

- الشهري، عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطـــاب مقاربـــة لغويـــة تداوليـــة، ط ١، س٢٠٠٤م، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا .
- الصعيدي، عبد المتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علـــوم البلاغـــة، ط ٤، د س، مكتبة الآداب، مصر .
- طاهر، نسرين، ظاهرة الحصر والقصر مفهوما وبلاغة في إطار القرآن الكـــريم، رســـالة دكتوراه، س٢٠٠٧م، الجامعة الوطنية للغات الحديثة والعلوم، إسلام آباد- باكستان.
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، أبو جعفر، جامع البيان عن تأويـــل القـــرآن، تحقيق: د. بشار عواد معروف وعصام فارس الحرســـتاني، ط.١، س١٩٩٤م، مؤسســـة الرسالة، بيروت، لبنان.
- أبو الطيب، عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي، كتاب الإبدال، حققه وشرحه ونشر حواشيه الأصلية وأكمل نواقصه: عز الدين التنوخي، د.ط، س١٩٦٠م، مطبوعات المجمع العلمـــي العربي، دمشق.
- العاني، لمى فائق جميل، بحث بعنوان "الكلام المحظور (اللامساس)"، مجلة كليـــة الآداب، العدد: ١٠١، جامعة بغداد، بغداد.
- عباس، أ. م. د، سهام جاسم، التبكيت وأساليبه النحوية، المقدمة، ١١٠. www.iasj.net
- عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفنانها في علم المعاني، ط٢، س١٩٨٩م، دار الفرقان.
- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضـــل إبـــراهيم، ط ١، س١٩٥٢م، دار إحيـــاء الكتـــب العربية.

- عصام الدين عبد السلام محمد أبو زلال، التعبير عن المحظور اللغوي والمحسن اللفظي في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، ٢٠٠١، القاهرة.
- عضيمة، عبد الخالق، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، د.ط، د.س، دار الحديث، القاهرة.
- العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني الطراز، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط.١، س٢٠٠٢م، المكتبة العصرية، صيدا بيروت.
- عمر، أحمد مختار، علم الدلالة، ط ٧، س٢٠٠٩، عالم الكتب، القاهرة.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، د .ط، د.س،المكتبة التوفيقية، القاهرة.
- الغزالي، محمد بن محمد، أبو حامد، الملقب بحجة الإسلام، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق: محمد عثمان الخشت، د ط، د .س، مكتبة القرآن، القاهرة.
- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ) معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، د ط، س١٩٧٩م، دارالفكر، لبنان.
- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب الرازي، أبو الحسين، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، علق عليه وشرح حواشيه: أحمد حسن بسج، ط١، س١٩٩٧م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري الطبري، أبو عبد الله، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ط ١، س١٩٨١م، دار الفكر، لبنان.
- فرويد، سيغموند، الطوطم والتابو، ترجمه عن الألمانية: بو علي ياسين، راجعه للعربية: محمود كبيبو، ط ١، س١٩٨٣م، دار الحوار للنشر، اللاذقية، سورية.

- فندريس، جوزيف فندريس، اللغة، تعريب عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصـــاص، د.ط، س١٩٥٠م، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر.
- فياض، حسن حميد، بحث بعنوان "العدول في السياق القرآني"، جامعة الكوفة، قســم اللغــة العربية.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو محمد، عيون الأخبار، تحقيــق: منـــذر محمد سعيد أبو شعر، ط.١، س٢٠٠٨م، المكتب الإسلامي، عمان، وبيروت.
- القرطبي، محمد بن احمد بن أبي بكر، أبو عبد الله (ت ٦٧١هــ)، الجامع لأحكام القـــرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، تحقيق: عبد الله بن عبـــد المحســـن التركـــي، شاركه: محمد رضوان عرقسوسي، ط.١، س٢٠٠٦م، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- قطب، سيد إبراهيم حسين الشاذلي، في ظلال القرآن، ط.٧، س١٩٧١م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- القزويني، الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بـــن أحمـــد بـــن محمد، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، وضع حواشـــيه: محمـــد علـــي بيضون، ط ١، س٢٠٠٣م، دار الكتب العلمية، لبنان بيروت.
- القيرواني، الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، أبو علي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، حققه وفصله وعلق على حواشيه: محمد محيي الدين عبـــد الحميـــد، ط٥، س١٩٨١م، دار الجيل، سوريا.
- ابن القيم، شمس الدين محمد بن أبي بكر، روضة المحبين ونزهة المشـــتاقين، د.ط، د.س، دار النبلاء، بيروت.

- كراع النمل، علي بن الحسن الهنائي، أبو الحسن، المنتخب من غريب كلام العرب، تحقيق: محمد بن أحمد العمري، ط ١، س ١٩٨٩م، جامعة أم القرى، مركز ودود للمخطوطات.
- الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني، أبو البقاء، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أعده للطباعة ووضع فهارسه: د. عدنان درويش، محمد المصري، ط ٢، س١٩٩٨م، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان.
- لعيبي، حاكم مالك، الترادف في اللغة، د.ط، س١٩٨٠م، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر.
- ليونز، جون، اللغة وعلم اللغة، ترجمة وتعليق: د. مصطفى التوني، ط.١، س١٩٨٧م، دار النهضة العربية، القاهرة.
- المبرد، محمد بن يزيد، أبو العباس، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، د ط، د س، وزارة الشؤون الإسلامية والاوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.
- مدكور، إبراهيم مدكور، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، قدم له وأشرف عليه: د. شوقي ضيف، ط ٤، س٢٠٠٤م، مكتبة الشروق الدوليه، القاهرة ،مصر.
- المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، ط٣، د.س، الدار العربية للكتاب.
- المصري ابن أبي الإصبع، زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد ظافر بن عبد الله بن محمد المصري، المعروف ب،(ابن أبي الإصبع) (ت ٦٥٤هـ) بديع القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، د.ط، د.س، دار النهضة، مصر.
- المصري ابن أبي الإصبع، زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله بن

محمد المصري، أبومحمد، المعروف بـ(ابن أبي الإصبع)، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وإعجاز القرآن، تحقيق: يحيى مراد، د ط، د س، دار النهضة، مصر.

- مصطفى عبد الحفيظ سالم، فهرس اللغة في كتاب المنتخب لكراع النمل، مركز ودود للمخطوطات، د .ط، س١٤١٤هـ، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، مكة المكرمة.
- عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية، ط١، س١٩٩٤م، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان.
- مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. ط، س١٩٨٦م، مطبعة المجمع العلمي العراقي.
- ابن المعتز، عبد الله، أبو العباس (ت ٣٩٩هـ) البديع، حققه وشرحه: عرفان مطرجي، ط١، س٢٠١٢م، مؤسسة الكتب الثقافية.
- ابن معصوم، السيد علي صدر الدين المدني، أنوار الربيع في أنواع البديع، حققه وترجم لشعراءه: شاكر هادي شكر، ط١، د.س، مكتبة العرفان، العراق.
- مغالسة، محمود حسني، النحو الشافي، ط١، س١٩٩١م، دار البشير، الأردن.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري الخزرجي المصري الإفريقي، لسان العرب، د.ط، س٢٠١٠م، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، شركة دار النوادر، الكويت.
- موسى، محمد محمد، دلالات التراكيب دراسة بلاغية، ط٢، س١٩٨٧م، مكتبة وهبة.
- ابن الناظر، بدر الدين بن مالك، المصباح في المعاني والبيان والبديع، حققه وشرحه ووضع فهارسه: حسين عبد الجليل يوسف، د.ط، د.س، مكتبة الآداب، مصر.
- ابن هشام، أبو عبد الله جمال الدين الأنصاري (ت ٧٦١هـ) شرح قطر الندى وبل الصدى،

حققه وشرح معانيه وأعرب شواهده: محمد خير طعمة حلبي، ط٢، س١٩٩٧م، بيـــروت، دار المعرفة، لبنان.

- ابن وهب، اسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، أبوالحسن، البرهان فـــي وجـــوه البيان، تحقيق: د. جفني محمد شرف، د.ط، د.س، مكتبة الشباب، مطبعة الرسالة.

Abstract

The Euphemism of the Prophet's – Peace Be Upon Him – Speech in the Holy Quran

A Synthetic Semantic Study

Prepared by: EmanAbdul-Rahman Al-Zu'ubi

Supervised by: Prof.Dr.MuneerTayseerShantawi

This study aims at revealing the principles of euphemism in the Prophet's – Peace be upon him – speech in the holy Quran. It tries to find out the principles of euphemism and privacy in his speech by observing the Quranic verses he – peace be upon him – has been spoken to by, then interpretations were used to explain these verses. After that, glossaries and Rhetoric Arabic books were resorted to in order to discern the true meanings of his euphemism through the divergent linguistic structures in the holy Quranic verses through their context and the occasions of their descend.

This study relies on an identification card that include the meanings, the title of the study four chapters, and a conclusion. As for the identification card, it is concerned with explaining the three concepts which have been used in the title of the study, which are: euphemism, speech, and the Message.

The first chapter is titled "Euphemism: Term, Definition and a Value." The term has been addressed by applicants and modernists, connecting between itself and the studies of Semantics and Psychology.

As for the second chapter, which is titled "The Euphemism of the Prophet's – Peace be Upon Him – using the Addressee Format," and the formats which the study has been held are included under this title, which might come as a separate conscience format (You), or the addressee by "like" format which is related to names, verbs, etc. It relies on two pieces of evidence for each pattern to conclude the euphemism, which is considered the fruit of labour of this study.

The third chapter, titled "The Euphemism of the Prophet's – Peace be Upon Him – using the conscience of the absent Format," deals with the Quranic verses which addressed the Prophet -peace be upon him using the conscience of the absent Format,

while relying on two pieces of evidence from the Quranic verses for each pattern.

The fourth chapter, titled “The Euphemism of the Prophet’s – Peace be Upon Him – by referring to him without explicit mention or different formats of the addressee and the absent, but by his names and characteristics.”

The conclusion resolved to a number of findings, which are: Euphemism is the general trait of the Heavenly Speech directed at the Prophet – peace be upon him. Euphemism is an old concept which has been used by applicants under different names. Euphemism shows through numerous rhetorical and linguistic methods, some of them are refrain, deviation, Presentation and Delay, etc.